أشرف الضباعين
Ashraf Dabain

# صحراء فاضلة

روايـة

خرفا
ناشرون وموزعون

المملكه الاردنيه الهاشميه
رقم الايداع لدي دائرة المكتبة الوطنية
(2022/1/509)

813.9

الضباعين؛ اشرف عبدالله

صحراء فاضلة / اشرف عبدالله الضباعين.مأدبا : المؤلف،. 2022

( ) ص.

ر.إ.: 2022/1/509.

الواصفات: / الروايات العربية / /الادب العربي/ / العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤوليه القانونية عن محتوي مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكوميه اخري.

رقم الردمك:
978-9923-00-209-4

صفحة الروائي على الفيسبوك
https://www.facebook.com/ThewriterAshrafDabain

# صحراء فاضلة

## رواية

## أشرف الضباعين

صورة الغلاف إهداء من د. زياد السلامين

جميع الحقوق محفوظة ، لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عن أي طريق، سواء أكانت إلكترونية، أو ورقية، أم بالتصوير، أم بالتسجيل، أم بخلاف ذلك دون الحصول على إذن المؤلف خطيًا، وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل للملاحقة القانونية.

الآراء والشخصيات والتفاصيل الواردة في هذا الكتاب غير حقيقية ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار النشر.

# تقديم الرواية:

هذه الرواية من وحي الكاتب، جميع ما ورد فيها من أحداث هي من خيال الكاتب ولا تمت للواقع بصلة، ما عدا بعض الأسماء التاريخية التي أُقحمت في النص لتخدم الرواية، أما الأماكن فبعضها حقيقي وبعضها لا وجود له. الأماكن في الصحراء غالبًا ذات لونٍ واحد باهتة لكنها مميزة، وعلى قِلتها، تُلهمنا وتعطينا من جمالها ورونقها وخصوصيتها ما يجعلنا نتخيل ونقع في حبها، والكاتب متى وجد إلهامًا في مكانٍ ما يقع أسيرًا لهذا الإلهام المرتبط بالمكان، فيبدع في خلق شخوص وأزمنة وأحداث تتناسب وما وقع في قلبه وضميره من هول المكان وهوائه وأهوائه وهواه.

أي شخوص أو أحداث أو أقوال وردت هنا وارتبطت بشخصيات حقيقية أو أحداث حقيقية هي محض صدفة.

هذه الرواية كتبت لكل من يعاني من التنمر أو محاولات الآخر كسر شوكتهم وإبداعهم.

كُتبت لأصحاب القلوب البيضاء وأصحاب النية الحسنة.

**كُتبت لكل شخص ساعد أو يساعد الآخرين سواء بالجهد البدني أو النفسي أو أي جهد آخر.**

**كُتبت لأرواح من ماتوا دفاعًا عن معتقداتهم وآرائهم وأوطانهم وتراثهم وأصبحوا من التاريخ وخصوصًا أولئك الذين طُمِست معالم وجودهم وأثرهم وآثارهم.**

ما جاء بين « « هو تفكير داخلي أو حوار ذاتي بين الشخصية وذاتها، وما جاء بين << >> أحاديث متبادلة بين الشخوص في الرواية.

# مقدمة الرواية

في أحد المناطق البعيدة... في وسط العالم... في وسط الصحراء... كانت هناك مملكة.

مملكة من شعبٍ مسالمٍ حكيم يشتهر معظم شعبه بالفن والحكمة والإيمان والحب... كانوا شعراء وحكماء ومبدعين، لكن كانت تنقصهم الكثير من الأشياء أهمها القدرة على الاستمرار في الصحراء.

حكم هذه المملكة ملوك يتصفون بالجاه والعز والحكمة والقوة.

أنهم سلالة من شعب قديم قرر أن يعيش بطقوسه وإيمانه ومعتقداته بين الجبال وما بينها من مساحات وأودية واسعة، وأبدع هذا الشعب في حصاد الماء وتحويل مناطقهم لجناتٍ واسعة، ورغم أنهم مملكة منغلقة فيها من السرية ما لا يعرفه أعدائهم، لكن هذا الشعب بقي على تواصل مع الأمم الأخرى.

كان أحد أهم تحالفاتهم، تحالفهم مع ملوك الجان. الجان طلبوا منهم أن تبقى الأرض نقية من الغرباء، وهم طلبوا العون من

الجان في محاربة الأعداء.

ثم حكم هذا الشعب ملكٌ ضعيف جبان اسمه «علمعيل» فتحالف مع أهل الشمال الأغراب فسمح لهم بدخول مملكته والإقامة فيها وبناء معابدهم.. فدخلوها بلغتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم.. ثم زوج بنات مملكته للغرباء... ضاربًا تحالف أجداده مع ملوك الجان عرض الحائط.

في ليلةٍ غضب الجان من هذه المملكة، جاء مطرٌ شديد ثم زلزال عظيم، فانهارت السدود وخُرّبت البرك وأنظمتهم المائية والدفاعية وانهارت معظم البيوت والكهوف، وسقطت الكثير من معابدهم، وأصبحت عاصمتهم ومدنهم لا تصلح للعيش. كثر الموت وتناثرت الجثث في الشوارع والزقق والممرات والساحات، وكان من المستحيل إخراج معظمها من تحت الأنقاض، ثم أصابهم الجوع والعطش، وفُقِدَ الكثير من الناس، وكثرت المصائب والمصاعب، فقرر الملك الضعيف أن يأخذ من تبقى من شعبه ويرحل للشمال تاركًا خلفه كل شيء، فعارضته مجموعة صغيرة من شعبه، من بينهم أخيه «ربعيل»، فرحل الأخ المنشق «ربعيل» مع مؤيديه عن عاصمتهم المُخرّبة ورحلوا نحو قرية قديمة قريبة تتصف بالمنعة ليدافعوا عن أنفسهم ضد أي محتل وتعهدوا بأن يعودوا

لعاصمتهم بعد أن يعيدوا تقوية أنفسهم، أما الملك الضعيف فأخذ ما تبقى من الجند والشعب ورحلوا نحو الشمال.

وهكذا تبدأ الرواية.

# الفصل الأول

« كنا صغارا لا نهتم كيف تسير بنا الأيام. هرمنا ولسنا كبار بالسن... ما زلنا في بداية العمر. ننسى كثيرا... ننام طويلا... ومعظم وقتنا نعيشه بلا أصدقاء.

العمر رقم ونحن أمام هذا الرقم لا شيء. العمر يمر ونحن الآن نناشده أن يتمهل قليلاً . أن يمر ببطء لأننا لا نستطيع أن نجاريه في الركض.

انهيتُ ٣٠ عامًا وبدأت للتو ٣١. أنا الآن أقضي معظم يومي أُدخن، فالتدخين الوسيلة الوحيدة للتنفيس عن مكنوناتي بالإضافة لكتابةٍ شبه يومية.

أمامي مشهدٌ فوضوي، فوقي نجوم وسماء ملبدة بالسواد، أمامي سورٌ عتيق طوله نصف قامتي، وأنا جالسٌ على أريكةٍ مكسورة وقد احتجبت نصف المدينة عن المشهد، والنصف الآخر يكاد يكون مختفيًا بذاته،

مدينة الفوضى ضجيجها يكاد لا يسمع.

أنا أرى الفوضى والفوضى لا تراني.

أنا أسمع الفوضى والفوضى لا تسمعني.

أنا أشم وألمس وأتذوق الفوضى...

وطالما أنا أشعر بها فإذا أنا لدي أحاسيس... لكنها أحاسيسي أنا فقط.

هذا المكان يُشبه مقهًا عتيقًا يمتلئ بالقذورات... لكنني كل مرة آتي للمقهى أتناسى القذورات وأركز اهتمامي على دفتري... وأقول: كلُ عامٍ وأنا بخير.. أنا... أنا التي أجهلها، أو هي تتجاهلني، كعاشقة تتكبر على شاعرٍ يكتبها قصيدة... فتهمله أكثر لعله يكتب قصيدة أجمل غدًا، فيأتي الغد ويكتب قصيدة أجمل فتتجاهله أيضًا لعله يكتب شيئًا أجمل، فينكسر، ثم يعود في اليوم التالي يكتب أجمل، فتهمله... وهكذا.

أنا المقهى والمحطة وأرى العمر يمر كقطارٍ لا يبطء ولو قليلاً لأخذ نفسًا عميقًا أو يتوقف في محطة ما ويتركني هناك».

كان هذا ضرغام... يكتب في يومياته عندما قاطعه اتصالٌ هاتفي من زميله وعيد:

وعيد: << لقد جاء الفرج، تم اختياري أنا وأنت لمشروعٍ بحثي مع دكتور مشهور جدًا، واذا نجحنا سنحصل على منح دراسية

مجانية. جهز نفسك للمغادرة غدًا معهم>>.

إنها فرصة لا تعوض... أخيرًا سأذهب للخارج وأكمل دراستي وسأبقى هناك. لن أعود لهذا الوطن البائس.

عاد للكتابة:

« نسافر أنا وأنا التي أخبرتكم عنها... نسافر بلا هوية، لنختفي خلف جدارٍ مجهول. كقاتلٍ أهربُ من شيء ما، لا بل من أشياء كثيرة. أهرب من ذاتي.. من ذكرياتي.. من هزائمي وفشلي، نحو المجهول. أهرب من المستقبل الذي يحمل خنجره خلف ظهره ويقول: تعال إلي.

نسافر بحقيبةٍ واحدة، فيها قميص مخطط بالأحلام وبنطال أسود مكوي على عجل ومطويٌ كيفما كان، وعددٍ لا بأس به من الأوراق البيضاء وعدة أقلام ومجموعة كتب! وجواز سفر، والتأشيرةُ كُتِبَ عليها: لغرض النسيان.

نسافر كلينا بتذكرةٍ واحدة، ليس بهدف التوفير بل لأنه بطلُ روايتي الجديدة الذي خلقتهُ من العدم، فولد ولادةً فوق الطبيعة ليقود الرواية حيث يجب أن تكون. أما الكاتبُ الطُفيلي فلا يستطيع العيش دون الكلام.

وما فائدةُ كاتبٍ لا يعيش دون كلام؟ كاتب بلا كلام يبوح به ما

هو إلا إنسان عادي!

والإنسان الطبيعي كيف سيكتب رواية؟ لن يستطيع! إن الرواية والقصيدة والقصة والخاطرة تُكتبُ من معاناة، من تجربة، من أحلام! فالكاتب نفسه إنسان غير طبيعي».

وضع القلم داخل دفتره الصغير، فقد وصلت الحافلة إلى طريقٍ يمتلئ بالمطبات، فأصبح من الصعوبة الاستمرار بالكتابة، وضع الدفتر بجانبه ثم أخرج هاتفه النقال من جيبه وقرر أن يُسجل ما تراوده من أفكارٍ حول الرواية قبل أن يفقدها، نظر لشحن الهاتف النقال وكان جيدًا بما يكفي لتسجيل بعض الأفكار التي تراوده.

« احتاجُ إلى أن أخلو إلى نفسي وأجلسُ معها على إنفراد. احتاجُ إلى أن أُنقي روحي من شوائب الحياة وأن أُعيد ترتيب تلك الأشياء التي ينتزعها الناس من دواخلنا ويبعثرونها بلا أدنى اهتمام، احتاج إلى أنقاذ ما يمكن انقاذه من روحي التي بدأت تخبو وتموت، ومن جسدٍ انغمس كليًا في أوحال الحياة، وأمراضها وهمومها وتعبها، احتاج إلى أن أخرج من مستنقع الزمن وغابة تمتلئ بالحيوانات المفترسة، وأن أُزيل عن نفسي وثيابي تراكمات تعلق فيها كل يوم.

إنني أحاول جاهدًا أن أكون أنا.. أن أستعيد هذا الضوء الذي اختفى وأنا طفل، ولا يهمني هل يقبلني الناس كما أنا أم يرفضون ذلك.

أُحاول أن أُفتش عن ذلك الضوء.. عن تلك الشمعة الصغيرة ذات الضوء الصغير الذي يرقص في العتمة! إن ذلك الضوء اختفى فجأة، وتلك الشمعة التي كانت ترافقني في طفولتي تضاءلت شيئًا فشيئًا حتى ذابت.

إن ذلك الضوء متى اختفى لا يمكن أن يعود.

لكنني أُحاول السيطرة على الفقد.. على الخسارة.. على أشياء لا يمكن السيطرة عليها.. كقطارٍ سريع يخترق اللاشيء على سكة حديدٍ غيرمكتملة ولا أحد يقوده... أحاول السيطرة على أشياء لا يمكن السيطرة عليها إلا بصومعة الوحدة.. وجاءت فرصتي في هذه الرحلة والتي تم اختياري لها بمحض الصدفة».

« لعل الرحلة جاءت متأخرة. لكن دائمًا ما أصلُ متأخرًا عن شيء ما، فقد ولدتُ وحيدًا بعد سنوات طويلة من زواج والدي، قيل لي أنني ولدتُ كزهرةٍ متأخرة، فكأنما تنبأ عني الآخرون بأنني متأخرٌ في كل شيء

من صفاتي الأخرى التي أُنعت بها أنني طيب... وأبيض. ويقترن

هذا اللقب في بلادنا بالسذاجة و«العباطة» و«الهبل»، فكل طيب «أخوث» و«أهبل» إلى أن يثبت العكس. والأبيض سرعان ما يتسخ ويلوث...

لكني لا أعرف أن أُغير وأتغير!

التفتح كجورية بيضاء.. كورقة بيضاء في دفترٍ يكتبُ فيه كاتب مغمور أو هاوٍ مخمور ليس بالشيء الجيد. لكن يصر من يطلقون علي هذا اللقب بأنني ورقة بيضاء ناصعة تصلحُ للكتابة... اذا أنا ورقة بيضاء متأخرة بعض الشيء، ومُلحقة... ورقة معاد تصنيعها.

ورغم إدعائي بأنني أسعى للعزلة لكنني من تلك الفئة من البشر الذين يفضلون الوحدة، أنا من البشر الذين يرون الوحدة شيء ممتاز، عظيم، أفضل الأشياء على الإطلاق».

بدأ هاتفه القديم يعطي تنبيهًا بأن البطارية على وشك النفاذ فقرر أن ينهي التسجيل ويحفظه إلى أن يصل للفندق ويشحنه ثم ينقل النص للدفتر. وضع الهاتف في جيبه وتفاجئ بأن معظم من في الحافلة يُحدق فيه! البعض يكتم ضحكاته والبعض يتمتم في أذن رفيقه... ومعظم الركاب ينظرون له... حتى سائق الحافلة كان ينظر عبر المرآة له.

<< نسيتُ أن أُخبركم أيها السادة بأن رفيقنا السيد ضرغام هو روائي وصدرت له عدة روايات>> ثم تمتم بالإنجليزية قائلاً << والتي لم أقرأ شيئًا منها>>

كان هذا وعيد زميله العربي في هذه البعثة العلمية.

ضحك البعض وحاول البعض الآخر كتم ضحكاتهم!

ثم نظر وعيد لضرغام وقال: << لماذا تتحدث مع هاتفك بصوتٍ عالٍ، ألم تستخدم قلمًا ودفتر؟ أكمل إبداعاتك بصوتٍ خافت، أنت تثير أعصابهم>>.

كانت البعثة العلمية خليط من رجالٍ ونساء من جنسيات مختلفة، كان رئيس البعثة الدراسية دكتور متخصص في التراث الإنساني بريطاني من أصولٍ ألمانية عمره في بداية الستينات ومعه طلاب يدرسون التراث واللغة العربية في جامعة بريطانية. أما ضرغام فكان يحمل ماجستير في التراث والآثار ووعيد ماجستير في السياحة والآثار، وتم انتدابهما من الجامعة المحلية التي يعملان بها ليعملا مع الدكتور على دراسة التراث المادي وغير المادي لمجتمع محلي من البدو يقطن في موقعٍ أثري سياحي على أطراف الصحراء، وكانت الجامعة تنوي على إثر هذه الدراسة ابتعاثهما إلى الجامعة البريطانية لدراسة الدكتوراة.

كان هدف البعثة منطقة ما في الصحراء، وهدفهم دراسة تاريخ وتراث المنطقة ككل وبالأخص بقعة معينة من منطقة يقطنها بدو تُحيط بها جبالٌ مرتفعة ورمال كثيفة وتاريخ مجهول، وستكون هذه فرصة لضرغام وزميله بأن يحصلا على توصية الدكتور وبعثة لدراسة الدكتوراة في بريطانيا.

# الفصل الثاني

توقفت الحافلة الصغيرة في وسط الصحراء ونزل أعضاء البعثة من الحافلة الواحد تلو الآخر نحو المخيم وكان أولهم ضرغام، الذي أصابته الدهشة من تلك الخيم غريبة الشكل. لم تكن خيمًا بدوية حقيقية، بل كانت خيمًا حديدية الهيكل، مكعبة الشكل، يعلوها هرم رباعي، ويحيط بهذا الهيكل قماش أسود ثقيل خشن يشبه في تصميمه وخياطته خيم البدو أو بيوت الشعر كما يسمونها، كانت خيم مرتفعه قليلا عن الأرض بقواعد حديدية وكانت متلاصقة قريبة تحيط بحدود المخيم من جميع الأطراف ما عدا خيمة كبيرة على الطرف الآخر من المخيم، كانت خيم لها أبواب ومغلقة!

في وسط تلك الساحة الكبيرة جدًا من الفراغ التي تمتلئ بالغبار والأتربة، ساحة صغيرة جدًا قريبة من باب الخيمة الكبيرة، في تلك الساحة حوض صغير يمتلئ بالحطب المطفأ ويحيط بها بعض المقاعد الخشبية المتهاكة.

قال في نفسه: «حتى البدو ما عادوا بدوًا!»

أخذ ضرغام ينظر لهذا المخيم الكبير الذي تحيط به جبال شاهقة عالية من جميع الإتجاهات ما عدا ذلك المدخل الذي عبروا من خلاله دخولا للمخيم، كان المنفذ الوحيد للدخول والخروج من المخيم.

ضرغام الذي عاش في المدينة طوال حياته، لم يعش في حياته مغامرة واحدة... لم يدخل في تفاصيل حياة البدو ولم يعش معهم، كانت حياته كلها بين العمل والبيت، حتى دراسته عن البدو أيام البكالوريس والماجستير أختار فيها منطقة قريبة جدًا من مكان سكنه واختار عشيرة بدوية تمدنت مع مرور الوقت، تقطن قرية فيها بيوت حديثة وتصلها كل الخدمات، فما عاد البدو في تلك البقعة من الأرض بدوًا إلا في بعض لهجتهم والقليل من عاداتهم... ثم أن أصعب مغامرة كانت بالنسبة له عندما أخذه بعض رواة التاريخ الشعبي إلى مغارةٍ في أسفل الجبل الذي كانت تربض عليه القرية، فكان الأمر مرعبًا بالنسبة له... كان عليه أن يهبط عموديًا ذلك الجُرف المخيف، كانت قدميه تحاولان التشبث بالمنحدر الصخري وكلتا يديه تحاولان التمسك بالصخور الحادة التي تبرز من المنحدر، وكل ذلك ليدخل المغارة

التي تدور حولها وفيها الكثير من القصص الشعبية، وقبيل المغرب بقليل صعد بنفس الطريقة للقرية، ثم امتنع عن النزول في اليوم التالي واكتفى بما أخذه من صور ومعلومات. بقي بعدها لأسابيع يحلم أحلامًا مزعجة وكوابيس عن سقوطٍ حاد نحو أعماق الوادي.

كان يقول في نفسه هذه الجبال الشاهقة مرعبة. أكثر رعبًا من تلك التجربة المخيفة! أتمنى أن لا أصعد أحدها. ثم نظر للخيم وأخذ يفكر! صحيح أن هذه الخيم لا تشبه خيم البدو التي شاهدها عبر الطريق متناثرة هنا وهناك قبل دخول المخيم السياحي الذي سيقطنون به، أو تلك التي كان يشاهدها على التلفاز وهو صغير حيث كان والده شغوفًا بالمسلسلات البدوية.

كان يفكر ويقول في قرارة نفسه: هل سأنام على الأرض؟ هل ستزحف نحوي عقارب أو أفاعي أو حشرات مخيفة؟ هل سيكون الفراش نظيفًا أو مقرفًا؟

قاطع تفكيره شابٌ من جنسية عربية وهو يركض نحو المجموعة مُرحبًا بهم، ثم أخذ يفتح أبواب الخيم الصندوقية ويسلم مفاتيح الأبواب لكل شخص إلى أن أتى دور ضرغام الذي لحق بالشاب نحو صندوقه ووقفا على الباب وما أن فتح الشاب الباب

حتى لسع هواء ساخن جاف وجه ضرغام، وكأن هذا الهواء الجاف الذي يغلي ينتظر فسحة ليهرب خارجًا!

«حتى الهواء يُريد أن يهرب من هذا المكان» قال في نفسه!

نظر للداخل.. كان يفكر كيف يمكن لمخلوقٍ حي أن يعيش في خيمةٍ كهذه؟ حتى المعتقلات التي قرأ عنها في الروايات فيها منفذ أفضل من هذا الصندوق الخانق.

الغرفة الصندوقية رقم ١٠ تكاد تكون مساحتها ٣×٣ م فيها سريرين حديدين كل منهما على طرف، وعليهما فراش قذر غير مرتب... ثم رمى الشاب المفتاح نحو ضرغام واختفى.

صعد ضرغام نحو الخيمة ودخلها... كانت بالفعل صندوقًا من هيكلٍ حديدي وجدرانه من قماش. كان الجو خانقًا... كأن الأكجسين في أقل مستوياته. فتح الشباك الأول ثم الشباك الثاني لعل هواء الخيمة يتجدد، لكن لا شيء! نعم الحرارة في الخارج لا تطاق والحرارة في الداخل تكاد تكون أكثر ارتفاعًا.

شعر ضرغام بالإختناق وكأنه قطعة لحم داخل فرنٍ يتعرض للشواء.

كان يفكر ويقول: كيف سأعيش هنا؟ كيف يعيش بشر في هذا المكان أصلا؟

رمى الحقيبة على السرير الأيمن... أنه قذر وسيكون المكان الأنسب للحقيبة، نظر للسرير الأيسر، لم يكن نظيفًا هو الآخر، عاود النظر للسرير الأيمن ثم قال: «نعم ستبقى الحقيبة في مكانها. الأيمن للحقيبة والأيسر لجسدي. هنا ستلجأ حقيبتي وهنا سيرتاح جسدي اللاجئ لهذا المكان المقطوع عن العالم».

جلس على طرف السرير وأخرج دفتره وقلمه:

« بعض اللاجئين يتركون حقائبهم عند أول محطة، وأنا لستُ من الناس الذين يتركون حقائبهم للعبث! إن التفاصيل في حياتي مهمة والذكريات في حياتي مهمة سواء تلك الذكريات الجميلة... أو تلك الذكريات الحزينة. لذا لن أترك حقيبتي هكذا.

سأضعها بالقرب مني، بالرغم أنها لا تحمل سوى بعض الملابس، ورواية، وبعض الأوراق البيضاء، والأقلام.

اللاجئون مثلي يولون اهتمامًا كبيرًا لحقائبهم، فهي الوطن خارج المكان الذي يأوينا... فيها رائحة الأم والبيت والحبيبة والزوجة والأولاد والحارة والأصدقاء... وقد لا يكون فيها أي شيء إلا الذكريات... والذكريات دومًا مهمة لأنها هوية صاحبها».

« ما هذا الحر الجنوني؟» قال في نفسه.

هرب ضرغام نحو الخارج لتستقبله حرارة الشمس الحارقة مجددًا.

شعر أنه خرج من فرن إلى فرنٍ آخر. وكأن سوطًا من الحرارة ضرب جسده، أخذ يتلفت ويدور حول نفسه بحثًا عن شيء يقيه أشعة الشمس الساطعة، بالتأكيد لن يرجع للصندوق المسمى خيمة. كان يقول في قرارة نفسه « ما هذا الجنون؟ كيف يعيش الناس هنا؟ كيف سأعيش بعض الأسابيع هنا؟ لا يمكنني العيش في هذه الأجواء الجافة القاسية!».

كان رفاقه في البعثة يتجولون من مكانٍ آخر، منهم من يعرف أين يذهب ومنهم من يتنقل من مكانٍ آخر وكأنه يهرب أيضًا من هذا الحر الشديد، وهو أيضًا أصبح يدور يبحث عن بقعة ظلٍ.. أي ظل. لكن لا شيء.

الشمس عمودية والحركة عبثية.

وضرغام شخصٌ ضعيف

كان رجلاً ضعيف البنية، نحيل، شديد الحساسية وخصوصًا إتجاه بعض المأكولات، ضعيف البصر، ناعم اليدين، ذو صوتٍ رقيق، كثير الصمت، وحزين المظهر.

كان يعاني من التنمر في البيت... في المدرسة... في الجامعة...

في العمل!

وضرغام شخصٌ اعتاد أن يعيش في الظل!

أين الظل؟

الظل مهم، الظل يُخفيك عن عيون البشر.. عن آذانهم... عن أفواههم.. عن أنيابهم.. عن ألسنتهم.. عن مطارقهم ومساميرهم.. عن سهامهم.. عن خيالاتهم وأوهامهم.

إن الظل شيء مهم في حياتنا... والآن هو في مكانٍ لا ظل فيه.

استسلم ووقف عن التحرك... انحنى واتخذ شكلاً بجسده كأنه تمثال المفكر في باريس وقد جلس على حافة مدخل الصندوق الذي يسمونه خيمة وقدميه للخارج.

أخذ الجميع ينظرون لضرغام وهو منحنٍ جامد في مكانه، ينتظرون منه البوح أو الشكوى، فمؤكد أنهم يشتكون في داخلهم لكن ينتظرون شكوى أحد ما بصوتٍ عالٍ ليقولوا << هذا متذمر>>، ثم أن عيون ضرغام فضحته عندما رأى المخيم والخيمة والصحراء... إنه ابن هذا البلد الجاف، ويبدو عليه أنه لا يعرف حياة الصحراء.

كان وجهه يفضح حقيقة أنه شاب ناعم ورقيق وحساس.

أما رفاقه في البعثة فأجانب... لكنهم جربوا حياة الصحراء في

عدة بعثات وفي عدة أماكن من العالم.

لقد انقلب هذا العالم، عربي من أصول بدوية رقيق ومتمدن، وأجانب عاشوا معظم حياتهم في أراضٍ خضراء وأجواء باردة ماطرة لكنهم يتأقلمون بشكل جيد في البيئة الصحراوية. إن أهدافهم العلمية والاستكشافية أولوية عندهم على أنفسهم!

لكن الحياة في هذه الصحراء لا تطاق.

نظر ضرغام إلى هاتفه النقال، كان ينازع رمقه الأخير كالعادة، يموت ولا يموت، لكنه الآن بلا إشارة حياة. لا يمكنه تلقي الاتصالات أو الاتصال بأي مخلوق. لا يمكنه التواصل مع أي إنسانٍ خارج المخيم المحاط بالجبال الشاهقة من كل الاتجاهات.

لعل الأمر هكذا أفضل.

نظر ضرغام للجبال متسائلا « ما هذه الجبال الغريبة؟ أم أنها ليست بجبال؟»

كان يشعر بشيء غريب مريب فيها... وكأن الجبال تنظر له من كل الاتجاهات!

« أهذه جبال؟ أم وجوه لها عيون؟... عمالقة تجمدت من الخوف في الصحراء؟»

آه... هذا الحر وهذه الشمس الساطعة تجعلني أهلوس»

نظر حوله... أين يمكن أن يجلس بعيدًا عن الشمس؟ لكن الشمس في كل الاتجاهات، في كل مكان. الغرفة «ساونا» لا يمكنه البقاء فيها.

لا مقاعد في الظل، أما المقاعد الخشبية في منتصف الساحة الواسعة لا يمكن الجلوس عليها تحت رحمة أشعة الشمس الحارقة.

قرر أن يدخل الخيمة الكبيرة، سار باتجاهها وما أن دخلها حتى صرخ يا ويلاه أنها الأخرى ساونا، فأين المفر؟

خرج متلفتًا باحثًا عن خلاص! ووجد رفاقه تحت الشمس ينظرون له. تحجج بالبحث عن نقطة كهرباء ليشحن هاتفه. كانت نظراتهم توحي بأنهم يتابعونه في كل صغيرة وكبيرة، وهو لا يريد الشكوى.

جاء زميله يستوضح: << ما بك؟ تتلفت حول نفسك؟>>

• << لا شيء فقط أبحث عن نقطة كهرباء لأشحن هاتفي>>.

• << أخبرني الموظف المسؤول أنهم يعتمدون هنا على مولد كهرباء يعمل على الديزل، وهناك نقطة كهرباء في الخيمة الكبيرة وأيضًا في خيمتك لكن قد يكون من الصعب أن تشحن هاتفك النقال بشكل متواصل. ساعات عمل الكهرباء هنا

محدودة>>.

• << مشكلة! لا كهرباء... لا ماء... لا مكان للذهاب للحمام... لا بث خلوي... أين نحن يا رجل؟ الحر يكاد يقتلني... ما هذا المكان؟>>.

شعر الدكتور أن الحوار بالعربي بين الزميلين يتعلق بالمكان فدخل الحوار:

• الدكتور << ماذا هناك يا أصدقاء؟>>

• وعيد << لدينا متذمر هنا>>

• الدكتور << تتذمر! لماذا تتذمر؟>>

وقع ضرغام في الفخ

• ضرغام << هذا الجو لا يناسبني، ظننت أننا سنعيش في فندق ولكن الصناديق التي تسمونها خيم تشتعل وهذه الخيمة الكبيرة تشتعل والشمس هنا تحرقنا ولا ظل يأوينا. ثم أين الحمام؟ <<

• الدكتور << آه... أنت رجل وتتذمر. أنظر للنساء كيف يعشن هنا... أنظر لهن. أنظر لي وأنا رجل أشقر... أنظر لذلك الشاب الإنجليزي الذي يستمتع بالشمس، لقد خلع قميصه ووضع كريم للتسمير على صدره، ويجلس تحت أشعة الشمس. أأنت

رقيق؟ >>

كان ينظر لضرغام بشكل مستهزئ وكذلك وعيد الذي كان ينظر لضرغام باشمئزاز... ثم تركاه وذهبا وهما يضحكان.

يقولون عنه ضعيف ورقيق وهين... وبالتالي سيسهل كسره.

تعابيروجهيهما وجسديهما تُشيرإلى أنهما مفترسين لكنهما ليسا في عجلةٍ من أمرهما للهجوم.

# الفصل الثالث

**ولد الرجال ليكونوا أقوياء.. أقوياء فقط. وولدت النساء ليكنَّ رقيقات وضعيفات فقط. لا يمكنك أن تكون رجل وضعيف فإن كنت كذلك فأنت تحكم على نفسك بالموت في هذه البلاد.. لا بل في معظم بلدان العالم.**

**المرأة إنسانة في الأغلب ضعيفة جسديًا لذلك يسهل افتراسها، وضعيفة عاطفيًا لذلك يسهل سحقها، وحتى تتمكن المرأة من العيش لا بد لها أن تكون قوية وأن لا ترضى أن تكون سهلة الافتراس.**

**يمكن قبول دموع المرأة وضعفها ورقتها لكنها ستخسر الكثير إن أظهرت هذه العواطف أمام رجلٍ حقير، فهو لن يتوانى عن افتراسها والتلذذ بها كفريسة سهلة نالها بذكاء ودهاء، ولتصبح هذه المرأة حق له متى شاء. الحقيقة هي أن المرأة ليست فريسة... وليست سهلة، لكنها كائن رقيق وعواطفها جياشة أكثر من الرجل، وإن أظهرت هذه الخصال فيها أمام رجلٍ لا يرحم، فإنه لن يتوانى**

عن استغلال الفرصة. وأي حالات تكون فيها المرأة مفترسة هي حالات شاذة وقليلة.

والحقيقة هي أن ليس كل الرجال أقوياء... فبعض الرجال ضعفاء البنية . بعضهم يملك روحًا حساسة... إنسانيون أو عاطفيون جدًا ورومانسيون... وهؤلاء غالبًا ما يختفون في الظل، يتكومون حول ذواتهم، لعل وعسى أن لا يصيبهم شيء من هذا العالم! لأن العالم مكان متوحش. فليس كل الرجال سيئين مفترسين. الكثير منا طيبوا المعشر.

الضعيف من الرجال يحاول أن يشد نفسه بنفسه هذا إن امتلك الثقة في نفسه، لكن الكثير منهم يستسلمون.

بعض الرجال الضعفاء يهربون من واقعهم إلى النوادي الرياضية ليبنون أجسادًا رياضية ليظهروا أمام العالم كأقوياء.. بعضهم يهرب لمكان يناسبهم أو يسجنون أنفسهم في البيت.. وأغلبهم بلا رفاق أو أصدقاء.

وبعض الرجال قد يبدون أقوياء في المظهر لكنهم ضعفاء في عواطفهم فيسهل أيضًا كسرهم وينالهم التمزيق أيضًا...

ولا مكان في الغابة لضعيف. المفترسون يأكلون قلوب النساء الضعيفات وحتى الرجال الضعفاء، لكن بعد أن يمتصوا أرواحهم

رويدًا رويدًا... وأي رجلٍ يبحث عن رجلٍ آخر ليسنده فإنه في الأغلب سيجد متنمرًا يتقوى عليه... لكن سيكون حظه رائع إن وجد الصديق الطيب العظيم. رجلٌ قوي يسند رجلا ضعيفًا أو رجل ضعيف يسند رجلا ضعيفًا آخر وكذلك الأمر للنساء وهنا أنبل أنواع الصداقة.

وعندما خلق الله الرجل والمرأة، خلقهما ليكملا بعضهما البعض وليسندا بعضهما البعض ويتقوى أحدهما بالآخر وكل ذلك بالحب أو الصداقة أو الزواج أو جميعها معًا.

لكن الأمور ليست دومًا طيبة... سهلة!

تمامًا كما هو الحال الآن.

هذا الفريق برجاله ونسائه أقرب للمفترسين!

شعر ضرغام بتلك الطاقة السلبية الهائلة تخرج منهم... لذا قرر عدم البوح بالمزيد... لن يخبرهم بأي شيء آخر... لا يريد أن يشعر هؤلاء الغرباء بأنه ضعيف، بالأخص زميله وعيد الذي لم يكن تربطه بضرغام تلك العلاقة القوية. أي تذمر سيجابه منهم جميعًا بالصد! سيقولون له : عد وحدك إنّا هاهنا قاعدون. عد وحدك وستخسر توصية الدكتور في البعثة... ولكن لماذا أتيت؟

لو أخبره زميله أن الأمر كذلك لاعتذر أو إتخذ قرارًا ما، لكنه لم يخبره بالكثير من التفاصيل، قال له خيمة فندقية وخدمة متميزة والطعام مؤمن والمواصلات مؤمنه وسيأخذان أيام الجمع إجازات وقد يعودون خلالها لبيوتهم!

قال ضرغام في نفسه: « لنر ماذا ينتظرنا أيضًا!!!»

« يجب أن أُخفي جوانب ضعفي، لكن هل سأنجح؟ لا ظل أخفي فيه هذا السر العميق».

إنّ رجلا كضرغام ضعيف وحساس وهش، من السهولة بمكان كسره وتحطيمه. عواطفه دومًا تخونه لذلك تظهر على وجهه أعراض الكآبة والغضب والاحتجاج، لكنه في الغالب كائن صامت، لا يهوى المناقشة والتبرير ولا الحجج والإقناع، فقط تسيل دموع قلبه حزنًا، أما دموع عينيه فتحبسها الجبال التي تجثم فوق قلبه. الجبال التي تُشبه كثيرًا هذه الجبال الغريبة. لا تظهر دموع عينيه بسهولة لكن دموع قلبه تكاد تكون متدفقة طوال العام رغم مواسم الجفاف.

الآن هو يبحث عن ظلٍ آخر. ألا يكفي أن الشمس عمودية معظم الوقت فلا ظل يحميه منها! ليجابه بهذه الطاقة السلبية التي تخرج من هؤلاء، ولا ظل يحميه من هذه الأشعة القاتلة للروح.

أين الظل؟

الظل لضرغام مهم جدًا، فطالما أخفى فيه أسراره واختفى أيضًا معها. الظل مكانٌ يشعر فيه بالراحة، فإن سلبوا الظل منه اختفى هو خلف ظل نفسه...

غالبًا ظل نفسه لا يخذله لكن ظل النفس صعبٌ جدًا.

نعم يتحد معنا الظل في وقت الظهيرة، فيختفي تحت الإنسان، لكن في المساء يطلبه الإنسان فيأتيه طويلا بما يكفي ليختفي تحته... هناك يختفي ضرغام مساءً ويختفي معه كل حزنه.

«لقد كُنتُ طوال حياتي مُختفٍ في ظل ذاتي، منسيٌ على كتف ظلي... الآن أنا بلا ظل».

الآن لا ظل لضرغام... ولا أي ظل! ليختفي تحته.

تتحرك أجساد البشر في هذا المخيم جيئًا وذهابًا وضرغام صنمٌ واقف على باب الخيمة الكبيرة لا يستطع أن يدخلها ولا أن يخرج منها.

كان الدكتور يتحرك بلا توقف بين خيمته والساحة ويختفي ثم يظهر ثم يختفي.. لكن عينيه كانتا دومًا تنظران لضرغام باستمرار... بلا توقف... تلاحقه حتى وضرغام ساكن في مكان محايد لا ظل فيه.. لكن الحرارة الشديدة تُذكر هذا المكان

المحايد أن الشمس الآن لا يمكن تحديها.

تبع وعيد الدكتور الذي كان يحمل دفترًا صغيرًا ويتنقل في المخيم، ووعيد هذا كان يتحدث بلا توقف وبيده سيجارة وباليد الأخرى يُشير للجبال.. ويلحقهما عدد من طلاب الدكتور، كانوا يستكشفون المخيم وأطرافه وحدوده، أما باقي الفريق فلم يشاهدهم منذُ أن حطت أرجلهم في هذا المكان.

لعل لهم ظلهم الخاص.

بعد جولات من ذهاب وإياب جلسوا على المقاعد الخشبية تحت أشعة الشمس الحارقة ينظرون لضرغام

- << تعال واجلس معنا>>.
- << لا أنا مرتاحٌ هنا>>.

أخطأ مجددًا

أما الدكتور فأخذ قلمه وفتح دفتره وهو ينظر لضرغام ثم أخذ يكتب، وكان وعيد يتحدث ويدخن ويتحدث ويدخن ويتحدث ويدخن..

أما الطلاب فكانوا منهمكين في حديثٍ آخر.

كان من الخطأ أن ينظر لهم ضرغام... لكن ما أدراه ما تفكير هذه الزمرة من الذئاب؟! كان الدكتور يكتب في دفتره ثم ينظرُ

لضرغام ثم يعاود الكتابة ثم ينظر لضرغام وهكذا...

هل يسجل حركات ضرغام؟ هل يكتب الآن في دفتره، كم شهيقًا وكم زفيرًا أخذ ضرغام في تلك البقعة المحايدة... كم نبضة قلب! كم رمشة عين!

تسمر ضرغام في مكانه بلا أي حركة... كان يقول في ذاته سأخفف من تنفسي لعله سيتوقف عن الكتابة!

نظرا كليهما معًا لضرغام... الدكتور ووعيد... ضحكا ثم عاد الدكتور للكتابة ووعيد للحديث والتدخين.

علم ضرغام أن هذا الدكتور رجلٌ شديد الملاحظة، فلا بد أنه يُسجل الآن في دفتره أن ضرغام لا يتحمل الشمس ولا الحرارة وأنه لم يجلس معهم وأنه شديد الضعف وقليل الحيلة وغير اجتماعي... لعله يسجل الآن أنه فريسة سهلة لا يحتاج لكثير من الوقت والجهد للإفتراس... أنه يريده فريسة منهكة ولا يريد أن يبذل جهدًا في القضاء عليه.

« آه... إنني أُنهك نفسي بهذا التفكير».

يلاحظ الدكتور توتر ضرغام وانزعاجه. لقد فهم أنه منزعج من الحرارة الشديدة وأشعة الشمس الحارقة لكن كيف سيتحمل أسابيع من العمل الشاق تحت أشعة الشمس الحارقة؟ الحيرة

تحيط بالمكان من كل الجهات! وضرغام كان يشاهد الدكتور ينظر له باستمرار... نظراتٌ مريبة.. غريبة.. أحيانًا ببلاهة.. أو النظر بهدوء وصمت.. أو النظر باستغراب!

النظر... ما سر هذه الحاسة؟ يفترض أنها تجعلنا نفهم البشر جيدًا.. نفهم ما يُحيط بنا من أشياء مرئية.. واضحة.. لكننا أحيانًا نَرى ولا نَرى.. نُرى ولا نُرى! لا يهم أن تمتلك عينان وبصر لترى العالم بهما... المهم أن تمتلك البصيرة... تلك القدرة على فهم وتحليل ما يدور حولك ثم تعرف من هذا التحليل ماذا يمكنك أن تفعل.

ما زال الدكتور ينظر ببلاهة لضرغام، قال ضرغام في نفسه:

<< شكله كالأبله! يستحيل أين يكون هذا الأبلة مفترس!

لكن ما أدراك؟ بعض المفترسات تظهر وكأنها وديعة ثم تنقض بلا رحمة على الفريسة وتبتلعها».

ينظر ضرغام للدكتور ويقول في ذاته... النظرُ بالنظر

أن الدكتور يبدو كإنسانٍ فاغرًا فاه ينظرُ لضرغام وكأنه يحترق. ككلب يستجدي بعض الهواء عبر فمه المفتوح.. أنه يشبه شخص ما، أحد ما مألوف ولكن ضرغام عاجز عن تذكر ذلك... يشبه أحد ما يعرفه ضرغام لكن من وأين ومتى... لا يستطيع التذكر.

رجلٌ فارع الطول، نحيف، فاغرًا فاه معظم الوقت! قد تبدو صفات الكثير من البشر لكن ضرغام عاجز عن التفكير فلا بد أنه مخطئ.

أخيرًا تأتي النجدة، ظهرت إحدى المرافقات وشعرها مبلول.. كانت تتحدث الإنجليزية بشكل مضحك وأخبرتهم أنها أخذت حمامًا سريعًا... أين؟ ودلته على مكان قضاء الحاجة.. أنه جانب من المخيم لم يكتشفه ضرغام. فحين كان يبحث عن ظل كان الآخرون يتنقلون فرحين في المخيم. يبدو أنه التعيس الوحيد في هذه الأجواء وفي هذه البقعة.

يفرغ ضرغام ما بجسده من بول طال حبسه بعد أن كاد يتفجر داخليًا.

« لا بأس بالحمام أنه جيد، لعله أفضل شيء هنا، على الأقل هذه الجدران الإسمنتية تقي من حرارة الشمس اللاهبة» لكن الحمامات بعيدة عن صناديق النوم! أو السجن كما يطلق عليه ضرغام في تفكيره والذي تم توزيعهم على عنابره.

لقد اعتاد ضرغام أن يذهب للحمام كثيرًا في الليل فكيف سيقضي حاجته؟

«وامصيبتاه»... قال ضرغام! لقد أخبروه أن المخيم يعتمد على

مولدات الديزل في تأمين الكهرباء ولكي لا يعمل المحرك كثيرًا فإنهم يقطعون الكهرباء بحدود الساعة ١٠ ليلا وهاتف ضرغام سيء لا يمكنه أن يتعاون مع ضرغام في الإنارة... القمر والنجوم تضيء الليل لكنها الصحراء... ويعرف ضرغام أن هذا المكان بعيد عن كل أنواع الحياة التي يعرفها وقريب جدًا من كل أنواع الحيوات الصحراوية.

« يا لها من مصيبة أخرى! حسنًا سأجد لها حلا فيما بعد الآن وقد أفرغتُ ما بجسدي من علل، لا بد أن أُفرغ ما بقلبي من توجس من هذا المكان.. لا بد أن أجد ظلا أجلس تحته، وأكتب»

حاول ضرغام أن يتنقل في المخيم بحثًا عن ظلٍ ما... هاربًا من عيون رئيس الفريق الفضولي اللتان تلاحقان ضرغام، لكن يبدو أن الرئيس كان يعطي الكثير من الملاحظات عن ضرغام في غيابه فأصبح محط اهتمام كل الفريق! مجموعة تتبع الرئيس وتوافقه على كل شيء... أصبح الفريق كله زمرة تتبع الرئيس. ولدوا متنمرين بالفطرة.

إن المتنمر يُعدي من يحمل نفس صفاته، ثم هناك بشر يحبون أن يتبعوا دين أسيادهم وكنوع من التملق تبع هذا الفريق سيدهم المتنمر.

كنت أظن أننا كعرب نحب أن يقودنا شخص واحد، شخص يمتلك موهبة السيطرة والتوجيه وفرض الأمر الواقع، لكن يبدو أن البشر في معظمهم يميلون للخضوع لسيطرة الواحد. يبدو أننا أقرب ما نكون للضباع أو الذئاب... نحب الخضوع لسيطرة متنمر.

جاء الطعام... سندويشات فلافل! هنا انتبه الفريق لضرورة وجود مكانٍ للفريق ليتناول الجميع فيه الطعام. أصبح الكل مثل ضرغام يبحثون عن بقعة ظل يصلح مكانًا لتناول الطعام.

ظهر من العدم رجل، ودل المجموعة إلى زاوية بعيدة في طرف المخيم... زاوية تظنها غير موجودة، لكنها تكشف معظم أجزاء المخيم. على الأقل ضرغام لم يصل لهذه البقعة... كانت شق بين جبلين شاهقين وهناك يجلس القرفصاء مجموعة من أربعة رجال.

أول شيء خطر في بال ضرغام الظل كان سعيدًا بهذا الاكتشاف «أخيرًا ظل».

تجمهر الفريق يحملون كل واحد منهم صندوق الفلين الأبيض خاصته الذي يحتوي على وجبة الفلافل، وعلب المشروب الغازي، والتصقوا بصخرة ضخمة قريبة ليتقوا جميعًا من شر الشمس

في ظلٍ قليل المساحة وفتحوا صناديقهم وبدؤوا يأكلون.

كانت عيون الرجال الأربعة تنظر للمجموعة

قال ضرغام في نفسه << هاقد بدأنا مجددًا... آخرون يرمقوننا بنظراتهم>>

لكن هذه المرة مختلفة... قال ضرغام.

هذه الوجوه تعيسة كما لو كانوا نادمين على الأمس أو أنهم يأسوا في انتظار شيء ما سيأتي.

نظراتهم لم تكن نظرات تنمر أو فضول أو تشمت أو حتى استكشاف... أنها أقرب ما تكون لنظرات الطيبة والحزن... نظرات تنطق وتقول «دعونا وشأننا أيها الغرباء».

شعر ضرغام أن الرجال يركزون النظر إليه وأنهم يرمقونه بنظرات فضولية غريبة أكثر من نظرهم لباقي المجموعة.

كانوا أربعة رجال متشابهون جدًا يجلسون القرفصاء على فرشات اسفنجية رقيقة حول طاولةٍ خشبية ذات أرجلٍ قصيرة جدًا.

كان الأربعة يجلسون نفس الجلسة كأنهم في صلاة. أيديهم تتكئ على ركب أقدامهم التي بدورها تسند جلستهم. كانوا يلبسون أثوابًا طويلة شديدة البياض وعلى رؤوسهم تلتف عمائم بيضاء

تخرج من بين طياتها ومن اسفلها خصلات شعرهم الشديدة السواد والزيتية المظهر والسابلة الطول، يرتمي الحُر منها على وجوههم وخدودهم النحيلة جدًا وعلى أكتافهم.

كانوا شديدي السُمرة، ولعل ثيابهم البيضاء أعطتهم المزيد من لون السُمرة... كانوا مميزي المظهر. ثم أن أنوفهم طويلة دقيقة ومستقيمة، ووجوههم مستطيلة، وعيونهم شديدة البياض والبؤبؤ شديد السواد، لا تعرف هل ترتعب من عيونهم أو تقع أسيرًا للمشاعر التي تنطلق من هذه العيون. الرموش شديدة السواد وكأنها مُكحلة، رقابهم دقيقة طويلة... كأنوا بشر ذوي أجساد مستطيلة نحيلة يعلوها رأس بشري فوق عظام ترقوة بارزة لشدة نحولتهم.

قال في نفسه: «فعلا يستحقون الدراسة حتى من جانب علم السلالات البشرية. أعتقد أنني لم أر بشريًا يحمل هذه الصفات».

كانوا الأربعة يجلسون في شق ضخم بين جبلين أو هو شق في نفس الجبل. المكان الوحيد الذي لا تصله الشمس... مساحته تكاد لا تتجاوز بعض المترات المربعة. بقعةٌ مفروشٌ ببعض السجاد القديم والفرشات الإسفنجية.

لاحظ ضرغام أنه أمعن النظر فيهم أكثر من اللازم... لكن ما بال هذا المكان؟ الكل يرمق الآخر... الكل شديد الملاحظة... ما سر هذا المكان الغريب.

<<تعالوا هنيا... تعالوا هنيا>> أي تعالوا هنا << هنيا براد>> أي أن البقعة ذات درجة حرارةٍ أقل.

نادى أحدهم وتبعه الآخرون في دعوة ضرغام والفريق للجلوس معهم.

نظر الرئيس وفمه المفتوح كالأبلة لهم ثم لضرغام وكأنه يريد من ضرغام الترجمة لأن صديقه وعيد كان يمضغ كمية من الفلافل ويتحدث بلا توقف.

أخبره ضرغام أن الرجال ذوي الأثواب البيضاء يدعونهم للجلوس معهم في الظل. فرح الأرعن.

قام ثلاثة رجال من الأربعة وأفسحوا مجالا للمجموعة للجلوس، وبالرغم من دعوتهم للمشاركة في الغداء لكن تحركوا دون أن يقولوا شيئًا.

بادر وعيد بالحديث، أما ضرغام فكان يحاول الجلوس ويراقب في نفس الوقت الرجال الأربعة.

حينما وقف ثلاثة منهم لاحظ ضرغام أنهم شديدي النحول

وأثوابهم الطويلة البيضاء تعطيهم هذا المظهر الغريب... وقبيل أن يغادر الثلاثة ابتسموا.. وعندها ظهرت اسنانهم القليلة المتبقية شديدة السواد تبرز كأنياب ذات مظهرٍ مخيف ومرعب...

« مؤكد أنهم ليسوا ملائكة» قال ضرغام في نفسه.

الملائكة كما صورهم الفن الإغريقي واليوناني والروماني أجمل بكثير مما يظهر عليه هؤلاء الرجال.

كانوا يتحدثون المحكية العربية، لكن معظم كلامهم لم يكن مفهومًا، كان صعبًا وسريعًا لدرجة أن ضرغام وهو مهتم بالتراث حاول أن يسترق السمع، لكنه كان بحاجة إلى برهة ليفهم ما يقولونه. مع الوقت استطاع ضرغام أن يفهم سرعتهم في الكلام وسرعتهم في الظهور من الفراغ وسرعتهم في الإختفاء. حاول الدكتور أن يسأل وعيد عن كلامهم لكن وعيد ضحك مستهزئًا بهم أنه لم يفهمهم ولا حاجة لفهمهم، نظر إليه ضرغام نظرة استنكار، وقال له: << لماذا هذا التنمر؟>> بينما بادله وعيد بالضحك الهستيري.

ضرغام: <<جزء كبير مما يقولونه صعب الفهم لكنه ليس صعب الإدراك، أنت بحاجة للتأقلم مع هذه البيئة الصعبة لتعي النية

لديهم، وطيبة قلبهم، ولتفهم فكرهم، وطريقة رؤيتهم للأمور، تقول لا بد أنني احتاج إلى معجم لكن سرعان ما تعرف أن المعجم هو قلبك، فكلما اقتربت من هذه البيئة الصعبة الخشنة سرعان ما تفهم وتعي كلامهم وما يدور في خلدهم. هم بسطاء ولا يريدون منك التكلف وأغلبهم غير مثقف ولا متعلم، لكنهم أبناء الحياة. نعم لهجتهم غريبة وصعبة جدًا لكنهم لا يتسمون بالإنغلاق في فهم الآخر، بعد سنوات طويلة من اندماجهم مع زوار المكان من عربٍ وأجانب جعلتهم منفتحين رغمًا عنهم>>.

كان وعيد منهمكًا بنهش ساندويش الفلافل فلم يأخذ بأي اعتبار كلام ضرغام .

بعد أن افسح ثلاثة منهم المجال للمجموعة نادى الرابع على الشاب الذي يعمل في المخيم: <<إعمل شاي>>.

نظر الأبله لوعيد مستفسرًا عما يتحدث الغرباء! فقال له المتنمر إنهم يعدون الشاي، ففرح جدًا ثم أخذ يقضم سندويش الفلافل خاصته، وهو يصدر صوتًا يعبر فيه عن تلذذه بالطعام << مممممم>>.

اختفى الثلاثة بلمح البصر، أما الرابع فبقي ينظر للمجموعة بشيء من الريبة والشك! تفحصهم جيدًا... شعر ضرغام أن

عيني الرجل تدخلان جسده وأن يديه تعبثان في روحه. كان ملمس نظراته في داخل ضرغام تشبه كثيرًا يدان باردتان تلمسان غلاف قلبه وتتأكدان من نبضه وحركته ثم تحولتا لتصبحان يدين دافئتان ناعمتان ثم بسرعة شديدة شعر أن يداه خرجتا من داخله ثم قام الرجل من مكانه ووضع يديه في ثوبه الأبيض ثم رحل بلمح البصر.

قال ضرغام: << هذا كان مرعبًا!>>

وعيد: <<هذا أفضل شيء هنا... نعم طعام مقزز لكنه الأفضل هنا>>

<<أنا لا أتحدث عن الطعام. أنا أتحدث عن الرجل كيف كان ينظر إلي! ثم كيف اختفى فجأة في زوبعة غبار>>

<<أي رجل؟ وأي زوبعة؟>>

<<الرجل الذي كان يجلس هنا...>>

<<عن أي رجل تتحدث؟ الرجال رحلوا>>

<<نعم رحلوا لكن ألم يكونوا أربعة... رحل ثلاثة وبقي واحد... الرجل كان يرمقني بنظراتٍ غريبة... ثم...>>

<<لقد رحلوا معًا الرجل الأخير طلب لنا الشاي ورحلوا معًا. يبدو أن الشمس والحرارة قد أثرت عليك>> ثم أطلق قهقهة

غريبة لفتت نظر المجموعة... وأخبرهم بتوهم وتوجس ضرغام... هنا أصبحت نظرات الدكتور لضرغام أكثر حدية.

لا بد أنهم يظنون أن ضرغام مصاب بوهم ما...

حتى ضرغام شعر بهذه الأفكار تتولد في عقولهم، أنه يتوهم أن الناس كلها تنظر إليه... تُمعن فيه... تتنمر عليه... وأن الناس مفترسون وأنه الفريسة!

مع ذلك لم يعرْ ضرغام هذا الأمر الشيء الكثير. أنه متأكد مما رأه. نعم يظهر الموظفون هنا بشكل سريع ويختفون بشكل سريع لكن دون زوبعة غبار... أما الرجل الذي كان هنا فأمره مختلف! لقد اختفى في زوبعة غبار ثم الزوبعة نفسها اختفت بلا أي وجود. أنهم يظهرون سريعًا ويختفون بشكل أسرع!

تناول ضرغام قلمه ودفتره وأخذ يدون هذه الكلمات:

«الظهور السريع مرعب، والاختفاء الأسرع أشد رعبًا، ليس الرعب في الموقف بل في أنك تعتاد عليه! ويبدو أن سكان المنطقة اعتادوا هذا الظهور والاختفاء السريعان... إنما ما يميز الاختفاء هنا هو أنه يرافقه زوبعة من غبار! إعصار بطيء صغير جدًا من التراب، يدخلون فيه ثم ...بم... يختفون بلمح البصر! كم هو مرعب أن تفكر بهذ الأمر مليًا. أن تبتلعك زوبعة

من غبار وتختفي».

حاول ضرغام أن يقنع نفسه من أول اختفاء أنهم سكان المناطق الصحراوية، فلا بد أنهم اعتادوا الغبار والدخول فيه والتعايش معه... لا بد أنهم يتخذونه رفيقًا بدل الظل، يرقصون ويتبادلون الحب معه.

إنهم سكان هذا المكان القفر وهذه الأرض القاسية وقد اعتادوا هذه الأشياء.

«أحيانًا كثيرة يراودني شعور لا بل رغبة لا بل احتياج قوي في الاختفاء... أن لا أكون. لكن أن تبتلعني زوبعة غبار! لا.

أنه أمر مرعب أن تختفي في كارثة ولو بسيطة جدًا. أن تختفي وكأنك لم تكن. أن تختفي في اللاشيء ولا تشعر بشيء... لا ألم ولا حزن. كم هو مغري هذا الشعور لكنه مرعب! أنها قضية فلسفية، فكيف يمكنك الشعور باللاشعور؟ أو اللاشعور بالشعور؟ وهو الشعور بأنه لا ينتابك شعور بأي شيء... حواسك كلها معطلة.

لكن أليس هذا هو الموت؟

لا أعلم هل سكان هذا المكان يختفون بألم أم بدونه؟ لكنني أرغب بالاختفاء مثلهم بسبب الألم، لذلك لا أرغب أن أختفي بألم

جديد يضاف للألم الموجود.

لا بد أن السكان هنا اعتادوا أشياء وتخلصوا من أشياء كثيرة. لكن كيف يمكننا أن نتخلص من أشياء اعتدناها بسهولة؟ بشر... مكان... مواقف... أحداث... ذكريات...أحاسيس ومشاعر... ملمس ورغبة... عيون ونظرات... رائحة وطعم... ابتسامة ودمعة... كلمة ومشهد. أشياء اعتدنا عليها وتصبح جزء منا لدرجة أننا نختلط بها وتختلط بنا، نتفاعل معًا فنصبح مركبًا لا مخلوطًا، نصبح واحدًا لا مجموعة. لذا أي عملية انفصال هي تفاعل من نوعٍ آخر لكنها هذه المرة انفصال شديد التأثير، شديد الألم. والألم الذي ينتج عنه يفوق الوصف. أنه انفصال يحطم الروح ويقتل الكثير من الأجزاء.

الانفصال جريمة منظمة لا بد أن يحاكم عليها كل من سببها من بشرٍ ومواقف لأنها جريمة ضد الإنسانية».

لكن تساؤل ضرغام « أما أنا. فكيف سأعيش في هذا المكان؟ الشيء الجيد أن هناك يوم عطلة في الأسبوع ويمكن للمجموعة العودة كلٌ إلى بيته في ذلك اليوم. سأريح نفسي يوم في الأسبوع من هذه الأجواء.

إنها الصحراء!

ريحٌ مخادعة مباغته تظهر حينًا وتختفي حينًا... مثلها مثل السراب.

لكن لماذا يظهر الناس هنا فجأة ويختفون فجأة؟ ما سر ظهورهم السريع واختفائهم السريع؟

الظهور السريع مرعب، و الإختفاء الأسرع أشدُ رعبًا... ليس الرعب في الحدث ذاته فلا بد من تفسيرما، بل الرعب هو في أنك تعتاد عليه! تعتاد على ظهور الناس في حياتك بشكل مفاجئ ثم اختفائهم بشكل سريع! أين يذهبون حين نحتاجهم؟ لماذا ينفصلون عنا هكذا؟

الاختفاء هو الانفصال عن شيء ما. كيف يمكننا أن نتخلص من شيء ما بسهولة؟ سؤال يراودني مرات ومرات».

كانت هذه الأفكار تدور في رأس ضرغام وهو يأكل حصته من ساندويشات الفلافل وما زال ينظر للمكان حيث اشتعلت الزوبعة في الأرض وابتلعت الرجل الرابع.

أخذ مرةً أخرى قلمه ودفتره وكتب:

«الاختفاء هنا يرافقه زوبعة من غبار تظهر هي الأخرى فجأة ثم تختفي بلمح البصر ومن يدخلها لا يظهر مجددًا... أنا رأيتها أما هم فلا!... إعصار بطيء صغير جدًا من الغبار... دخل فيه

الرجل ثم اختفى واختفت معه الزوبعة! كأنه فتح بابًا فيها ثم أغلقه خلفه ثم انهار التراب على الأرض.

كم هو مرعب أن تفكر بهذا الأمر مليًا. أن تبتلعك زوبعة من غبار وتختفي...»

كان يفكر مليًا وقد انفصل عن واقعه... الدكتور ينصت مجددًا لوعيد الذي أنهى طعامه وعاد للحديث والتدخين وشرب الشاي... وباقي المجموعة الذين كانوا يتحدثون معًا دون توقف. أما ضرغام فما زال ينظر لتلك البقعة...حيث اختفى الرجل.

كان منفصلا عن مجموعته فكريًا... متواريًا خلف الصمت... مطبقًا فاه الذي لا يفتحه إلا عندما يأكل. لقد اختفى الرجال، وهو يقول في نفسه، ليتني اختفي مثلهم.

أحيانًا كثيرة يراود ضرغام شعور بل رغبة في الاختفاء.. بأن لا يكون.

بم... لا يوجد ضرغام... لا رقم وطني... لا شهادة ميلاد... لا وجود... لا شيء.

«آه ما أجملها من حرية» كان يقول في ذاته.

«أنه شعور النشوة أن لا يكون لوجودك وجود! أن تنقص

البشرية فردًا واحدًا... أن تنقص الإنسانية رقمًا واحدًا! هل سيشعر الغرباء به؟ لا... لن تشعر البشرية بهذا الفقد، أما العائلة فستخزن قليلا، أو... ستمثل حزنها أمام جمعٍ ما، جمعٍ اجتمع على عجلٍ ليرمي الجثة في حفر ويؤدي الواجب ثم، انتهى كل شيء! لن يبقى لوجودك إلا متران في متر أو أقل حسب حجم جسدك، وشاهدٌ حجري يحمل نقش اسمك. شاهدٌ ما كُتِب عليه اسم ما وتواريخ مبهمة ورمز ديني، شاهدٌ ستفعل عوامل الطقس فيه عواملها كما فعلت عوامل الحياة عواملها في روحك. ستمحي حروفك حرفًا حرفًا وكأنها تتلذذ بهذا المحو، ثم تنبت الحشائش بكثرة في موسم الربيع، وتجف في موسم الحر، وتبني الحشرات بيوتها، وستكون محظوظًا إن تجاهلت حفرتك قواضٌ ما أو كلاب وقططٌ مشردة، وهكذا تتعاون الطبيعة مع مكوناتها في محو ذكرك وذكراك، فيفقد القبر معالمه ويصبح أثرًا بعد عين... لا أحد يهتم به. لا أحد يُصلي بقربه، لا أحد يُصلي لمن سكنه زمنًا طويلا. الظروف كلها تحاول مسح وجودك، لكن الأجمل أن لا يكون لوجودك وجود، لا شيء... لا رقم وطني... لا صور الطفولة... لا كراسات المدرسة ولا كتب الجامعة... لا بقايا رسائل حب ولا حتى منشفة تمسح فيها عرقك! ستختفي

عن الوجود».

لاحظ هبوب زوبعة صغيرة سرعان ما اختفت دون أن يظهر منها شيء أو يختفي فيها أحد.

فكر في سر الاختفاء...

«أن تختفي في زوبعة غبار! أن تبتلعك زوبعة غبار! لا... أنه أمرٌ مرعب أن تختفي في كارثة ولو بسيطة جدًا ثم يُسجل اسمك في قائمة المفقودين. سيبحثون عنك بعض الأيام وبعدها سيصيبهم اليأس... ثم ينتهي الأمر بك اسمًا على روقة فيها قائمة طويلة من الاسماء المجهولة المفقودة، ثم تُخرم هذه الورقة وتوضع في ملف والملف على رف والرف المجهول يختفي وسط مئات الرفوف، وهكذا تُنسى كل القصص والروايات الحقيقية لبشر حقيقيين وتبقى الروايات التافهة تجلس على عرش رفٍ ينال كل الاهتمام... رف يحمل اسم -القصص الأكثر مبيعًا-

هل أنا بطلٌ في رواية ستكون الأكثر مبيعًا أم بطلٌ في رواية لم يُحسن الكاتب كتابة تفاصيلها.

الاسم في الرواية مهم... لكن الأهم أن تكتب أنت روايتك، لا أن يكتبها الآخرون عنك.

أتذكر أسمك على تلك الورقة! ستصبح الورقة صفراء والكلمات

لا يمكن قرائتها بوضوح... ثم تصبح الورقة نفسها غيرمفيدة... ثم مفقودة... وكذلك كل الأوراق.

ما هذا الرعب!

أُفضل أن لا أكون موجودًا منذ البدء...

إن الرعب ليس في الفقد بل في الاختفاء بشكلٍ مُثير للغبار. أن تختفي في زوبعة من الغبار شيء مرعب.

هل اختفى الرجل بإرادته؟ فعلا لا أعلم! هل اختفى بألمٍ أو مجرد أغلق عينيه واختفى.

الكل يرغب في الاختفاء بسبب الألم ولكن لا أحد يريد الاختفاء بألم».

لم يقتنع ضرغام بأن الزوبعة التي التهمت الرجل تشبه كثيرًا زوابع الغبار الطبيعية في الصحراء!

من ممكن أن الرجل لم يختفِ في الزوبعة المُريبة، بل أن مشيته السريعة كانت أسرع من زوبعة غبار مرت من أمامهم.

سكان الصحراء اعتادوا الغبار والدخول فيه والتعايش معه لا بل والرقص معه لا بل الحديث معه أيضًا... أنهم سكان هذا المكان المُقفر. هنا لا يوجد إلا البدو وزوار يأتون للمخيم وموظفين يعملون فيه، ولا بد أن من مروا على هذه الأرض القاسية قد

اعتادوا هذه الأشياء.

كانت المجموعة تشرب الشاي ووعيد مستمر في أحاديثه التي لا تنتهي والتدخين بلا توقف والدكتور يُصدر تلك التمتمة المقرفة كلما شرب شيئًا من الشاي «مممممممم» يبدو أنه يصدرها كلما أكل أو شرب شيئًا! كان ضرغام يكتشف شيئًا جديدًا في هذا الدكتور. أنه زرافة مرقطة، جلده الظاهر أبيض يمتلئ ببقع محروقة من أشعة الشمس، وبعض بقع غريبة كأنها البهاق على يديه روقبته، يتحدث بلكنة إنجليزية كسولة، ويبدو كالأبلة، آهٍ أنه يُشبه كثيرًا «مستر بين» تلك الشخصية الإنجليزية الكوميدية التي تمثل دور الأبلة! هكذا عرف ضرغام أين رأى هذا الرجل... لم ير «مستر بين» شخصيًا، إلا عبر التلفاز ولكن هذا الدكتور يُشبهه كثيرًا بحركاته ونوعًا ما بوجهه. ثم أن هذا الأبلة يُطلق ملاحظاته المستفزة السخيفة وأسئلته الشخصية جدًا وبرودة مشاعره وإعتراضاته وبلادته وأحاديثه السمجة وغباءه وفمه المفتوح دائمًا.

نظر الدكتور لضرغام فاتحًا فاه... <<ألا تشاركنا الحديث؟ أنت صامت أو تكتب طوال الوقت!>>

ضرغام <<أنا أفكر! مجرد تفكير>>

الدكتور <<شاركنا أفكارك، دعنا نرى ما تكتب... أم أنها سرية؟ أم أنك ما زلت متأثرًا من أشعة الشمس؟ أم أن الرجل المرعب الذي كان هنا واختفى في الغبار كما تقول افزعك؟ أأنت مرتعب؟>>

ضرغام <<أنا...>> وبلع ريقه

ضحك الجميع أما وعيد فوضع يده على كتف ضرغام وقال: <<لا تخف يا صديقي أنا معك>> لتزداد الضحكات بعدها.

«أنا معك!!! الكذبة التي يريدوننا أن نصدقها. معظم الأشخاص الذين ننبهر بهم في بداية الطريق نكتشف بعد قليلٍ أو في منتصفها أو قبل نهايتها ببرهة أنهم لا يصلحون للطريق. هل نكمل الطريق لوحدنا أم نعود بحثًا عن آخرين؟ يقول حكيم ما أنه من الخطأ العودة للماضي بحثًا عن شيء ما حتى لو بشر. الأفضل أن نكمل المسير وحيدين بدونهم، نعم من الأفضل أن نترك الحمولة الزائدة على قارعة الطريق ونكمل المسير. لعل الله يرسل لنا من يَصلح للسير معنا لما تبقى من الطريق».

بعد الغداء ذهب كل واحدٍ إلى حال سبيله أما هو فابتعد عنهم متران أو ثلاثة وجلس وحيدًا... يتأمل الصحراء التي أمامه... صحراء كالحة لا لون لها سوى الأصفر!

وعلى الرغم من ألوان الثياب للزوار واللوان الخيام وأقنعة الوجوه لكن كانت الأشياء والمكان تبدو معدومة اللون إلى أن حل الليل.

صحراء تغرق في الليل وتنادي النجدة... وهو والنار وقدح كبير من الشاي يستمتعون بالمشهد... إلى أن نامت الصحراء والناس وبدأ نباح الكلاب وبكاء القلب.

# الفصل الرابع

كان الفطور الصباحي للمجموعة لبنة، بيض مسلوق، جبنة مثلثات، حلاوة، زيتون، زيت، زعتر، خبز رقيق ناشف وغير طازج، بالإضافة للشاي... فطور عربي يومي متكرر لن يتغير، أما الغذاء فلم يكن المخيم ملزمًا به، لذا أصبح الدكتور مُلزمًا بهذا الأمر... وأصبح يتكرر يوميًا. وجبة فلافل فيها الكثير من المُخلل والقليل جدًا من السلطة! لكن الطعم كان غريبًا! يُثير في ضرغام الريبة من هذه السندويشات، لكن الدكتور يأكله بنهم و طالما يُصدر ذلك الصوت المقزز «مممممممم» اذا لا مجال للإعتراض. كان مع الوجبة الكثيرُ من البطاطا المقلية والكثير من المخللات فكان ضرغام يأكل البطاطا وفي الآخير شيئًا من الفلافل حتى يتضايق من الطعم فيكف عن الأكل. كانت هاتان الوجبتان متكررتين يوميًا ولا مجال لتغيرهما، أما العشاء فكان المخيم ملزمًا به وكانت تعده سيدة من القرية القريبة ويحضرونه ساخنًا ولذيذًا ونظيفًا ويتغير يوميًا.

عادة ما كان يجتمع كل من في المخيم على طاولة واحدة إلا اذا كان العدد كبيرًا، كانت الأحاديث نفسها تتكرر كل ليلة مع أُناس مختلفين. هم لا يشعرون بتكرار الأمر! الدكتور يُحب الكلام الكثير عن مشروعه، وقصص اكتشفها هنا وفي أماكن عمله الأخرى، أما وعيد فيعشق أن يظهر قدرته الكبيرة على التحدث بالانجليزية ومعلوماته الكثيرة، ثم يسأل نفس الأسئلة على كل من يجلس على نفس الطاولة عن انطباعاتهم حول المكان، أما من تبقى من طلاب الدكتور فيهتمون أيضًا بالتعرف على أُناس جدد، لكنهم أقل كلامًا من الدكتور ووعيد، أما ضرغام فكان يهتم بإكمال صحنه بسرعة وفتح دفتره والكتابة، وغالبًا كان يتعرض لإنتقادات بسبب ذلك أمام الزوار اليوميين للمخيم.

بعض الزوار كانوا بطبيعتهم متنمرين فكان الاشتراك في أي تنمر يثير شهوتهم بل ويشاركون فيها بكل ترحاب، بعضهم الآخر كانوا حذرين جدًا بهذا الخصوص... لكن لا أحد اعترض!

لكن لماذا يعترض الغرباء والشخص الذي يتعرض للتنمر صامت لا يُجيد الدفاع عن نفسه؟ لا يُجيد أغلب الناس دور محامي الدفاع! قلة قليلة تتصدى للمتنمر. الكثير من الناس تلتزم السكوت خوفًا من المتنمر أو خوفًا من أن تتعرض هي للتنمر،

فالمتنمر في الأغلب شخص يهاجم فريسة واحدة ضعيفة لكن لن يمانع في أن يهاجم فريسة أخرى. المتنمر لا يخاف الضعفاء، لكنه حذر من أن يظهر تنمره أمام الأقوياء، لذلك المتنمر يجيد قراءة الناس وفهمهم قبل أن يظهر هذه الموهبة التي يتمتع بها. التنمر جريمة قتل... قتل روح بشرية دون أن يموت المُتعرّض للتنمر في أغلب الأحيان... التنمر جريمة يجب أن يعاقب عليها من يمارسها أشد عقاب.

لقد أثار هذا الدكتور إعجاب البعض، كما أثار إزعاج بعض الذين يحيطون بهم خصوصًا من الذين يعملون في المخيم أو من تطول إقامتهم فيه. إلا وعيد ذلك الرفيق العربي المتلون في مواقفه كالأفعى! كان يتفق دومًا مع الدكتور، وكلاهما لا يتوقفان عن أحاديث وفتح مواضيع والانتقال من حديثٍ لآخر ومن موضوعٍ لآخر... حديث لا يتوقف. متنمران معتوهان ويملكان رصيدًا كبيرًا من الحقارة لا يمكن أن ينضب.

لماذا هذا التنمر؟ يقول د. أحمد خالد توفيق: «كل محدودي الذكاء أو غير المهرة يشعرون بفوقية شديدة وتعالٍ على الآخرين. الأشخاص الأذكياء يشعرون دومًا بعدم الرضا عن النفس وبأنهم ليسوا بهذه البراعة، ولربما حسبوا أن ما

يقومون به ببساطة هو شيء سهل يقوم به أي واحد آخر. تذكر الفيلسوف اليوناني الذي قال: «إني أعرف أني لا أعرف». يقول كونفوشيوس: «المعرفة الحقيقية هي أن تدرك مدى جهلك». ويقول برتراند راسل: «مصيبة عصرنا هو أن من لا يفهمون يشعرون بالتفوق، بينما الأذكياء فعلاً تملؤهم الشكوك». هكذا العالِم .. كلما ازداد علمًا وذكاءً ازداد تواضعًا وشكًا في علمه».

«إذا ماذا يمكن أن أفعل» قال ضرغام في نفسه!

كان ابتعاد ضرغام عنهم صعبٌ جدًا، لا مكان هنا يصلح للجلوس إلا الشق الكبير والذي يسميه أهل المكان بالخزان، وهو المكان الوحيد الذي يجتمع فيه كل من في المخيم من الصباح حتى غروب الشمس، لكنه في أغلب الليالي لا يصلح للجلوس، فالصحراء ليلا تصبح شديدة البرودة وكثيرة الهمس، يسكنها شيء ما لا يهدئ ليلا.

كان شعور ضرغام بالوحدة يزداد وكان الالتصاق بهم مقرفًا. وزاد الطين بلة تلك الحشرة أو الطائر الذي يصدر ذلك الصوت اللعين المزعج المرتفع كصوت صرير أقدام الصرصار الأسود ليلاً لكن هذا الشيء المزعج كان يصدره نهارًا دون توقف وبصوتٍ أقوى... وكأنه وجد ليزيد الطين بلة.

مع الأيام أصبحت وجبات الفلافل مالحة بشكل ملحوظ لقد زادت كمية المخلل لدرجة أصبحت الوجبة مخلل بالفلافل، وضرغام كان مُصابًا بالضغط وكان يتناول دواء للضغط... قليلون من يعلمون بأمراضه المستعصية! كيف يُصاب شاب بهذا المرض اللعين؟

لا يفهم الناس هنا أن الرجال يُصابون أيضًا وهم بسن صغيرة بأمراضٍ مزمنة... إن اكتشفوا أنك مصابٌ بالسكري مثلاً سيقولون - الم تعد رجلا؟ - فالسكري في مجتمعنا مرتبط بفحولة الرجل... وكل مصاب بالسكري في هذا المجتمع ما عاد رجلاً! أما المُصاب بالضغط فهو رجلٌ ضعيف. إذا أُصبت بالشقيقة فأنت رجل ضعيف. اذا أُصبت بداء النقرس فأنت رجل غني وضعيف... وهكذا

يبدو أن الأمراض مخصصة للنساء فقط في عقلية هذا المجتمع! الرجال لا يشيخون إلا قبل موتهم بخمس دقائق! أما المرأة في عقلية هذا المجتمع فهي تشيخ بسرعة... تهرم بسرعة... تفقد جمالها بسرعة.

طعام العشاء أيضًا أصبح مالحًا!!!

ذهب ضرغام للشاب المصري المسؤول عن المخيم:

<<هل يمكنك أخبار السيدة التي تصنع الطعام أنه لذيذٌ جدًا لكن حبذا لو تُقلل من كمية الملح>>

<<تأمر يا باشا. أحلامك أوامر>>.

في تلك الليلة كان الطعام بالفعل أقل ملوحة، فأكل ضرغام بنهم، وبينما هو يأكل ومجموعة تثرثر مع زائرٍ، جاء الشاب المصري لضرغام:

<<كيف الملح يا باشا؟ تمام؟>>

احمر وجه ضرغام فقد صمت الجميع منتظرين من ضرغام تفسيرًا لما قاله الشاب المصري:

<<تمام صديقي. الطعام لذيذ>>

سأله وعيد:

<<فعلا قل الملح في الطعام! أصبح الطعام حلوًا... ما القصة؟>>

قال الشاب المصري:

<<السيد ضرغام طلب منا تقليل الملح في الطعام>>

وعيد: <<لكن الطعام أصبح حلوًا! ما القصة يا ضرغام؟>>

ضرغام: <<الطعام شديد الملوحة، ويمكن تقليل الملح بالطعام ومن يرغب في إضافة الملح يمكنه ذلك على صحنه>>

الدكتور: <<لدينا تذمر جديد هنا من السيد متذمر>>

ضرغام: <<لستُ متذمرًا. أنا مجرد شخص مثلي مثلكم آكل من هذا الطعام. والطعام مالح جدًا. هذا كل ما في الأمر>>

وعيد: <<هل كان الطعام مالحًا أيها الأصدقاء؟>> موجهًا كلامه للحضور.

لم يبدِ أي أحد تذمرًا من الطعام أمس وما قبله...

وعيد: <<فعلا إنك متذمر ولا شيء يعجبك>>

ضرغام: <<انتبه لكلامك معي وتحدث بأدب. أنا رجل معتاد على الطعام الحلو ولذا طلبت بتخفيف الملح هذا كلُ شي. يمكنك أن تخبر الموظفين هنا أنكم تريدون الملح كما كان. لا يهم>>.

الدكتور: <<أأنت مُصابٌ بارتفاع الضغط؟ ما زلت شابًا لتصاب بالضغط! لكن رغم ذلك تناول دواءك ودعنا نأكل بسلام>>

ضرغام: <<لستُ مصاب بالضغط. من أين تأتي بهذا الكلام؟>>

الدكتور: << ملامحك تعطينا أنك أكبر سنًا مما أنت عليه>>

ضرغام: <<وجهي أصبح مشكلة لديك؟ هل لديك مشاكل أخرى معي؟ ألسنا هنا للعمل؟ اذا أرجوك لا تعلق على ملامحي ولا على شيء آخر>>

الدكتور: <<كنت أريد أن أعطيك نصائحي، أنظر لي أنا في

الستين وأبدو كشابٍ في الثلاثين>>

ضرغام: <<لا أُريد نصيحتك فقط لنأكل دون أن توجه كلامك لي، لا وجهي ولا شكلي ولا صحتي ولا طبيعة حياتي مفتوحة للنقاش، أنت هنا لتقييم عملي فقط، وبالنسبة للطعام سأعود لبيتي واعتاد على الطعام المالح>>.

وعيد: <<عد وحدك. أنا والدكتور وباقي المجموعة سنبقى هنا إلى انتهاء عملنا>>.

كان وقع هذه الجملة مصيبة على ضرغام. كان يأكل ببطء وفي عقله تدور تساؤلات <<وامصيبتاه. لم أُحضر ملابس كافية، ولا أغراض كافية، لا صابون ولا أدوات تنظيف، شفرة حلاقة واحدة، معجون أسنان على وشك النفاذ>>.

لم يحتاط ضرغام على هذه الأمور كلها لأن وعيد أخبره أنهم سينالون عطلة كل أسبوع وأنه يمكنهم العودة إلى بيوتهم في نهاية كل أسبوع ثم العودة للمشروع في بداية الأسبوع اللاحق.

«المشكلة أن السوق بعيد والسيارة لا تأتي إلا مرة واحدة في اليوم!»

كان الدكتور قد تعاقد مع أحد السكان المحليين في القرية البعيدة ليأتي بشاحنته الصغيرة يوميًا للمخيم لقضاء حاجات

الفريق سواء بالمشتريات من القرية البعيدة أو تنقلاتهم التي خارج المخيم.

كان يمكن للشاحنة الصغيرة إيصال ضرغام للقرية وإعادته للمخيم لشراء احتياجاته، أو حتى الذهاب من القرية لأقرب مدينة ثم منها أن يستقل الحافلات في رحلة طويلة مرهقة إلى بيته تأخذ منه النهار كله فلا يصل بيته إلا للنوم ثم يعود أدراجه منذ الصباح الباكر جدًا للمخيم بنفس الطريقة ليصله مساءً، لكن ضرغام أيضًا لم يحتاط لمبلغ كبير لفعل هذا الأمر أو لشراء احتياجات ظن أنه يفترض بها الوجود في مخيم سياحي كالصابون والشامبو وأدوات التنظيف وغيرها. ضرغام كان عزيز النفس لا يرغب في الاستدانة من رفيقه العربي ولا طلب مبلغ من المال على سبيل السلفة من الدكتور فقرر أن يشتري بما معه من أموال بعض الأغراض الشخصية الأخرى.

أحد أسباب اشتراك ضرغام وبقاءه في الفريق بعد هذا الكم من التنمر بالاضافة للحصول على المنحة الدراسية هو الحصول على المال! بعض الأموال الإضافية قد تساعد في هذا الوقت العصيب.

وعيد <<يمكنك شراء ما تحتاجه من القرية، أما أنا فلا أرغب

بالتواصل مع أحد>>

كان لهذا الرفيق العربي مزاج «غريب»! لا يرغب في التواصل مع أحد من خارج الفريق ولكنه كان مزعجًا جدًا في العمل. لا يأخذ الأمور بجدية ولا بمهنية. كان عربيًا لكنه لا ينفك ينتقد العرب أمام الأجانب، لكنه عندما يجلس مع السكان المحليين يتودد لهم بلهجة بدوية وإن كانت غير قريبة من لهجتهم ثم يسألهم أسئلة تنم عن تنمره. كان يقول عنهم أمام الدكتور أوباش غير متحضرين، لكنه معهم شخص مختلف تمامًا. كان يعتبر معظم زملاءه في العمل مزعجين ولذا لا يتواصل معهم كثيرًا لكنه كان يحب طرح أسئلة كثيرة عليهم ويندمج مع الكثير منهم في العمل. كان لا بد لضرغام البقاء والتعايش! إن عاد سيخسر كل شيء، وهو أصلا لا يحضى بعلاقة جيدة مع مديره. يُريد أن يبتعد عن مكان عمله ولا يريد التواجد قربه في تلك الفترة. نعم قرر ضرغام البقاء والعيش مهما كلف الأمر فهو لا يملك شيئًا ليخسره لكن قد يخسر التوصية والمنحة إن قرر العودة.

الأبلة يجعل الأمر أصعب وأكثر جنونًا، فما زال يتابع ضرغام بعيونه ويلاحقه بكلامه الجارح وتنمره اللعين وملاحظاته القاسية! لكن لماذا يتعامل مع ضرغام هكذا؟ لماذا هو متنمر فقط

مع ضرغام؟ بينما وعيد لا شيء، بل يشاركه هذا التنمر بوقاحة شديدة، أما طلابه فيقفون غالبًا في الحياد! لعلهم اكتفوا بتنمر أستاذهم عليهم ووجدوا فسحة بالهرب من تنمره عبر تنمر الأخير على الآخرين وهذه المرة كان ضرغام.

المتنمر عادةً شخص شديد الملاحظة، تبقى عيونه شاخصة، تتابع من هم حوله، ثم بمجرد اكتشاف الأضعف بينهم، يختاره كفريسة، يركز المتنمر الذي يصبح المفترس عندها كل اهتمامه بهذه الطريدة، ثم ينقض عليها. وغالبًا الفريسة شخص ضعيف في ناحية ما، في جانب ما، في موضوع ما... فأي نوعٍ من الفرائس أنت؟ أم لعلك مفترس!

ضرغام كان فريسة الدكتور ووعيد الضعيفة، كان طوال أيام يركز اهتمامه ونظره على ضرغام... لاحظ أن ضرغام يعاني... لغته الإنجليزية ليست بقوة لغة وعيد الإنجليزية، بالتالي لا يستطيع ضرغام إجادة التعبير عن نفسه بالإنجليزية بشكل متقن، وهذا بالتأكيد قد يؤثر على عملية القبول للمنحة!

لقد وقع ضرغام في الفخ عدة مرات وفي عدة مواقف، والمؤذي حقًا أن زميله العربي قد أبدى الكثير من السخرية من طباع ضرغام ومن ضرغام نفسه، لكنه سرعان ما يقلب كليًا بمجرد

من يفارقهم الأبله الطويل، فيبدأ بالإتفاق مع ضرغام وتبادل أحاديث ودية معه، وثم يفتح مواضيع كثيرة محاولا إظهار ثقافته الواسعة وعلومه الكثيرة وإجادته في حفظ التاريخ والشعر العربي القديم والقصص الأدبية حتى إنذهل ضرغام من هذا الشخص الموسوعة! نعم أبدى ذهولا شديدًا ليس لسبب معلوماته وقدرته على الحفظ والحوار الأدبي، بل قدرته على تبديل الأدوار بين شريك في التنمر والإفتراس إلى محاورٍ مثقف يملك بنكًا من المعلومات! كيف يستطيع متنمر أن يبدل جلده بسرعة هكذا؟ سرعة التغيير مذهلة بين نقيضين، في لحظة من متنمر حقير إلى شخص يحرص على إظهار طيبته وتعاطفه مع أوضاع ضرغام!

دهش ضرغام وناله الذهول من زميله! وفي نفس ضرغام ذهولا لا يستطيع إنكاره بمقدار معرفة زميله وسعة اطلاعه! والمعرفة بالشيء لا يعني ثقافة، فالثقافة ممارسة وحياة أما المعرفة فحفظ وتلقين. حين تعرف فقط دون أن تمارس الثقافة تكون كالثلاجة. نعم ثلاجة! فالثلاجة تحفظ الطعام كيفما تضعه فيها! لكنها تبقى ثلاجة... والثلاجة لا تأكل.. لا تستخدم الطعام لتعيش وتنبض بالحياة! بل تستخدم الكهرباء لتبقى

تعمل، وبمجرد فصل التيار ستصبح الثلاجة عبارة عن صندوق لا تصلح لحفظ الطعام. وهكذا وعيد... ثلاجة! وكل من يحفظ المعلومات... ثلاجة. بارد! لا حياة فيه. مجرد شيء يُحتفظ به بالكثير من المعلومات، تمامًا كوحدة تخزين البيانات الخارجية. لكن كثرة هذه المعلومات لا تصنع منك رجل صاحب فكر وثقافة وعلوم. لا تصنع منك إنسانًا ينبض بالحياة... فحتى المزابل تكثر فيها الكتب والأوراق التالفة بمعلوماتها وبياناتها.

في تلك الليلة كتب ضرغام: «الحياة هنا وقفة مع الذات! لا شيء هنا ينبض بالحياة سوى زوابع الغبار! بعض البشر يتحركون تحت أشعة الشمس الساطعة ويحاولون أن لا يطيلوا البقاء تحتها طويلا... وفي الليل ينامون مبكرًا لأن البرد لا يُحتمل.

الحياة هنا تُشبه كثيرًا تلك الجبال التي تحيط بنا، لو تنظرون لها ستشاهدون وجوهًا مختلفة، أفواهًا وأعين فاغرة أنوف طويلة دقيقة ووجوه نحيلة مربعة!!

أنهم يشبهون بعض سكان هذا المكان القفر».

# الفصل الخامس

مع الوقت اقتصرت المجموعة على ضرغام ووعيد والدكتور وطالب واحد يساندهم في بعض أعمال التوثيق للمعالم، وزيارة بعض السكان المحليين.

وكان هناك بعض كبار السن الذين كانوا يدخلون بكل رحابة صدر في أي نقاش عن الماضي مع الدكتور ويتخذ وعيد دور المترجم دومًا.

لا أحد يسمع للكبار أو ينصت لهم! يظن الصغار أن هؤلاء انتهى دورهم... توقف الزمن بمجرد دخولهم سن الشيخوخة وأنهم أصبحوا عالة. الأغلب يظنون أنهم مزعجين فلا أحد يريد الإقتراب منهم أو الحديث معهم أو الاستماع لقصصهم... يموت معظمهم من الوحدة. كثيرون منهم يموتون وقلوبهم تبكي وألسنتهم صامته وعقولهم قد شاخت من الإهمال.

بعض كبار السن يتحدثون مع من يرغب في الحديث معهم، فتنفتح قريحتهم وذاكرتهم ولا يتوقفون عن الكلام إلا حينما

يزجرهم أحد... كان ضرغام يرى الفرحة لدى بعضهم لأنهم يتحدثون... أحدهم تغورقت عيناه وهو يتحدث عن أيام شبابه وعنفوانه.

بعضهم تحدث عن أجداده، وبعضهم تحدث عن أملاكه، وبعضهم تحدث عن أمجاده، وبعضهم تحدث عن أن هذا المكان مسكون بأشباح وجان، وأن بعض المُغر فيها ذهب، وأن هذا الذهب محمي من قبل ملوك الجان وأفاعي وعقارب، «بعض الجان لديهم عيون في ظهورهم وبطونهم وأيدي تتعدى العشرات، بعض الأفاعي يصل طولها لمئات الأمتار وقد ابتلعت يومًا خمسة رجال دفعة واحدة! ناهيك عن الحنيش التخين الذي ابتلع جبلا من الذهب! فويل لمن يحاول نبش أسرار المكان واخراجها».

أحدهم قال للمجموعة : << إنّنا نُثرثِر كثيرًا لكن لا أحد يسمع لنا، إننا نثرثر كثيرًا ويظنون أننا مجانين، ومع ذلك لا نستطِيعُ وصف أحاسِيسنا إلا للرجال المسمرين على الجبال، وعندما نخبر أولادنا وأحفادنا أن الجبال تسمع وتتحدث، يظنون أننا بلا عقل! >>.

كانت هذه القصص توثق لدى المجموعة بالصوت والصورة، رغم أن الدكتور ووعيد وضرغام بلا شك اعتبروا الكثير منها

خزعبلات من رجال ونساء هرموا في السن ونال عقلهم ما نال من تعب ونسيان وأمراض، لكنهم سجلوها كلها... بعض هذه الروايات أخذت عقل الدكتور وصديقه.

كانت تستحوذ على السكان قصص الجان والأرواح والحنيش، كانوا يتداولونها وكأنها أمرٌ طبيعي، فتلك الفتاة ابتلعها جبل، وشابٌ خطفته جنية أُعجبت به، وقطيع من الماعز اختفى في الجبال... وهكذا.

كانوا يشيرون للجبال وأشكال الوجوه فيها. نعم كانت تتضح معالم الوجه أحيانًا، حتى ضرغام كان يشعر بشيء غريب مريب فيها... وكأن الجبال تنظر له من كل الاتجاهات، لكن ضرغام كان يعتبرها هلوسات الصحراء وسرابها.

في ذلك المساء وأثناء تناول طعام العشاء مع غرباء جدد من أمريكا اللاتينية، أخذ الدكتور ووعيد يطلعان الزوجان الشابان على بعض تلك القصص، كانت الدهشة تعتلي وجههما، ورغم أنهما لا يجيدان الإنجليزية تمامًا لكنهما كانا يستوعبان بأن أشباح تتواجد في المكان وأنها خطفت بعض السكان والحيوانات! كان الخوف يعتلي وجه الشاب أكثر من الفتاة...

الدكتور: << وما رأي الشاب الصامت هنا. هل تصدق هذه

الروايات؟>>

كان يوجه حديثه لضرغام

<< أكاد أجزم أنها أحاديث المساء قبل النوم بين رجالٍ اعتادوا وتربوا على أحاديث البطولات! لكن لا أنكر أن بعض أحاديثهم فيها واقعية. أنظروا للجبال التي تحيط بنا! أنظروا... ألا ترون لها وجوهًا وعيونًا وأفواه فاغرة... أنوف طويلة ودقيقة. أنظروا كم وجوههم نحيلة>> انفعل ضرغام وهو يصف الجبال.

ضحك الجميع وأخبروه أنهم لا... لم يروا ما يراه ضرغام.

الدكتور مستهزءًا << لعلك تراها هكذا لأنك مُصاب بضربة شمس>>

نظر ضرغام باشمئزاز للدكتور << ضربة شمس! نحن في المساء>>

الدكتور <<نحن لا نراها بينما أنت تراها، ثم أنت الوحيد في المجموعة لم تكن تضع غطاءً أو طاقية على رأسك... لقد خفت عليك كثيرًا>>

ضرغام نادمًا على فتح الموضوع: <<اطمئن أنا بخير>>

الدكتور: <<لكنك تعرضت لضربة شمس>>

ضرغام متماسكًا بصعوبة: <<من قال لك أني مُصاب بضربة

شمس. هل أبدو لك كمصاب بضربة شمس؟>>

الدكتور: <<لكنك مُصاب بحروق الشمس في وجهك ويديك وقدميك>>

ضرغام: <<أنا بخير>>

الدكتور: <<جلدك بدأ ينسلخ والحروق تبدو سيئة>>

ضرغام: <<حسنًا... إلى متى سنبقى على هذا الحديث؟ هل أبدو كمن يشكو؟>>

الدكتور: <<أنا أتأكد إن كنت بخير، أتزعجك ملاحظاتي؟ لكن أشعر أنها ليست من الشمس! ألعلك تعاني من أمراضٍ جلدية؟>>

ضرغام وقد جن جنونه ثم تذكر المنحة: <<أتعرف شيئًا! أظن أنني سآكل بصمت>>

الدكتور: <<لا تنفعل! أعرف أنك مُصاب بأمراض، وأنك كثير التذمر، فقط استرخي>>

وعيد: <<واسمه ضرغام! أتعرفون ما معنى كلمة ضرغام يا أصدقاء؟ إنها تعني الأسد>>

الدكتور: <<أسد! لدينا أسد هنا>>

لم يعلق ضرغام، لقد تعرض لهذا النوع من التنمر مسبقًا...

«أنه اسمي! وليس صفة من صفاتي! أنه اسمي الذي اختاروه لي

ولستُ أنا من اختار هذا الاسم.

كم وددت لو اخترت اسمي. لكني ولدتُ وأنا احمل كل الصفات التي تعاكس اسمي. ماذا أفعل لكي أهرب من هذا الاسم الذي يلاحقني منذ طفولتي؟ كل من يجهل العربية أصبح يعرف أن ضرغام تعني الأسد... وأنني لستُ بأسد!

قلتُ لاسمي دعك مني، واذهب بعيدًا، فإني ضقت بك... فارحل عني. خذ صفاتك وارحل عني. حملتُكَ ولم تحملني وأنا لا استطيع حملك أكثر! لكن يخسرُ الإنسان كثيرًا لكن لا يخسر اسمه مهما بلغ فيه الإنكسار».

كانت محاولات الدكتور بإثارة أعصاب ضرغام اليومية تأتي أوكلها أحيانًا وأحيانًا يأكل ضرغام بسرعة قبل أن يتفوه الدكتور أو وعيد بتفاهتهما فينهي طعامه ويغادر للخارج قبل أن يتعرض ضرغام للسخرية والتنمر.

# الفصل السادس

**الغبار الشيء الوحيد الذي يتحرك في ساحة المخيم، الشمس ساطعة، لا أحد في الجوار.**

**المجموعة ذهبت في رحلة في يوم العطلة بينما اختار ضرغام البقاء وحيدًا في هذا اليوم. لا يُريد البقاء بالقرب منهم.**

**قبل أيام سمع من أحد البدو الذين يزودون المخيم باحتياجاته من المؤن أنه دخل بزفة جن قبل دخوله للمخيم وأنه سمع زغاريت نساء الجن وهن يزفن إحدى فتيات الجن الجميلات لأمير الجان! لم يعر أحد كلامه بالاهتمام، أما ضرغام فقد ظن الرجل مجنونًا! فسأل أحد شباب البدو الذي كان يجلس معه كثيرًا.**

**<<زفة جن؟ هل يحلم الرجل؟>>**

**<<أنه تعبير عن زوبعة غبار>>**

**فجأة ظهرت زوبعة غبار أمامهما وسرعان ما انتهت... وقال: <<لم أسمع شيئًا!>> ضحك الشاب البدوي وقال له: <<إنها**

خرافة... لا شيء في الزوبعة>> ففكر ضرغام وقال في نفسه مادة جميلة كقصة يضيفها لموضوع تراث السكان المحليين.

في هذا اليوم والمخيم خالي من كل الحياة ما عداه هو والشابان العربيان اللذان يعملان في المخيم وقد اختفيا...رأى من بعيد زوبعة غبار وانتهت

توالت غيرها...عدد منها... وانتهت كلها.

لم تكن هذه الزوابع كبيرة لتثير في نفسه اهتمامًا بالفكرة.

كانت هناك زوبعة تتراقص بلا هوادة، تتقدم من بعيد، تظهر حينًا وتختفي حينًا، تقترب كثيرًا ثم لا تلبث بأن تبتعد وكأنها تدعو ضرغام للرقص معها... أو تريد جس نبض ضرغام! تحاول الإقتراب منه بحذر... تحاول إخبار ضرغام بشيء ما، أو اختباره... لكن شيء ما كان ينهرها من الإقتراب منه!

لم تكن زفة الجن هذه لتخيف ضرغام، كان ينظر لها بكسل وهو يجلس في ساعة الظهيرة الحارقة في السد. كان محمود الشاب العربي قد غفى قليلا ثم قام وغادر المكان، قال شيئًا، ما لكن صوته رقيق جدًا وخافت جدًا لدرجة تظن أنه يهمس همسًا، أما حازم الشاب الثاني فكان أكثر حزمًا وصرامةً وصوته الجهير يملأ هدوء الصحراء، كان يختفي كثيرًا وقلما رأيته ينام، كثير

الحركة ومشغول دائمًا. في تلك اللحظة كان السد خاليًا إلا من ضرغام، فالدكتور والمجموعة غادروا إلى مكان بعيد جدًا ورفض ضرغام مرافقتهم لأنه توقع مشوارًا متعبًا ولأن اليوم يوم عطلة قرر ضرغام أن يقضيه بالقراءة والكتابة والهدوء.

كانت زفة الجن تأتي وتذهب... وقد اقتربت هذه المرة كثيرًا.

استغرب ضرغام أنها اقتربت كثيرًا نحو السد، فالمفروض أن السد يحجب معظم الريح التي بحركتها تولد الزوبعة! واستمرت زفة الجن تأتي وتذهب... وكلما جاءت اقتربت أكثر.

واستسلم ضرغام للنوم.

• <<السلام عليكم>>

قام ضرغام فزعًا على وقع هذه التحية رغم رقة صوت القائل.

لم يكن هناك أحد عندما ذهب ضرغام في سباتٍ، لكن عندما فتح عينيه وجد أحدهم يجلس القرفصاء مقابله... رجل في منتصف الثلاثينات أو أقل قليلا. كرر الرجل تحيته.

ضرغام: <<وعليكم السلام>>

كان ردًا سريعًا بعد أن أهتز كيان ضرغام من الفزع. كان ضرغام يقول في نفسه من أين غَشِى[1] هذا الرجل فجأة؟

1) غَشِى: جاء صدفة دون علم

- <<أعتذر عن إخافتك... لم أقصد أن أُخيفك>>
- <<لا عليك لم أخفْ>>
- <<لا بأس أن تعترف بالخوف. أنت إنسان والخوف صفة من صفات الأحياء... حتى عُشب الأرض يخاف أقدام البشر وأسنان حيوان ما تنتزعه وتقضمه>>.

نظر ضرغام له بشكل مباشر وفكر: «ومن هذا؟ ها قد بدأنا من جديد، حكم ونصائح جديدة وتنمر جديد. متى ستنتهي هذه المهمة وأخرج من هذا الجحيم؟».

أطال ضرغام النظر فيه بينما بادر رجل بالكلام:

- <<لم أقصد أن أُعطيك نصائح وحكم>>.

استمر ضرغام ينظر للرجل وهو يقول في نفسه كيف فهم ما أقوله في داخلي.

ضرغام مضطربًا : <<لا يهم... أهلا وسهلا>>.

- << أهلا وسهلا بك أنا ربعيل وأنت ضيفنا ضرغام>>.

ضرغام: <<ربعيل ! ما هذا الأسم؟>> ندم سريعًا!! لقد تنمر على الرجل الغريب كما يتنمر الناس عليه!

ربعيل: <<اسمي>>.

ضرغام: <<لا أقصد الإساءة لكن كيف تحمل اسم رب؟ أم أنه

مجرد لقب>>.

ربعيل: <<لا ليس لقبًا. اسمي ربعيل وأعلم أنك تفكر بأنه كيف لعائلة من هذه الأرض أن تسمي إبنها ربعيل. حسنًا هذه قصة طويلة ستعرفها في وقتها. المهم أن حدسي بك لا يخيب>>.

ضرغام: <<وما علاقة حدسك بي؟ وما شأني باسمك؟ أنا أراك لأول مرة ولذا الحدس الذي تتحدث به لا يُعني شيئًا، واذا كانت طريقة للكلام وتضيع الوقت فيمكن أن تتحدث بما تريد فنحن نُجيد تضيع الوقت في هذا المكان>>.

ربعيل: <<لا عليك أخي لا عليك، لن أُضايقك، أنا فقط أرغب بالحديث معك لبعض الوقت إن أمكن، أُحدثك عن نفسي ونخدم بعضنا بعضًا>>.

ضرغام: <<أنا هنا لمجرد أيام أتمنى أن تمر بسرعة وبالنسبة للتعارف فأنت تعرف اسمي واذا أردت أن تعمل مع الفريق فالأفضل أن تسأل الدكتور شخصيًا أو وعيد>>.

ربعيل: <<لا. أنا أُريد الحديث معك شخصيًا ولستُ مهتمًا بالعمل مع الفريق. اسمي ربعيل وأنا سيد هذا المكان!>>.

ابتسم ضرغام ابتسامة خفيفة ساخرة...

ضرغام: <<ربعيل مجددًا! وسيد هذا المكان. طيب>>

ربعيل: <<نعم>>.

ضرغام: <<دعني أخبرك أنني لا أهتم بالاسماء ولا بالألقاب ولا بالديانات ولا بالتواريخ ولا بالفريق ولا بالعمل. أنا هنا بعض أيام وسأخرج من هذا المكان المجنون وأتمنى أن أخرج منه بأقل الخسائر الممكنة... وأن أحصل على المنحة الدراسية... لكن يبدو أنه لن تحدث إلا وقد أُصبت بالجنون. أنا أتمنى أن أخرج من هذا السجن الصحراوي في أقرب فرصة قبل أن أُجن>>.

ربعيل: <<أنا أعلم أن الدكتور وزميلك والحر والطعام تثير عصبيتك. أنا صديق ولا أُريد أن تغضب مني. أنا لم ولن أطلب منك شيئًا إلا بعض المساعدة وفي المقابل قد استطيع مساعدتك>>.

ضرغام: <<كيف عرفت أنني متضايق من هذه الأشياء كلها؟ من أخبرك بذلك؟ وثم من أخبرك أنني احتاج إلى أي نوعٍ من المساعدة؟ اذا كنت تملك هذا المكان أو تعمل فيه فأنا لا أعرف كيف أُساعدك لكنني لا احتاج إلى أي مساعدة أشكرك>>.

ربعيل: <<هدئ من روعك. لا لم يخبرني أحد بما تفكر فيه أنا أعرف ما يحدث هنا لأنني أراكم من بعيد. أنا اسمعكم جيدًا.. وأوجاعكم أعرفها! أنا أعرفكم جيدًا. صدقني أنا استطيع قراءة حزن العيون وبكاء القلوب. أنا أرى كل شيء هنا>>

ضحك ضرغام وقال في نفسه... «مجنون مغرور آخر في هذا المكان! ما قصة هذا المكان الذي يُخرّب عقول الزوار، فيضنون أنفسهم مختلفين عن كل البشر وأفضل منهم»

ضرغام (ساخرًا): «أخبروني أنني سأكون في حضرتك هنا. لكنني أرغب ببعض النوم».

وقبل أن يضع رأسه حيثُ يُشيح به عن هذا الغريب:

ضرغام: «إذا أحضروا الشاي أخبرني».

كانت هذه الجملة كافية من ضرغام لتهدم حصن هذا المغرور المتكبر الذي يسمي نفسه ربعيل ويعتبر نفسه سيد هذا المكان... هذا المكان الذي يمتلئ بالجبال والحر... مكان سيء لا يوجد فيه مقومات الحياة العصرية... ومع ذلك يمتلئ من يدخله بالغرور فورًا!

«إن هذا المتطفل على هدوئي يظن أنه يملك الحق ليقتحم النعاس... ألا يعلم هذا المعتوه الجديد أنني أكره المتطفلين، وأكره المتكبرين، وكل البشر الذين ينزلون على أنفسهم أفضل الصفات وأنقاها وأعظمها، وكأن اللّٰه خلقهم ولم يخلق غيرهم! أو خلق الآخرين من طينة ليست بذات مستوى الطينة التي خُلق بها هؤلاء! أيظنون أنفسهم سلالة مقدسة؟ أعطاهم اللّٰه

العلم والثقافة والفكر والدين والنباهة والكرم وحصر وجود البشرية بهم... أما العوام فخدام هذه الفئة المختارة! الأمم تخدم هؤلاء الذين يظنون أنفسهم فوق مستوى البشر».

ربعيل: <<إن أجوبتي على تساؤلاتك التي تفكر بها الآن جاهزة، لكن أُريد أن تكتشفها بنفسك. لكن أنا لستُ من الذين تظنهم>>.

رفع ضرغام رأسه نحو الرجل ونظر إليه مستغربًا... كيف عرف ذلك؟

ربعيل: <<ستعرف كل شيء في الوقت المناسب، الآن سيحضر رجالي طعام الغداء لنا، سنأكل معًا لنتعاهد على الصداقة والأمانة والسرية>>.

عادة تنشأ الصداقة بين شخصين يشعران بالتوافق، لا بين شخصين يجهلان بعضهما البعض! لكن هذه الأيام شاع فيها صداقة الفيسبوك والمسنجر والواتسآب وغيرها من مواقع التواصل الاجتماعي فقط على الصورة أو على نوع الجنس المذكور في الحساب! وكم هي خادعة صور البشر على الفيسبوك والواتسآب والحسابات الإلكترونية في مواقع التواصل الاجتماعي. هذا الوهم الذي يُسمى تواصلا غالبًا ما هو إلا فخ

يصيد فيه أحدهما الآخر، وفي أحسن الظروف يرسم أحدهما فكرة عن الآخر ليست إلا من بنات أفكاره، لتكون الحقيقة مخالفة وصادمة! لكن لماذا يذهب البشر الآن إلى صداقات عبر الشاشات ويبتعدون عن الصداقات الحقيقية الملموسة؟

ربعيل: <<أنا أعرض عليك صداقة من أجل مساعدة بعضنا بعضًا>>.

خجل ضرغام لأن صوت عقله عالٍ ومسموع... تمامًا كصوت معدته التي ارتفعت بسبب الجوع.

ربعيل: <<سيحضر رجالي الطعام لكلينا>>.

ضرغام: <<لا أشكرك>>.

ربعيل: <<أشعر بجوعك... تركوك دون أدنى ذوق وبدون طعام>>.

«لعنة الله على معدتي تفضحني بصوت صراخها... لعنة الله على عقلي يفضحني بصوت تفكيره... لعنة الله على جسدي الضعيف الكئيب الذي يجعلني أضحوكة أمام الناس... ليت الأمر سهلا بأن استبدل بعض أعضاء جسدي وتنتهي محنتي» فكر ضرغام.

ربعيل: <<لا ليس هناك أصوات إلا من الداخل. صوت القلب

أصدق من أصوات الأعضاء البشرية كلها، لسانًا كان أو غيره، لن تستطيع أن تكتم همسات قلبك، ولذلك فالأفضل أن لا تحاول حتى أن تمنع وشوشاته لروحك. لا بديل للأعضاء التي منحها الله لنا، لا يمكنك استبدال قلب برئة، أو رئة بلسان، أو لسان بالزائدة. لا بديل للأعضاء ولا بديل لمن نحب. حين نفقد الأصل... لا شيء يعوضه أو يحل مكانه>>.

ضرغام: <<كيف عرفت بماذا أفكر؟>>

ربعيل: <<لا شيء يُخفى هنا. هذه الصحراء صارخة تنطق دومًا، هذه الصحراء متمردة ترفض دومًا الخنوع والخضوع>>. لقد كان الرجل الغريب صادقًا، فالأوغاد الثلاثة تركوه دون طعام. لا شيء. والمخيم غير ملزم بإطعام هذا الضيف الذي بقي في المخيم وحيدًا. فعلا ضرغام كان يشعر بجوعٍ لكن ابريق الشاي الحلو جدًا الذي تركه المصري قبل اختفاءه جعل الأمر سهلا على ضرغام لكن بالتأكيد لم يسد جوعه. لولا هذه الأقداح المتتابعة من الشاي لأصاب ضرغام الإنهاك والارتجاف والوهن.

ربعيل: <<أنت تكابر دومًا... خجول جدًا. لكن هذه المرة ستأكل معي. رجالي حضّروا لنا طبقًا من الكبدة، أنه لذيذ>>.

ضرغام: <<شكرًا جزيلا لكن أنا لا أحب الكبدة ولا يمكنني أن

آكلها>>.

ربعيل: <<حُجة. أنت تختار نفس الحُجة لتعفي نفسك من الإحراج. أنت رجلٌ حساس وكثير الخجل. هذا ما يجرحك ويجعلك حزين في الكثير من المرات. هذا ما يُعرضك للتنمر، لأن الأذكياء يعرفون أنك تكذب. الأذكياء الطيبون سيعرفون أنك تكذب ويصمتون، والأذكياء السيئون سيعرفون أنك تكذب ويتنمرون عليك. أعرف أنها طبيعة في داخلك وأنك لا تستطيع تغيير الطبع الذي ولد معك، ولكن هذه المرة ستأكل معي، إكرامًا لوالديك رحمهما الله>>

كان وجه ضرغام قد أحمر ولم يكن يعرف ماذا يقول «إن ما يقوله هذا الغريب ربعيل صحيح جدًا لكن صراحته مرعبة... أن يعرف غريب ما تفاصيلك يُشبه كثيرًا معرفة الغريب بتفاصيل جسدك. إن الكذبَ بريءٌ أحيانًا! أنه كقطعة قماش نسترفيه عيوبنا. صحيح لسنا بحاجة للكثير من القمش لنخفي هذه التفاصيل لكن يبدو أنني أسترُ نفسي بخرقة ممزقة تمتلئ بالثقوب ليعرف هذا الغريب تفاصيلي الدقيقة».

ربعيل: <<الروح الشفافة روحٌ طيبة لا تملك أن تخفي نفسها يا ضرغام. أنت تملكُ روحًا شفافة طيبة وهذا سبب جلوسي معك

اليوم. أنك رجلٌ نادر وحساس وهذا ما يجعلك حزين في الكثير من المرات. الناس ينظرون لأمثالك على أنهم سُذّج لكن معظم من يملكون روحًا شفافة هم في الواقع طيبين. ولأنّ أبسط الأشياء تؤثّر فيك، فأنت تعاني دومًا>>

ضرغام: <<هذا العالَم لا ينفَع معه من يشعُر كثيراً، ثم هذا الخراب الذي بداخلي لا أعرف من أين أتى؟ هل بالولادة أم بالتأثير؟ قد يكون كليهما، أو لا يكون، أو قد يكون أحدهما... لكني لم أولد شاحب الروح، لم أولد ومعي تلك النية لإكون هكذا... لقد كُنت طفلا ناصع البياض على ما أذكر>>.

ربعيل: <<ستتغير نظرتك للأمور، وستتغير أنت كثيرًا، لا تشغل بالك، حياتك قبل ستختلف عن حياتك بعد لقائنا. لنأكل معًا لأنك جائع والعشاء سيتأخر الليلة لأن المخيم فارغ ولن يحضر إلا زوجان وسيكون أمر الأكل معهما مخجلا لك، لنأكل إكرامًا لوالديك صديقي ونترحم عليهما>>.

ضرغام: <<حسنًا سنأكل معًا>>.

فعلا كانت معدة ضرغام تصدر أصواتًا غريبة ومضحكة ومحرجة، ولم تتوقف عن إصدار هذه الأصوات طوال حديثهما معًا.

لقد أسر هذا الغريب ضرغام. ضرغام شعر بالغرابة في البداية ثم ما أن انكشفت روحه أمام هذا الرجل حتى أصبح معجبًا به... ضرغام لا يحب أن يُعجب بالغرباء! يا ريت الغرباء لا يأتون ولا يقتحمون حياتنا... لكن لا نملك إلا الاستسلام لبعضهم حين يأتون ومعهم حبال ثم... نجد أنفسنا قد ارتبطنا بشخص ما.

ظهر أحدهم من حيث لا أعلم وأحضر طبق صغير من الفخار فيه ٦ قطعٍ متوسطة من لحم مطبوخ! الصحن الفخاري أكبر بقليل من صحن فنجان القهوة والقطع سوداء من الطبخ ومغمورة بزيت وذات رائحة شهية، ومع الطبق رغيف خبزٍ ساخن شهي الشكل وتفوح منه رائحة تفتح الشهية. وضع الرجل الصحن الفخاري أمامنا ثم تبعه رجلٌ آخر يحمل صحنان فخاريان آخران أحدهما فيه قطع من بصل والقليل من ما يبدو وكأنه ملح، والآخر فيه شرائح من الطماطم الحمراء.

كان ضرغام ينظر للقطع الستة من ما سماه ربعيل كبدة. قال في نفسه «إن هذه القطع وقطع البصل وشرائح الطماطم ورغيف الخبز لن تكفيه وحده فكيف ستكفيه ومعه ربعيل والرجلين اللذين ظهرا فجأة «.

«لقد اختفيا... أين ذهبا»

ربعيل: <<لا تهتم بهما، أنهما رجلان طيبان من جنودي... الطعام سيكفينا نحن الإثنين>>

ما قصة هذا الرجل الذي يسمع ما أُفكر فيه؟ لن أفكر. لكن هل يستطيع إنسان أن يمنع نفسه من التفكير؟

أخذ ربعيل الرغيف ثم قسمه نصفين وهو يتمتم كأنه يُصلي ووضع نصفه أمام ضرغام، ثم قسم من نصفه الآخر لقمة وغمسها في الصحن ووضعها في فمه.

ربعيل: <<لا أحد يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير. التفكير شيءٌ لا إرادي في المخلوقات كافة التي لها ضمير. أقطع من خبزك وكل بسم إيل>> .

ضرغام: <<إيل ؟>>

ربعيل: << أقصد باسم الإله الذي تعبده. كل الآن وما أن ننهي طعامنا سأخبرك بكل شي>>.

ضرغام: <<لن آكل شيء ذُبح باسم غير اسم اللّٰه ولا آكل إلا باسم اللّٰه. من أنت؟ وماذا تكون أنت ورجالك وكلامك الغريب؟ كيف تقرأ أفكاري وتعرف ما يدور بخلدي؟ أنت رجلٌ غريب الأطوار ومتطفل فإما أن تخبرني الآن ما القصة أو خذ طعامك ورجالك وابتعد عني>>.

# الفصل السابع

«أعترف بأنني كُنتُ متنمرًا على ربعيل» كان ضرغام يفكر في نفسه وقد اختفى الرجل بلمح البصر. بمجرد أن التف ضرغام ليعدل جلساته كان ربعيل والطعام الذي على المنضدة قد اختفى!

«هل أحلم؟ أيعقل أن ما حدث الآن مجرد هلوسات؟»

كان ضرغام يفكر ويعلم أنه بمجرد ما أخبر الرجل الغريب أن اسمه مثيرٌ للريبة، وظهوره مُثير للشكوك والآن اختفائه السريع جدًا... كل شيء بهذا الرجل غير منطقي.

« لا... لستُ غريبًا. أنا فعلت الصواب..

لن آكل طعامًا لا أعرف كيف ذُبح وباسم من سنأكله وثم من أين أقْبَلَ هذا الرجل وكيف ظهر رجاله من العدم يحملون الطعام واختفوا أيضًا بسرعة لا يمكن تتبعها... ثم أن الرجل نفسه متنمر! لم يُعرفني عن نفسه كما يجب. أراد أن أتبع تعليماته وأن آكل من طبق غريب يقدمه لي غرباء دون أن أتحدث أو أسأل أو حتى أفكر. لقد سيطر على تفكيري كليًا... أنه يسمع همس خلايا دماغي»

أصدرت معدته أصواتها مجددًا تصرخ تريد الطعام...

«إن هذا ربعيل متنمر جاء يشتريني بستة حباتٍ من شيء ما أسود وبعض قطع البصل وشرائح الطماطم... ظن رجل الصحراء المعتاد على الجوع والعطش والتعب أنه يستطيع كسر إرادة رجلٍ مثلي»

صرخت معدته مجددًا

«نعم قابلته بتنمر قبل أن يفرض هو الآخر تنمره علي، سأتغدى عليه قبل أن يتعشى علي. سأتنمر عليه وسأهاجمه بكل قوة ليعلم أنني لن أسمح له هو الآخر بالتنمر علي!»

لم تعد المعدة تصرخ... لقد ثارت ثائرتها.

استلقى على ظهره نادمًا على أسلوبه مع ربعيل ورافضًا الأكل. أن ضرغام شخص لا يبالي بالدين، فلماذا يتدين في تلك اللحظة لمعرفة من هو إيل ولماذا يأكل باسمه؟ نعم هو يعرف أن إيل إله قديم، لكن من يعبده الآن؟ لا أحد! هذا الإله أصبح حبيس كُتب التاريخ والآثار والتراث، وأنصابه وتماثيله ومذابحه بكل اسماءها وأشكالها إما تُحف في المتاحف أو منسية تحت التراب تنتظر آثاري أو لص لينقب عنها!

«ألعل اسمه يُشبه كثيرًا جبرائيل؟ فإذا كان من عادة الناس أن

تسمي حتى هذه اللحظة ابناءها جبريل وجبرائيل واسماعيل وغيرها، إذا لعل هذا الرجل ابنًا لأحد العائلات التي نذرته طفلا باسم ربايل أو ربئيل ولكن الجوع جعلني أهذي وأظن أنه يظهر فجأة ويختفي فجأة»

ربعيل: <<إذا ستأكل معي؟>>

جفل ضرغام وانتفض جسده كله. من أين ظهر مجددًا وأيضًا جالسٌ في نفس المكان وكأنه لم يتحرك.

ضرغام: <<من أين أتيت؟ هذه المرة الثانية التي تفزعني فيها>>.

ربعيل: <<ستعتاد في الصحراء الفاضلة على أن ترى أشياء كثيرة لن تراها في أماكن أخرى. اعتدل وتعال كل... صدقني أنا لستُ هنا لأتنمر عليك أو أُثير شكوكك بما فيها الميته منها>>.

اعتدل ضرغام وأخذ قطعة الخبز وبدأ يغمس ويأكل... كذلك ربعيل.

ربعيل: <<أنا هنا الضعيف وأنت القوي.. أنا هنا في أرضي لكني لا أملك أي قوة وأنت هنا ضيف لكنك صاحب الغلبة. لذلك أنا أطلب منك العون والمساعدة لي ولأصحابي الضائعين لنرتاح للأبد>>.

ضرغام: <<كيف هذا؟>>

ترك ربعيل الطعام ونظر في عيني ضرغام.

ربعيل: <<إن شعبي يُقدر كثيرًا الصداقة والأخوة، ويعبرون عنها بالطعام. إن جاءك ضيف فأكرمه، وكل معه، بهذا تعلن له عن أنه ضيف عزيز وفي أمان. إن الخبز والزيت والملح طعامٌ مقدس لدينا، وإذا أكلناه مع غريب ،أصبحنا أهل وأخوان>>.

ضرغام: <<هذه تقريبًا شبيهة بعاداتنا القديمة. لكن البشر يتغيرون. البشر يأكلون مع بعضهم ومع ذلك يخون بعضهم بعضًا. الطعام لن يمنعهم من أكل بعضهم بعضًا. الطعام لم يكن هو المشكلة في الأغلب أو المانع عن تنمر بعضهم على بعض. الإنسان عندما يقتل أخيه الإنسان فالسبب في الأغلب الحسد والكراهية والبغض. البشر يتنمرون بعضهم على بعض، يظهر القوي جبروته على الضعيف، أو الأكثر عددًا على الأقل عددًا، أو غيرها من الأسباب>>.

ربعيل: <<صدقت. ولعلك قرأت بعض أفكاري وستعلم أننا تعرضنا لهذا النوع من الظروف، لن أُخفي عليك حقيقتي وحقيقة شعبي وسأحاول أن أقنعك بمساعدتنا وإن رفضت أو فشلت فلا ضغينة>>.

«حِجةٌ مقنعةٌ» قال ضرغام في نفسه.

ضرغام : <<أساعدكم بماذا؟>>

كان ضرغام يأكل دون وعي، فالجوع أنهكه والطعام لذيذ جدًا... كان يأكل بنهم وكأنه لأول مرة يأكل الكبد... لا يعلم هل هو كبد الخروف أو الماعز أو البقر أو حيوان آخر لكن الجوع تمكن منه والطعام لذيذ وقليل...

«لحظة» توقف ضرغام عن الأكل. نظر بتمعن للطبق! «ما زالت القطع ستة!!!» أنه يتذكر جيدًا أنه أكل ما يقارب ٤ أو ٥ قطع وشاهد ربعيل يأكل ٢ أو ٣ والصحن كان فيه ٦ قطع فقط.

ربعيل: <<أسمع ماذا سأقول لك، وما هي المساعدة التي احتاج إليها، ثم سأخبرك عن موضوع القطع>>.

ضرغام: <<قل، ماذا لديك؟>>

ربعيل: <<أخبرتك أن أسمي ربعيل وأنا ملك... ملكُ هذا المكان>>.

ضرغام: <<تقصد أنك شيخ قبيلة هنا>>.

ربعيل: <<لا... ملك. أنا كنتُ ملك هذه المناطق كلها بعد أن هاجر أخي، ومملكة أجدادي كانت كبيرة جدًا تمتد من نهر باراديوس في الشمال إلى أعماق الصحراء في الجنوب وغربًا

من بحر ماره نوسترم حتى الواحة اليتيمة في الصحراء شرقًا ومملكة أجدادي كانت قوية ومنيعة وامتدت بالحب والقوة>>.

ضرغام: <<وأين مملكتك الآن؟>>.

ربعيل: <<مملكتي انتهت. انقسمت بيني وبين أخي ونحن آخر ملوكها>>.

ضحك ضرغام ضحكة كلها سخرية.

ربعيل: <<حسنًا، تقول في نفسك أين المنطق بكلام هذا الرجل. سأثبت لك كلامي بأبسط الأشياء. أترى صحن الكبدة؟ لقد أكلنا منه أنا وأنت ولم ينته>>.

ضرغام: <<صحيح>>.

ربعيل: <<هل رأيت الخبز والطماطم والبصل؟>>.

كل شيء كما هو وكأنهما لم يقسما الخبز ويتقاسما الكبدة... كأنهما لم يأكلا.

ضرغام: <<هل هذا سحر؟ واختفائك وظهورك مجددًا هل هو سحر؟>>.

ربعيل: <<لا... أنه طعامُ روحي. أنا ورجالي أرواحٌ مقيدة على الأرض، لا نستطيع دخول السماء ولا المرور نحو حياة أخرى. نحن هنا إلى أن تنحل القيود التي تربطنا بهذه الأرض ونتحرر.

واليوم حُررت بعض الأرواح الطيبة بأكلنا هذا الكبد>>.

ضحك ضرغام مجددًا.

ضرغام وقد مسح كلا يديه ببعضهما تاركًا الطعام: <<وتريدني أن أصدق هذه القصة. وماذا تريد مني؟ ألف دينار؟ أم أن أوقع على أوراق؟>>

ربعيل: <<لا شيء. نحن لا نحتاج أموالك أو ممتلكاتك. نحن نريد مساعدة جسدية منك>>.

ضرغام: <<لماذا أنا؟ لماذا لا تطلبوها من غيري؟ لماذا أنا بالتحديد؟ أنت تقدم نفسك كأنك ملك هذا المكان منذ قديم الزمان، حسنًا! مر من هنا ألوف البشر بل الملايين منذ كنتم هنا كما تقول حتى هذه اللحظة. لم تجدوا سواي أساعدكم؟ أنا لا أملك عضلات ولا قوة جسدية عظيمة لأساعدكم>>.

ربعيل: <<نحن لا نحتاج العضلات وإن كان بعضنا أمتلكها بالجهد البدني. نحن بنينا هذا المكان بالحب، وطوعنا الحجارة، ونحتنا الجبال، وحفرنا المغر والبيوت والقصور في الصخور. نحن كنا نملك العضلات والفكر والإبداع والحب... وعندما فقدنا الحب وبدأنا نفكر بأنانية فقدنا كل شيء. العضلات آلة لكن الحب حياة. القوة مورد لكن الإبداع فكر، نحن صنعنا عالم نقي

جميل في هذه الصحراء، وحولناها إلى مساحات خضراء وسدود وبرك تكفينا وتكفي مواشينا ومزروعاتنا. تاجرنا مع الأمم التي حولنا بسلام، فأخذنا عنهم وأخذوا عنا، وأخذنا منهم وأخذوا منا، منحناهم فننا الجميل وصناعة متقنة. بل آمنا معًا فأخذنا من آلهتهم ووضعناها في معابدنا ونحتنا الجزء الكثير منها في صخورنا وهم أخذوا أيضًا من آلهتنا، حتى لغتنا أخذنا منهم وأخذوا منا، وهذا كله لأننا كنا نؤمن بحقهم في الحياة، وكنا نعتقد أنهم أيضًا يؤمنون بحقنا في الحياة. نحن مميزون وهم أيضًا مميزون، والتبادل بيننا في كل شيء يضمن الاستمرار، ومع ذلك حتى نأمن جانب الشر فيهم نقلنا عاصمتنا بين الجبال، ولشح المياه في هذه الصحراء صنعنا سدود وقنوات تأمن المياه لسكاننا ومواشينا وأراضينا المزروعة بما نحتاجه من مزروعات. كنا نحتفل بقوافل التجار التي تمر عبر أراضينا ولم نكن نفرض عليهم الكثير من الضرائب، بل كنا نمنحهم مياهنا الشحيحة أحيانًا مجانًا ونشتري منهم ونبيعهم ونتبادل بعض المواد، وكان جيشنا قويًا شجاعًا، عاملنا الغرباء بأحسن حال، ولكن كنا نعرف أن بعض الغرباء لديهم أطماع بأرضنا، لذلك وزعنا جيشنا على كل المملكة وخصوصًا عاصمتنا، ولكن بقيت بعض مناطقنا

بلا جيش يحميها، ولذلك بنينا تحالفات مع جيراننا، لا نعتدي عليهم ولا يعتدون علينا، وكله بالحب، وكل اعتداء علينا كان يُجابه بحزمٍ وقوة فنستعيد أراضينا التي تسلب بكل سهولة. نحن كنا نحب الحياة أكثر من السيوف، نحب كل شيء حولنا لأنها من الآلهة التي عاشت بيننا وأعطتنا كل الأشياء الجميلة، آلهتنا التي حمتنا من الجفاف والرياح وخيول الأعداء وسيوفهم، آلهتنا التي فتحت أبوابًا بيننا وبين كل الممالك التي تحيط بنا، فكانت مفتوحة للحب والسلام تارة وللحرب والقتل تارة أخرى، ولكن عندما تخلينا عنها، تخلت الطبيعة عنا>>.

ضرغام: <<لم تجب على أي من أسئلتي بشكل مباشر، ما زلتُ لا أفهم كيف أنكم أرواح مُقيدة وأنت الآن أمامي جسد يأكل ويشرب، وما سر عدم نفاذ الكبد>> .

ربعيل: <<أنظر لزفة الجن تلك>>.

نظر كليهما لعاصفة من غبار تقترب نحوهما... ثم خرج منها... من اللاشيء رجال واقتربوا منهما. كان الأمر صدمة ورعب لضرغام. كأن باباً فُتح من الغبار وخرج منها رجال من العدم...

ضرغام: <<إذا أنتم جن... لقد صدق أحدهم حين قال أنه سمع صوتًا لزفة جن>>

ربعيل: <<لسنا جن... بل أرواحٌ مُقيدة. الجن لقب أطلقه علينا البعض ليظهرنا كالشياطين، تمامًا مثل رجلك الذي يدعي أنه سمع صوتًا لرقصة الجن>>

أخذ الرجال الطعام من أمامهم وانسحبوا كما جاؤوا عبر زفة الجن.

ربعيل: <<أما الطعام الذي أكلته فهو طعامٌ روحي، طعام سيشبعك إلى حين يضعون طعام العشاء لك، ولأنه طعام روحي فهو لا ينفد بل يفيض، وكل طعامٍ روحي هو طعام مبارك، يطلق الأسرى من سجونهم>>.

ضرغام: <<حسنًا، ماذا حدث لكم؟ لماذا أنتم أروحٌ مقيدة؟>>.

ربعيل: <<لقد جاء غضب الآلهة. زلزال عظيم جدًا حطم سدودنا وبركنا وقنوات المياة، لقد انهار كل شيء في وقتٍ قصير جدًا، ومات خلقٌ كثير تحت الصخور، أو فُقِدَ مع جريان سيل مياه السدود، أو غرق في مجاري السيول. كما انهارت الكثير من دفاعاتنا. وبعد أن صحونا من هول الصدمة كانت عاصمتنا أشبه بمدينة كوارث لا تصلح للعيش. الموتى كثر والمصابون لا يمكن علاجهم، كانوا مطروحين في الساحات لا أحد يستطيع مساعدتهم، بدأت الحيوانات الضارية تنهش لحمهم والطيور

تأكل بقاياهم، والمياه القليلة المتبقية ما عادت تصلح للشرب، ولا يوجد طعام ولا آمان، فتشتت الناس وتشرد معظم سكاننا الأحياء. جيشنا فقد الكثير من أفراده وتشتت قوته، فاستغل جيراننا وأقوامٌ غريبة عنا من الذين لم يصيبهم غضب الآلهة ضعفنا ومصائبنا وبدأوا يحتلون أراضينا رويدًا رويدًا. فأخذ الملك ما تبقى من الأحياء ممن يستطيعون السير لمسافات بعيدة من عاصمتنا ورحل بهم شمالا. ترك الضعفاء والجرحى وكبار السن وذهب شمالا وبنى عاصمة جديدة، وبقيتُ أنا مع المرضى والعجزة والأطفال في عاصمتنا المحطمة، تركنا دون حماية ودون أمان ودون طعام أو شراب. كان هدفه حماية ما بقي من المملكة في الشمال فترك الجنوب ضعيف، ولأن مملكتنا لا تستطيع النهوض وحدها وفقدت معظم ما تملك، أصبحت مملكتنا الجديدة تابعة وأسيرة لأهل الشمال، ولأنني رفضت هذا القرار أخذتُ أبناء شعبي ممن يرفضون الخضوع والخنوع، وخرجنا من عاصمتنا المكلومة والموبؤة بالمرض، واتجهنا إلى هذا المكان بين الجبال، نحو عاصمتنا الأولى القديمة بالقرب من هنا، لنكون بعيدين عن الوباء والضواري التي اجتاح عاصمتنا التي انهارت>>.

ضرغام: <<لماذا لم ترحلوا مع أخيك لأصبحتم بعد فترة مملكة تستعيد قوتها... أنت ساهمت بإضعاف مملكة أخيك>>

ربعيل: <<أخي كان يريد الغرباء، ويريد دعمهم، وأن يعيش شعبنا معهم؟ أنا شددت أزر أخي، لكنه كان يميل لأهل الشمال بشدة. فاستغل الأمر للرحيل، وكان سيترك خلفه المصابين والمرضى وكبار السن وهذا أمرٌ لا يمكن القبول به>>.

ضرغام: <<وما المشكلة في كونه يريد الرحيل للشمال وطلب مساعدة الغرباء؟ كان عليك أن تنصحه بأخذهم معه وترحلوا جميعا>>

ربعيل: <<المشكلة لم تكن في أخي، فالغرباء دخلوا أرضنا قبل الزلزال، وعشنا معهم بسلام، لكن شعبنا انقسم بسببهم، فجزء من شعبنا التصق بهم وبقي معهم وترك عبادة آلهتنا وعبد إلههم. حتى أنهم أخذوا معظم معابدنا وحولوها معابد لهم. لقد أهانوا آلهتنا ووصفوها بالحجارة التي لا تنفع، لكنهم استبدلوا حجارتنا بحجارتهم، وآلهتنا بإلهٍ واحد عندهم... هذا أغضب ألهتنا، وقَسّم شعبنا ودبت الخلافات العميقة بيننا. ثم أنهم تزوجوا بناتنا وهذا الأمر كان ضد عقيدتنا>>

ضرغام: <<ومن بقي معكم غير المصابين وكبار السن؟>>

ربعيل: << كنا أقلية، جنود موالين لي، وبعض الكهنة والرجال والأغلبية ممن لم يستطيعوا الرحيل... انقسمنا... وهذا هو سبب دمارنا. لقد غضبت الآلهة علينا، فحدث ما حدث، لكن معظم الجنود والرجال والأصحاء رحلوا مع أخي للشمال، هناك عادات وتقاليد لا تتناسب وعقيدتنا فسرعان ما انغمس فيها أخي ومن رحل معه، أما نحن الذين حافظنا على عاداتنا وتقاليدنا وإيماننا فقد تركنا عاصمتنا للجن، وجئنا إلى حيث عاش آبائنا وأجدادنا نعيدُ لعاصمتنا القديمة الحياة. صحيح نحن كنا مجتمع صغير محافظ ومنغلق، لكن كان يحدونا الأمل بأن نُعيد تكوين مملكتنا مجددًا. مرت سنة... سنتان... ثلاث... مرت عدة سنوات لا أعلم عددها... كانت الحياة تمر، تجري، وليس لنا إلا أن نراقب جريانها. كنا مثل الكثير من الممالك التي كانت حولنا، تستعد للحرب القادمة والتي كانت تدق طبولها بشدة، فتقيم الحصون، وتسعى بكل جهودها أن لا يخترقها سيل الجيوش المدججة بالسلاح... لكنها سقطت واجتاحتها الجيوش بلا صعوبة، وهكذا نحن أيضًا... لا بل ومملكة أخي في الشمال>>.

ضرغام: <<أنتم ماذا فعلتم؟ لماذا لم تقاتلوا؟>>

ربعيل: <<سارت الأمور بعكس ما أردنا... لا الأغراب المحتلين الجدد أهل الشمال تركونا بحالنا ولا أهل الجنوب الذين جاؤوا يحاربوننا أيضًا طرقوا أبوابنا بالسلام. الكل كان يريدُ هذه الصحراء!>>

ضرغام: <<كيف استطعتم حماية أنفسكم وأنتم في هذا الوضع المأساوي؟>>.

ربعيل: <<الجبال كانت تدافع عنا... كنا نقف خلف حُرّاسنا من آلهة الجبال، ونتصدى معهم لغزواتٍ صغيرة، وحروب بلا تخطيط... كانوا يهجمون بلا هدف، ويخسروا ويعودون القهقرى. ثم عاد أهل الجنوب بجيشٍ كبير جرار يسعون للشمال، فلا الجبال صدتهم، ولا التراب منعهم... لا الصحراء أرعبتهم، ولا قلة الماء. كانوا مثلنا أهل صحراء لا يهمهم جوعٌ أو عطش. صلاواتنا وأسلحتنا القليلة لم تصمد أمام زحفهم، ولا حتى أعدائنا الأقوياء في الشمال صمدوا أمام زحفهم المرعب، وأمام هتافاتهم وأصواتهم الهادرة التي تدب الرعب في النفوس الضعيفة. كان جيشهم الضخم جيشًا مغوارًا، لكن كان يقوده في تلك المعارك التجار الذين كانوا يعرفون المسالك والطرق وأماكن الماء والكلأ والنار، كان هؤلاء التجار الذين يقودون القوافل عبر

أراضينا يعرفونها شبرًا شبرًا ولذلك سهل على جيشهم دخول كل هذه البلاد الواسعة وأخذها بأقل الخسائر>>.

ضرغام<<ألم يدافع أهل الشمال عن مناطقهم؟>>

ربعيل:<<حاولوا لكنهم كانوا منهكين من حروبهم هنا وهناك! لقد طرد الجيش الجديد الجيش القديم. لقد تداول على هذه الأراضي ممالك وشعوب وقبائل كثيرة والكل كان يريدها لنفسه. مات خلقٌ كثير بلا سبب وجيه>>.

ضرغام: <<وكأنك تتحدث عن حالها منذ مئة عام خلت! نعم هذا حال منطقتنا منذ قديم الزمان إلى هذا الوقت. من حربٍ إلى حرب ومن احتلال إلى احتلال ومن مصيبة إلى كارثة. أكمل... ماذا حدث لكم؟>>.

ربعيل: <<الكثير من شعبنا في الشمال كان قد بدل دينه، وغير لغته، ونمط حياته، فذابت مملكتنا الشمالية، وما عاد لها وجود، أما نحن في الجنوب فعددنا كان قليل ولم نصمد أمام المد. لقد حلت علينا اللعنات الواحدة تلو الأخرى، من لم يمت منا بالحرب أو الجوع، مات بسبب اللعنات، ومن مات باللعنة، لم يمت ميتةً طبيعية، فلا قبر يحضنه ولا سماء تقبله، وهذا ما حل بي أنا وجنودي. دفن أجسادنا جن، والتصقنا بالجبال التي أخذت

ملامحنا. نحن أسرى هذه الأرض، وهذا المكان بالتحديد حيثُ قتلنا دفاعًا عن أرضنا، ولم نتحرر بعد. الحرية التي كنا ننشدها بالموت في سبيل الحب أصبحت لعنتنا>>.

ضرغام: <<وبقيتم هكذا منذ ذلك الوقت؟>>.

ربعيل: <<نعم... ننتظر من يخلصنا من لعناتنا>>.

ضرغام: <<أنتم تنتظرون المخلص أيضًا؟ الكل يبحث عن هذا المخلص السماوي!>>.

ربعيل: <<لا... لا ننتظر مُخلصًا سماويًا ولا نبيًا. ننتظر بشريًا يساعدنا بالتخلص من اللعنة. ننتظر حيًا بروحٍ سماوية يطلق أرواحنا من سجنها، أرواحنا التي تهيم في هذا المكان ليلاً وتلتصق بالجبال نهارًا، ليرسلنا أحرار>>.

كان ضرغام يستمع لهذا الرجل الغريب الذي جاء يحدثهُ عن أشياء غير معقولة ولا منطقية ولا حتى حقيقية. هل يعقل أن يكون هذا الرجل مجنون؟ مزيف؟ مخادع؟ ساحر؟ مشعوذ؟ ماذا يريدُ من ضرغام؟ لماذا فاتح ضرغام بهذه القصص الأقرب للخيال؟

ملك! أنه يُشبه كثيرًا أولئك المجانين الذين يسرون في شوارعنا يلبسون ثيابًا ملوكية مهلهلة ممزقة، مدعين أنهم ملوك وأنبياء

ومصلحين... ونحن بدورنا كنا نتهم المخابرات بضربهم حتى جنوا!

هل يظن هذا الملك الأبله أنه اصطاد عبدًا جديدًا؟ أم أنه من المعاتيه الذي يظن نفسه ملك من سلالة مقدسة أو نبي أو المهدي أو المخلص أو شيء من هذا القبيل واستطاع بحيلةٍ ما أن يقنع بعض الرجال الذين يحبون هذا النوع من السحر، فاستسلموا وخضعوا لهذا الزيف الذي يتكرر في كل عصرٍ وفي كل حين.

ربعيل : << أنا لا أكذب، ولا أدعي>>.

ضرغام: <<منذ رأيتك وأنت تصنع السحر الواحدة تلو أخرى لكن أعتذر منك قصتك الجميلة تصلح كرواية. رواية وهمية لا أكثر>>.

ربعيل: <<أنا لستُ بساحر أنا ملك. أنا لستُ بمجنون أنا قائد. أنا لستُ بواهم أنا روح مقيدة تريد الحرية>>.

ضرغام: <<وكيف تفسر لي وجودك معي الآن؟ وأكلك وتنفسك وجلوسك وكل الأشياء البشرية فيك وفي رجالك. نعم ذهبوا إلى حيث لا أعلم واختفوا في الغبار، لكن أي ساحرٍ يستطيع أن يفعل ذلك وأكثر! دعني أخبرك أنني رجلٌ فقير لا أملك مالا ولا سلطان. أي استفادة تظن أنك سوف تحصل عليها من خلالي

فأنت لن تحصل على أكثر من رجل يتابع الأحداث فقط... حتى الأحداث ما عادت تهمني>>.

ربعيل: <<أتريد أن تعرف أين رجالي؟>>

ضرغام: <<دخلوا في الغبار واختفوا>>.

ربعيل: <<أنظر لذلك الجبل، وذلك... وذاك>> وأخذ يُشير للجبال.

تأمل ضرغام الجبال! نعم... نعم وجوه الرجال نفسها كأنها نحتت على الجبال.

ضرغام: <<لقد اكتفيت من هذه الخزعبلات، أنا لستُ بمزاجٍ لمزاحٍ ثقيل. أشكرك على كرمك مع أن مزحة الكبدة قد أرعبتني ولا أعلم ماذا أكلت، لكن شكرًا جزيلا. لا أُريد أن أقول أني لا أصدقك لكن أنا لا أُومن بالمعجزات. أنا رجل واقعي ولا أُحب السحر. أنا أعشق الروايات وكل ما دار بيننا يصلح ليكون رواية فقط لا أكثر، والآن أصبحت روايتك مزعجة>>.

ربعيل: <<ليست معجزات وليست مُزاحًا. أعلم أن هذا كثير عليك وأن تقبله أمر غير سهل وغير ممكن، لكن حاولت أن أشرح لك ماذا حدث لنا علك تساعدنا، لكن لا يهم. المهم أنك أكلت وشبعت وصدقني هي كبد ناقة ولا ضير فيها وأطلقت أرواح حرة

كانت مُقيدة، وأرجو أن يبقى ما قلته سرًا بيننا إلى أن نجد قلبًا وروحًا طيبة لإنسانٍ آخر يساعدنا. سأتركك لوحدك الآن. لكن أترى ذلك الجبل... الذي تتأمله كلما جلست هنا>>.

ضرغام: <<نعم، لكن أين ذهب الوجه الذي عليه؟>>.

ربعيل: <<أنه وجهي... أنا من يلتصق بذلك الجبل. وكلما نظرت للجبل ستراني. وقبل أن ترحل من هنا أرجوك أنظر إلي وودعني بحب>>.

هَمَّ ربعيل بالوقوف فوضع ضرغام يده على كتفه ونظر إليه

ضرغام: <<قبل أن تذهب. لماذا أنا بالتحديد؟>>.

ربعيل: <<لأنك نقي.. لأنك أبيض.. لأنك تملك قلبًا وروحًا طيبة وهذا ما نحتاجه. لقد أخبرتك بذلك. أنت أبيض من الداخل ونقي... ولأنه تصدر منك طاقة لا يشعر بها إلا الطيبين. لن أخبرك بالمزيد لكنك ستكتشف أنني أقول الحقيقة. سأذهب ولن أعود إليك إلا إذا استدعيتني أنت وأقصد أنت أي بروحك.>>

وقف وهم بالرحيل وقد اقتربت منه زوبعة غبار...

التف لضرغام وقال: <<اعتن بروحك جيدًا ولا تقسْ على قلبك، لأنهما وردتان تذبلان بالحزن. مهما حاولت أن تسكت

قلبك فلن يصمت. استمع جيدًا لما يهمس به قلبك ولن تندم.

ليباركك الرب الإله الذي تعبده>>

واختفى

# الفصل الثامن

ضرغام لا يؤمن بالسحر ولا بالشعوذة ولا يعترف بوجود الجن ولا باللعنات. إيمانه خفيف لكنه مؤمن. نعم هو يعلم أن الجن والأرواح سواء أكانت طيبة أم شريرة موجودة، وذكرت في الكتب المقدسة جميعها، لكن لم يكن ضرغام ذلك المؤمن المُصدق لكل شيء. كان الشك يأكله في كثيرٍ من أفكاره، كان دومًا يقول: «آمن بما تشاء وأنا أومن بما أشاء» فكان الإيمان بالنسبة له قائمٌ على المحسوس والملموس فقط. لم يكن ضرغام يؤمن بالحب أيضًا لأنه غير ملموس المعالم، غير أنه استيقظ ذات يوم على وجعٍ شديد في الجانب الأيسر للحب... وقتها أخبره قلبه أن الحب موجود وإن كان غير محسوس.

كان الفضول ينهش ضمير ضرغام وهو يتأمل ذلك الجبل. كان يقول في نفسه « نعم نفس الوجه والجسد... نعم تضخم جدًا لكن ماذا حدث يا تُرى؟

ما هذه اللعنة التي حلت عليهم فيظهرون في الليل كأرواحٍ هائمة

تبحث عن حريتها ولا تجدها، تبحث عمن يحررها ولا تجده، ثم ما أن يحل الفجر يعودوا للالتصاق بالجبال، بعضهم بحجمه الطبيعي وشكله وهيئته قبل الموت، وبعضهم لعنته كبيرة فيتضخم جدًا بحجم جبل يلتصق به أو يحمله على كتفيه. ما هذه اللعنة التي أصابتهم منذ قرون؟ ولكنها تتحول ليلا للعنة من نوعٍ آخر، فيأخذون أجسادًا بشرية دون القدرة على الحواس فقط ليهيموا في المكان، ويتذوقوا صنوف العذاب، وهم يرون الأغراب يدوسون أرضهم ويعبثون بآثارهم وآلهتهم الباقية في المكان. يرون بأعينهم كيف يزيد الخراب على الخراب، وكيف يطأ ويدوس السياح والزوار مقدساتهم بأحذيتهم القذرة، ويلقون في قصورهم ومعابدهم قذوراتهم، وكيف يتحدثون عن هذه الحضارة التي أُبيدت عن بكرة أبيها بما لا يفقهون.

ماذا حدث يا ترى؟ كيف التصقوا بالحجارة؟ كيف أصبحوا جزءًا من الجبال؟ ما هذه اللعنة التي حلت عليهم؟ أيعقل أن ربعيل يقول الحقيقة؟»

وضع يده اليسرى على خده متأملا الجبل البعيد...

«لا يمكن لإنسانٍ طبيعي حتى لو كان ساحرًا أن يزيد حبات الكبدة... يُعيد الخبز كرغيف صامد غير مقسوم... يدخل في

زوبعة غبار ويختفي فيها أو يخرج منها وكأنه يدخل ويخرج من باب غرفة! ثم أن يلتصق بالجبال! ويتضخم لحجم الجبل! يستحيل. الأمر مرعب ومخيف، لكنه غير منطقي، لكن... حتى الأمور المنطقية في هذه الحياة لا تُفهم، لا تُستوعب، لدرجة أننا أصبحنا نشكك في المُسَلَّمات. كيف إذا نتفهم الأمور غير الطبيعية؟»

كان ضرغام يرغب في استدعاء ربعيل لكن روح العناد وعدم الإنكسار كانت شديدة عنده.

طأطأ رأسه لأسفل وأدخل أصابع يده اليمنى بين شعر رأسه يُعيده للخلف، ثم وشبك أصابع يديه معًا ورمى رأسه على تلة الأصابع ناظرًا للجبل الذي يبعدُ كثيرًا... يتأمل ذلك الجبل الضخم، وربعيل فاغرًا فاه جالسًا على العرش... وأي عرشٍ هذا وأي مملكة!

«لماذا أنا؟ أنا لا أُصدق أنني أملك قلبًا وروحًا طيبة! أنا إنسانٌ طبيعي، لا بل لا بد أن أُناس كثر أكثر طيبة ونقاء مني مروا من هنا قبلي؟... لقد لقَبَني بالأبيض أيضًا! مُجددًا يراني أحدهم غبيٌ آخر! وها أنا الأبيض الغبي المتأخر في هذه الزيارة مئات السنوات. وهذه الأرواح الهائمة تبحثُ عمن يُطلقها. هذا السبب

جعل ربعيل يختارني وسط الأكوام الكثيرة من البشر الغرباء التي تدوس أرضه ومملكته يوميًا! لكن رغم كل تساؤلاتي، لماذا أنا؟ ما المميز بشخص متأخر في كل شيء؟ لا شيء.

أيعقل بقاء هؤلاء المساكين عالقين في هذا المكان طوال هذه المدة؟ أيعقل أن لا أحد مر من هاهنا ينفع لتحريرهم؟ طوال هذه المدة وهم ينتظرون شخص ما يحررهم ولم يمر! ثم أيعقل أن أكون أنا الحل وأتركهم هكذا دون مساعدة؟ وما هي المساعدة التي يرجونها من شخص مثلي؟

أنا لا أملك القوة ولا الجراءة ولا التحدي ولا روح المبادرة... فعليًا أنا إنسان ضعيف. لكن كيف أُخبره بضعفي؟

لا أملك أي شيء لأقدمه لهم! ثم ماذا يمكن أن نقدم لأرواح هائمة في الغبار؟ إضاءة شمعة؟ إشعال بخور؟ دعاء؟ ماذا عساي أن أفعل لأحرر هؤلاء؟»

قام من السد وأخذ يسير للأمام وينظر للجبال عن يمينه ويساره «ماذا فعل هؤلاء المساكين لكي يتعرضوا لهذه اللعنة؟»

شعر بالحر الشديد فعاد راكضًا للسد. جلس القرفصاء ووضع رأسه بين كفيه يسندان ذقنه، وعاد سريعًا للتفكير:

«ما السر العظيم وراء اختفاء شعب كامل وانهيار مملكتهم؟ ما

الذي يجمعنا نحن الأحياء بهؤلاء الموتى؟ نحن الآن على الأرض. لنا فمٌ نأكل فيه و رؤوس فوق أعناقنا فيها أدمغة يفترض أن نستخدمها للتفكير مليًا، ولنا أيدي وأقدام تساعدنا على القيام بكل ما نريد، والأهم أن لنا قلوب تنبض بالحب أو الكراهية. هكذا نحن البشر! أما هؤلاء الموتى ما هم إلا مجرد أجساد فارقت أرواحها، أصبحت عارية... بقايا عظمية دفنت منذ مدة طويلة في أماكن مهجورة، وكثيرٌ منهم فقد راحته وتم نبش قبره والعبث بعظامه بحثًا عن كنزٍ أو مقتنيات ثمينة، أما الأرواح فلم تجد طريقها نحو المستقر. لم تسكن تلك الأرواح لا في الجنة ولا في النار، هائمة ضائعة في هذا المكان على البسيطة، مُقيدة، تجلدها الذكريات. تحوم حول اللامكان في اللازمان، تبحث عن شيء ما يُريحها. لقد قضّت مضاجعها حوافر بشرٍ متوحشين أتوا إلى هذا المكان بحثًا عن مغامرةٍ ما».

كانت الجبال تموج مع السراب...

«لعلهم أكثر حرية مني...

لقد بنيت جدارًا من مدماكين[1] حول نفسي لأحميها من ذلك العدو الذي يحيط بي، لكنه كان يخترق المدماكين بسهولة،

1) المِدْماكُ : الصفُّ من البناء

فرفعت المدماكين إلى سور ثم تحول السور إلى حصن، ثم أصبح الحصن قلعة، ثم تحولت القلعة إلى سجن. أنا في الداخل والكل في الخارج. أسمعهم ولا يسمعونني ومن شدة صراخي ما عُدتُ اسمعهم ولا يسمعونني. هذا أنا حبست نفسي داخل الجدران حتى أحمي ذاتي من كل شيء، ولكن ما حدث هو أنني أُصاب كل يوم من الذين بنيتُ سجني لأحمي نفسي منهم، وهائنذا لا أستطيع الفكاك من سجني، لا أستطيع الهروب لا أستطيع التحرر لا أستطيع الخروج ولا أحد يستطيع الدخول. لا أحد يدخل ولا أحد يخرج. كان بيني وبين العالم مدماكان، ثم أصبحا سورًا، ثم حصنًا، ثم قلعةً، ثم سجنًا، ويومًا ما قبرًا... فكيف أستطيع مساعدة هؤلاء؟

أنا الذي احتاج إلى المساعدة... وليسوا هم! لكن لا بشر يقدم لي المساعدة، ولا حتى واحد...لقد أخرجتهم من حياتي... أم هم خرجوا منها بإرادتهم؟

إن الله يسمح بخروج بشرٍ من حياتنا، حتى لا نغدو أكثر يأسًا وحزنًا وفشلا... أو لعله لسبب لا نفهمه، وعلينا أن نقبل بخروج هؤلاء البشر من حياتنا، فقد نشعر بعد حزنٍ عارم أن خروجهم كان لتتحرر قلوبنا وأجسادنا وأكتافنا من أحمالٍ وأثقالٍ ضخمة

كنا نرزح تحت ثقلها.

أما هؤلاء المساكين فيطلبون مساعدتي!

لقد اختاروني أنا... وأنا لنا أخذلهم

سأساعدهم... أسمعتني يا ربعيل: «سأساعدك»

لم يكن ضرغام يؤمن بلعنة! هو رجلٌ عاطفي لكنه واقعي أيضًا...

لكن ربعيل جعله يشك بالواقع، كل الواقع. أشعل فيه تلك الروح الإنسانية التي تهب للمساعدة، وأيقظ فيها حب الناس مجددًا بعد أن أصابتها البلادة.

# الفصل التاسع

في الليل، كان المخيم شبه فارغ، ورواده القلة نيامٌ في خيامهم، والنور مطفئ، بحكم أن الساعة تجاوزت موعد استخدام الكهرباء. أصوات الشخير تُسمع مع أصوات الكلاب والذئاب البعيدة. وكان ضرغام وحيدًا في السد، وبرد ليل الصحراء يقرصه، فيراقص جسده. قرر ضرغام أن يذهب للنوم، لكن لاحظ رغم العتمة أن زوبعة غبار بدأت تتشكل من بعيد وتتقدم نحوه ببطء، ما أن وصلت للسد حتى خرج منها ربعيل.

عبر ربعيل عن امتنانه لضرغام، لكن ما نفع الامتنان والنية الحسنة والأمر قد قُضي منذ قرون؟

ضرغام: <<كيف سنصلح الأمر؟ هل يمكننا فعليًا إصلاح الأمر؟ التاريخ لن يعود للوراء، الوقت لا يمكن تعويضه، ومن مات لن يعود للحياة>>.

ربعيل: <<ما زلت تفكر في الواقع وحدود الحياة>>.

ضرغام: <<هل يمكن أن تتحول الأحلام والأوهام والمستحيل

لحقيقة! لا يمكن>>

ربعيل: <<نحنُ لا نطلب المستحيل. نحن نريد فقط أن ترتاح أرواحنا الهائمة في هذا الفراغ الكبير. أن نتحرر من سجن الجبال. قبورنا قد نُبشت، وبقايانا أذرتها الريح، وسامحنا من فعلها... نحنُ لن نعود للحياة، ولا نريد لمملكتنا العودة لمجدها... مملكتنا لن تعود، كل ما نريده حرية! نريدُ أن نتحرر وننطلق للسماء>>.

ضرغام: <<هكذا يمكن القول أن الحلم حقيقة، وأن الوهم واقع. لكن أين حدث الخطأ؟ ما الذي حدث؟ هل الأمر يتعلق بسحر أم بشعوذة؟ هل يمكن حل الطلاسم إن كان الأمر يتعلق بطلاسم؟ وهل يمكنني أنا البشري الحي معرفتها أم أنتم الأرواح الهائمة في الأرض يمكنكم حلها؟>>.

ربعيل: <<نحتاج بعضنا بعضًا، فالحيُ قد يُصلح طريق الموتى في مسيرهم نحو السماء بصلاته، أن يعمل على صيانة دربهم، والموتى يُمهدون الطرق الوعرة بعد الموت لأحبائهم الأحياء. هكذا نستفيد من بعضنا. الطرق التي سلكناها ستسلكونها>>.

ضرغام: <<رغم أنني لم أفهم، لكن كُلّي آذان صاغية>>

كان كمن يرقص من شدة البرد، فاقترح ضرغام أن يذهبوا

إلى وسط الساحة حيث الجمر ما زال مشتعلا ويبعثُ شيئًا من الحرارة. جلس ضرغام على الأرض قريبًا من الحفرة حيث يشتعل الجمر وإبريق الشاي قريب منه وظهر رجال ربعيل من الفراغ يحيطون به.

ربعيل: <<أما زلت تشعرُ بالبرد؟>>

ضرغام: <<نعم! لكن رجالك يحيطون بي الآن وأشعر بحرارة تنبعثُ منهم، وكأن البرد اختفى! >>

كان يتسأل في نفسه «كيف يُعقل أن تُعطي أرواح هؤلاء الموتى حرارة؟»

ربعيل: <<أنهم طيبون يبعثون في الطيبين أمثالهم حرارة الحب والإيمان>>

ضرغام: << نعم أشعر بذلك، مع أنهم لا يملكون أجسادًا>>

ندم على جملته. إنها غير مناسبة، خرجت بشكل سيء وكأنه يتنمر عليهم.

ربعيل: <<لا عليك. لا نشعر بأي تنمر. ثم نعم أنك صادق لا نملك أجسادًا حية ولا تسري في عروقنا دماء، لكن تسري في جوفنا حرارة الحب والإيمان، هذه الحرارة التي يفتقر لها أبناء جنسك، أبناء الحياة الفانية. نحن تركنا أجسادنا الفانية

ولكننا ما زلنا نملك الحياة بمعناها المجازي، حياة الحب وروح الإنسانية، حياة الأرواح المتعبة... المتعبة من سرقة أجسادنا وسرقة حياتنا ونهب ممتلكاتنا الأرضية وتشريدنا وتشتيت قومنا>>

ضرغام: <<الأرضُ ملك البشرية قوم يأتون وقوم يذهبون>>

ربعيل: <<أنتم تملكون الأرض الآن ونحن نملك روح المكان، وقد لا نستطيع السيطرة ولكننا نملك السطوة، أنتم تمتلكون المال والقوة ونحن نملك الحب والحق، أنتم تمتلكون المادة ونحن نملك الروح، أنتم تعيثون في الأرض فسادًا وخصوصًا هنا، ونحن نُحيي المكان ونلتصق به، فلا المكان يكرهنا ولا الحيوانات ولا النبات على ندرته>>

ضرغام: <<كل ما قلته عن البشرية صحيح وحدث منذ بداية الحياة، لكن أنا ما ذنبي؟ أنا بشر ولا أملك شيئًا ممّا قلته. أنا لا أُعيثُ فسادًا على الأرض... حتى أنني لا أظن بأن وجود البشر في الأرض فسادًا. اللّه خلقنا لسبب ما، لكن معظم البشر أفسدوا الحياة والأرض بسبب أفعالهم. أنا لم أفعل شيئًا لأفسد في الأرض>>.

ربعيل: <<ولهذا اخترناك أنت لتساعدنا وليس غيرك. مر من

هاهنا عدد لا يحصى من البشر. المكان يمتلئ بهم. يكاد لا يمر يوم دون أن نراهم>>.

ضرغام: <<أنا رجلٌ بسيط لا أصلح للمساعدة!>>.

ربعيل: << أنت المطلوب>>.

ضرغام: <<تنمرٌ من نوع آخر! يبدو أن هناك علامة ما على جبهتي تخبر الناس أن هذا الإنسان يَصلحُ للتنمر عليه>>.

ربعيل: <<بل أنت طيب وحقيقي. وعلى أبناء شعبك أن يعترفوا أنك تملك قلبًا أنقى وأطهر من قلوبهم. أنت رجلٌ طيب. نحن نحتاجك>>.

ضرغام: <<الطيبون أمثالي يعتزلون الناس، لان الناس لا تفهمنا. الناس تتنمر علينا>>.

ربعيل: <<البشر هكذا. إنها حقيقة. لكن على الناس أن تعترف بوجود الطيبين>>.

ضرغام: <<الطيبون لا يحتاجون صك اعتراف بوجودهم. أنهم طيبون بما يكفي ليصدقوا أن العالم يقبلهم بابتسامة ماكرة، فاليد اليسرى تمتد للسلام، وفي الأخرى خنجر يخفيه ظهر هذا العالم لنا. إنها المرة الوحيدة التي يقابلنا فيها هذا العالم وجهًا لوجه، فغالبًا هو يدير ظهره لنا... نحن نرى ظهره فقط، إلا

في هذه الحالة بالتحديد، نرى العالم على حقيقته، نرى وجهه الحقيقي المزيف والمقنع، ولأننا سُذّج فإننا نبتسم ونمد يدنا للسلام، ونحن نعلم أن هذا العالم يُخفي لنا شيئًا ما سيء خلف ظهره المقوس. نعم رأينا ما يُخفي العالم في جعبته لنا>>.

ربعيل: <<هذا نفس الخنجر الذي غُرس فينا بالأمس، وقتلنا وشرد أبناء شعبنا... لذا يحتاجُ الضحايا بعضهم بعضًا لتصلح الحياة لهم>>.

ضرغام: <<وما طبيعة المساعدة التي يمكنني تقديمها لكم؟ أنا شخص ضعيف، ناعم اليدين، قليل الحيلة، خواف، بسيط المظهر، قليل الخبرة، لا أملك قوة جسدية كبيرة لأفعل شيئًا، عليك أن تخفف توقعاتك عني، عليك أن تنتظر الخيبات لئلا تنصدم بالواقع، هائنذا أخبرك حقيقتي وكأنني أنا من يتنمر على نفسي، لكنها الحقيقة>>.

ربعيل: <<لا نريد رجل قوي الجسد وخشن الطبع. لا نريد رجل قوي البنية شديد البأس. نريد رجل نظيف القلب نقي السريرة بسيط المعشر، يملك جسد ليساعدنا على ما لا نستطيع نحن فعله أو لمسه أو الشعور به. لكن الأهم هو القلب. لذلك أنت المختار>>.

ضرغام: <<قلبي ضعيف>>

ربعيل: <<قلبك مناسب... لانحتاج القلب فقط، بل نحتاج الحب. يعبر عن الحب دائما بشكل قلب، لكن يمكننا أن نعبر عن الحب بشكل كتف ترمي رأسك عليه، صدر تضع رأسك أيضًا عليه، حضن تستدفئ فيه، ظهر تستند عليه، الحب لا يمكن اختصاره بقلب. صدقني بعد أن تنجح مهمتنا ستعلم أن قلبك ليس ضعيفًا كما تظن، بل هو قلب رجل شجاع>>.

ضرغام: <<حسنًا أنا جاهز، ماذا يمكنني أن أفعل؟>>.

ربعيل: <<نريدُ اليوم أن نبحث عن إبنتي التي اختفت، نُريد أن نحررها>>.

ضرغام: <<وكيف نبحثُ عن فتاة ماتت قبل ألفي عام أو أقل؟>>.

ربعيل: <<نبحثُ عن روحها الهائمة في الغياب مثلنا. في عالمٍ موازٍ لا يمكننا اختراقه، ولا يمكنها بسبب ذلك أن تصل للجنة، ولا يمكنها أن تتحرر إلا بمساعدتنا>>.

ضرغام: <<ماذا حدث لها؟ لماذا لا يمكنكم الوصول إليها اذا كانت روحًا غائبة هائمة مثلكم>>.

ربعيل: <<سأخبرك ماذا حدث. اسمها غزالة. فتاة طيبة

جدًا وجميلة جدًا، دائمة الإبتسامة، رقيقة، لطيفة، كيف أصفها لك؟ أنها وردة تتفتح كل نهار، طويلة القامة ذات جِيدٍ[1] طويل، عنقها يرتفع للسماء دون أفراط، وجه ملائكي يشع نورًا أحمر من خجلها، وجه يبعث فيك روح الحنان والألفة، لكنه وجه مرهق. عينان سودوتان واسعتان ورموش طويلة سوداء كأنها مكحلة بكحل رباني، أنف دقيق متناسق، شفتان تمتلئان بالتسبيح والصلاة، فتاة جميلة نحيلة من تعب الرعي... الرعي الذي سلبها طفولتها وأرهقها وهي طفلة يافعة يانعة كحال كل فتيات مملكتنا. كانت لا تجد الوقت لتعتني بنفسها لأنها تعتني بي وبقطيعي من الغنم والماعز والإبل. لكنها جميلة جمالا رباني دون تكلف أو زيادة أو نقصان. عندما تنظر في عينيها سترى التعب والحياء والحياة والنور، وكأن هذا النور يخترقك فتصغي بخشوعٍ لحديثها كأنها كاهنة، أو خادمة للآلهة، تصغي لها بتركيز وتأمل. لا بد أن تشعر بطاقةٍ وحياة تخرج منها في كل كلمة فتُعلمك الصمود وسط كل الصعاب التي عاناها شعبنا>>.

ضرغام: <<إنها صفات نبية وليست صفة فتاة عادية. لماذا اختفى من عصرنا دور هؤلاء؟>>.

1) غجِيد المرأة عنقها، وهي من الصفات الحسنة والمحببة

ربعيل: <<عالمكم عالم سريع، وعالمنا عالم سار حسب نواميس الطبيعة. عالمكم عالم مادي بحت، وعالمنا عالم يهتم بالمادة وبالفكر والروح، عالمكم يعيش فيه القوي على الضعيف ،فالضعيف لازم الوجود ليعيش القوي، أما عالمنا كان فيه القوي والضعيف، لأن وجودهما أمر طبيعي، وتسير فيه الحياة بشكل طبيعي>>

ضرغام: <<صدقني عالمكم لم يكن مثاليًا، كانت فيه صراعات وحروب دموية والقوي يأكل الضعيف تمامًا مثل عالمنا>>.

ربعيل: <<ركزت كتب التاريخ التي تعلمونها لأولادكم على الملوك والحروب، وتجاهلت كل ما سواه>>

ضرغام: <<لن أجادلك... لكن ماذا حدث لها؟>>

ربعيل: <<كانت إبنتي ترعى القطيع، فكل يوم تذهب باكرًا مع طلوع الفجر خارج قريتنا إلى الغابة القريبة وسفوح الجبال، عندما كانت هذه الأراضي خضراء وكثيرة الماء، قبل أن يحول وحوش الأرض هذه المنطقة لأراضٍ جرداء قاحلة. كانت تبقى هناك حتى ساعات المساء، فتعود هي والقطيع أول الليل فتضع القطيع في حضيرتها في الكهف السفلي لبيتنا. كانت كل صباح تُقبلني وتُحضّر الطعام لي ولجنودي ثم تأخذ زوادتها القليلة

والقطيع القليل المتبقي لي من الكهف، وتذهب نحو المراعي. كانت تعود كل ليلة تعبة ومرهقة، ومع ذلك تُحضّر لنا طعام العشاء، ثم تخلد للنوم بين قدمي. كانت كل حياتي وأمل مملكتي الضائعة. كُنت أرغب بتزويجها من رجلٍ قوي ومحارب شديد ليصبح الملك على شعبي من بعدي، كنت أريدهما أن يقودا ما تبقى من شعبي لتعود مملكتنا بقوة وشجاعة، كنت أعلمها الحساب واللغة والكتابة وأصول ديني وعبادة آلهتنا وفنون القتال، أدربها لتكون كاهنة وملكة قديرة وحاكمة صالحة وأم عظيمة لأبنائها ولشعبها. ثم في إحدى الأيام خرجت كعادتها بعد أن اطمئنت على راحتي وسلامتي وذهبت لنفس المكان الذي ترعى فيه كل يوم، وفي المساء عاد القطيع لوحده، وهي لم تعد. امتلئت بالرعب ودب الخوف في أوصالي على بنيتي وحيدتي، فقد كان الأعداء أهل الجنوب قريبون جدًا، فظننا أنهم تمكنوا منها، وخطفوها وأخذوها أسيرة لديهم، لقد كنا نسمع أن هؤلاء الهمج يأخذون الفتيات سبايا بينما يقتلون الرجال، فأخذنا أنا ورجال قبيلتنا ما نملك من سيوف ونبال واتجهنا للحقل القريب، نعم كنا قلة وقد يتمكن منا قلة من جنود الأعداء، لكن الخوف على أميرتنا جعلنا مصممين على تحريرها أو الموت دفاعًا عن

شرفنا. وصلنا إلى الحقل وكان الحقل فارغًا موحشًا تلك الليلة، فلا أثر لعدوٍ أو صديق، كان الحقل خاشعًا على غيرعادة، صامتًا ما عدا صوت الكلاب والذئاب البعيدة، باردًا مُقفرًا ووحيدًا>>.

ضرغام: <<تمامًا كما هذه الليلة>>.

ربعيل: <<نعم إنها ليلة تشبه تلك الليلة بكل تفاصيلها. أخذنا نبحث عنها بلا ملل ولا كلل، حتى رأى أحدنا قطعة من ثوبها المطرز يبرز من شق صغير في جبلٍ يمتلئ باللعنات>>.

ضرغام: <<آه. أنه طور[1] الجميلة. لقد أخبرونا هذه القصة. لقد أخبرنا السكان المحليين عن إختفاء الفتاة بطريقة سحرية في الجبل>>

ربعيل: <<نعم يسمونه الآن طور الجميلة>>.

ضرغام:<<لقد أخبرونا أن فتاة راعية اختفت منذ مئتي عام أو أكثر قليلا، لم يخبرونا أن الحدث يعود لفترتكم>>.

ربعيل: <<لا. إنها بنيتي، أميرتي. لكن الناس تتداول القصص على مر العصور فيخطئون في التواريخ والأماكن ويزيدون في الأحداث أو ينقصوا منها، والبعض يظنها قصص حديثة وأخرون أسطورة، لكنها إبنتي واختفت قبلنا بقليل>>.

1) الطور في اللغة :جبلٌ يُنبِتُ الشجَرَ

ضرغام:<<يؤسفني يا سيدي أن أخبرك أنه سواء كانت أسطورة حديثة أو أسطورة قديمة فإن لا أحد يبقى على قيد الحياة طوال تلك المدة. لا أعلم كيف سنساعد فتاة اختفت ولا أحد يعرف عنها شيئًا>>.

ربعيل: <<نعم أعلم ذلك، ولكن حتى تتحرر أرواحنا لا بد لنا أن نكشف الحقيقة. حقيقة اختفائها وما يتبعها من أمور تتعلق بابنتي وتمنعها من التحرر... اذا استطعنا كشف هذا السر ستتحرر أرواحنا>>.

ضرغام: <<طوال هذه المدة تنتظرون قدومي لأكتشف الأسرار!>>.

ربعيل: <<حاولنا أن نجد الإنسان المناسب... ولم نجد>>.

ضرغام: <<حسنًا... وماذا بعد... ماذا فعلتم بعد أن وجدتم جزء من ثوبها يبرز من الشق الصغير؟>>

ربعيل:<<لم نستطع أن نحل سر اختفائها في تلك الليلة، ولم تعد أميرتنا لنا، كانت صدمتنا شديدة جدًا فهي الأمل الوحيد لبقاء مملكتنا واستمرارها، كانت آخر النسل الملكي، من دونها ستحل اللعنة على المملكة بمجرد موتي، وهذا ما حدث>>.

ضرغام:<<اذا ما أنتم عليه الآن يعود سببه لإختفاء الأميرة

التي كانت أمل مملكتكم الوحيد بالبقاء. النسل الملكي الذي يجب أن يستمر لتستمر به كل حياة المملكة>>.

ربعيل: <<نعم. لقد أقمنا لها طقوس الوفاء ولكن شيء ما لا زال عالقًا في قصتها جعل كل الأمور عالقة. ولأن روح ابنتي عالقة ولم تستطع أن تتحرر فنحن وجميع قبيلتي عالقون أيضًا، ولتتحرر أرواحنا لا بد أن تتحرر كل الأرواح التي تربطنا، كل الأرواح التي خُطفت عنوة واختفت. طقوسنا لم تحرر روحها لأننا لا نعرف سبب بقاءها في ذلك المكان الباهت معدوم الألوان... لذا لا بد أنها تنتظر من يحرر روحها>>.

ضرغام: <<وأنا من سيحررها؟>>

ربعيل: <<نعم، أنت>>

ضرغام: <<كيف سأحرر روحها وأنا شخصيًا لا أعرف كيف أتحرر من قيودي؟>>

ربعيل: <<أنت بقدراتك الجسدية وحبك وطيبتك، ونحن بطقوسنا ومعرفة سرها... سنحررها معًا. أما روحك فأعدك أنك لن تبقى ضرغام نفسه بعد أن تعرف كل شيء>>.

ضرغام: <<حسنًا سنرى. لكن أُريد أن أقارن روايتكم بالرواية التي سمعناها من السكان هنا. أنت لم تخبرني شيئًا عمّا

وجدتموه>>.

ربعيل: <<بعض ما سمعته من السكان هنا صحيح>>

ضرغام: <<قيل لنا أنها وهي ترعى فُتِحَ الجبل وأنشق إلى نصفين، وأن الرعب دب في نفسها، لكنها شاهدت إحدى سخلاتها تدخل إلى جوف الجبل عبر الشق، فنادت عليها، فخرجت السخلة وهي تحمل حول عنقها عِقدًا جميلا وضخمًا من الذهب، وفي فمها قطعة من المجوهرات الثمينة، التي رمتها أرضًا وبدأت تثاغي، فاقتربت الأميرة من السخلة التي بقيت على الباب ورأت العقد والجوهرة، فاقتربت من الباب فرأت كنزًا ضخمًا يشع من شدة النور جعل المغارة كلها كأنها غرفة مضاءة، فدخلت الأميرة للشق مندهشة مما رأته، فطوت أسفل ثوبها الطويل المزركش ووضعت فيه كمية من الذهب والمجوهرات ما استطاع ثوبها وجسدها النحيل حمله وخرجت مثقلة إلى خارج الشق ورمت ما في ثوبها من كنوز على الأرض، ثم عادت ثانية إلى داخل الجبل وفعلت مثلها مجددًا ولكن بكمية أكبر أثقلت حركتها أكثر وخرجت بصعوبة إلى الخارج ورمت الكمية الثانية بالقرب من الكمية الأولى ثم عادت مجددًا وفي هذه المرة الثالثة بينما كانت تنوي العودة لأخذ كمية أخرى من الكنز بدأ الجبل بالإهتزاز

والتحرك وأخذ الشق يضيق وبدل أن تخرج الأميرة وتنجو بحياتها أخذت كمية أكبر من المرتين السابقتين لدرجةٍ أصبح حملها ثقيل جدًا فأبطئ حركتها كثيرًا وعندما أوشكت الوصول للشق كان الجبل يكاد ينطبق عليها فحاولت أن تسرع فرمت الكنز الذي في جعبتها قبيل وصولها للباب، ولكن الجبل أطبق عليها، وبقي جزء من ثوبها المزركش يتدلى للخارج. أليس هذا صحيحًا>>.

ربعيل: <<جزء من هذا الكلام صحيح والباقي مختلق>>

ضرغام: <<إبنتك بقيت في الداخل ولم تخرج هذا هو الجزء الصحيح>>

ربعيل: <<نوعًا ما>>

أخذت الدموع تنهمر من عيني ربعيل وجنوده...

نظر ضرغام للأرض متحسرًا على صديقه وهو يفكر: «هل تبكي الأرواح؟ هل تملك شعور يشبه شعور الأحياء؟ هل ينتابها الحزن؟ هل يؤلمها الفراق؟ هل تفكر في من تحب؟»

ربعيل: <<نعم ولمَ لا؟ أحيانًا نبكي دون دموع، والأحياء كذلك>>.

ضرغام مفكرًا: «نعم في الكثير من الأحيان أرواحنا هي من تبكي،

وليس عيوننا. لماذا نستنكر بكاء أرواح الموتى؟

ألم يقل الكتاب أن أرواح قاطني جهنم يبكون؟ «هناك البكاء وصرير الأسنان».

ألم يصف دانتي أليغيري في ملحمته الشهيرة الكوميديا الإلهية من شاهدهم من سكان جهنم يبكون ويتألمون ويعانون، وعبروا عن معاناتهم بالقول والفعل.

ورغم أنني أشك أن هذه الأرواح الطيبة يمكن أن تقطن جهنم، لكنهم يبكون أيضًا ويملكون مثلنا مشاعر وأحاسيس!

بعد دموع إنهارت كأنها شلالات وصمتٍ وجيز... تماسك ربعيل بصعوبة فصمت جنوده أيضًا... وطلب من ضرغام أن يكمل.

ضرغام: <<قيل لنا أن أهل الفتاة وقبيلتها جاؤوا ومعهم بنادقهم وسلاحهم وعندما رأوا الذهب أسفل الطور وجزء من ثوب الفتاة يخرج من الشق حاولوا أن يفتحوا الشق بكل الطرق والوسائل حتى بإطلاق الرصاص على هذا الجبل ولكنهم لم يفلحوا في فتح الشق. ثم قال أحدهم أن الذهب الذي وجدوه يحرسه جن وأن الجن أخذ الفتاة كعروس وأن الذهب ما كان إلا صداق[1] الفتاة، فآمنوا بأن الأمر خارج عن إرادتهم وقدراتهم

1) مَهْر المرأة؛ ما يُعطَى للزَّوجة من المال شرعًا

فأقاموا للفتاة عرس في المكان ووضعوا الحناء على أيديهم ثم طبعوا أكفهم وأصابع أيديهم على الجبل، وأخذوا الذهب وما بقي من ثوب الفتاة ورحلوا بعد أيام عن المكان كله>>.

ربعيل: <<وهل تصدق هذه الأحداث؟>>

ضرغام: <<أنا لا أومن بالأساطير كما أخبرتك سابقًا. توقعت حينما سمعتها أنها قصة تراثية لأهل المنطقة، وأن آثار الأصابع الملونة على الطور ما هي إلا مزيج طبيعي من لون المعادن التي يحتويها الصخر والتي تمتاز بها كل المنطقة، ولكن الأبله وطلابه فُتنوا بهذه القصة الشعبية وأخذوا يتحدثون بها لكل زائري المخيم وجروا البعض منهم للموقع، وأعتقد أنهم سيستخدمونها كأسطورة من التراث الشعبي والرواية الشعبية في عملنا. لكن عندما أخبرتني أنها ابنتك تداخلت الأمور عندي. لا أعرف أين الحقيقة وأين الأسطورة بهذا الأمر كله>>.

ربعيل: <<لا يهم. لكن جزء من الأحداث حقيقي وجزء آخر من الأحداث مختلق، والمختلق لا أساس له من الصحة لكنه امتزج بالحقيقة فما عاد أحد يظن أنها أحداث حقيقية>>.

ضرغام: <<معظم التاريخ بُني على حدث بسيط امتزجت فيه الكثير من التفاصيل المختلقة. الكذب الذي جعل معظم الناس

تؤمن بأحداث وهمية بل وتنكر الحقيقة في الحدث ككل>>.

ربعيل: <<الكثير من الأساطير عنا نسجها الغزاة وتناقلوها حتى اختفت حقيقتنا وبقيت الأساطير عنا. نجحوا بإخفاء حقيقتنا وتراثنا ولغتنا وإيماننا ووجودنا وتركوا فقط آثارنا وفنوننا المعمارية واختلاقاتهم غير الصحيحة عنا. أنهم مزورون أفاقون كاذبون نصابون>>

ضرغام: <<حسنًا ماذا حدث تلك الليلة؟>>

ربعيل: <<عندما وصلنا للمكان الذي ترعى فيه وجدنا جزء من ثوب إبنتي عالقًا في الشق، ولم يكن هناك ذهب ولا كنز، وحاولنا أن نفتح الشق لكن الأمر كان مستحيلا، توقعنا أن الجبل ابتلعها لسبب ما لا نعلم ما هو، قد يكون سحر ما جعل الجبل يفتح ويخطفها ثم بعد أن ابتلعها أُغلق عليها الطور ولم تستطع الخروج، أما آثار الأصابع التي تراها فهي أصابعنا نحن، فقد حاولنا أن نصلي ونقوم بطقوس إيماننا لفتح الشق وعندما فشلنا وشعرنا أن العدو يقترب أخذنا قطعة الثوب التي نزعناها من الشق واخفيناها حتى اذا ما عدنا ثانية للطور نحاول مجددًا لعلنا نستطيع تحريرها من الجبل. كان العدو قريب جدًا وكنا نحاول حماية أنفسنا وأميرتنا وطقوسنا من الغرباء>>.

ضرغام: <<وآثار إطلاق الرصاص؟>>

ربعيل: <<إنها آثار حديثة. صدقني لم يدخل السلاح هنا إلا في فترة العثمانيين وعندما صدّق السذج هذه الرواية أخذوا يأتون أفواجًا لهذا الجبل ويرجمونه بالحجارة ويطلقون عليه الرصاص ويقولون إفتح يا سمسم وإفتح يا جبل. حتى مدينتنا الرائعة عندما دخلوها أطلقوا الرصاص على الكثير من معابدنا وآلهتنا وأنصابنا المقدسة ظنًا منهم أننا نخفي داخلها الذهب والكنوز. أنهم لا يعلمون أننا كنا نعاني جدًا قبل الحرب التي انهت دولتنا، الجوع والعطش والفقر والعوز أنهك شعبنا، وأننا في تلك المرحلة كنا نتقاسم القليل بالحب والإيمان لنحاول البقاء ونواجه الصعاب>>.

ضرغام: <<حسنًا القصة معظمها مختلق لكن قطعة القماش من ثوب الأميرة حقيقي>>.

ربعيل: <<نعم. وضعناها في مكانٍ قريب من الطور ووضعنا جندي لحراستها، وعدنا أدراجنا. ومن وقتها لم نعد، لأنه في اليوم التالي كان الغرباء قد اقتربوا كثيرًا من تلك المنطقة ولم نستطع أن نجازف>>.

ضرغام: <<لعل الغزاة قتلوا الجندي واستولوا على قطعة

القماش>>.

ربعيل: <<الغزاة لا يعرفون قيمة قطعة القماش أنهم يهتمون فقط بالنساء والذهب. ثم أن الجندي حارب ببسالة وكان قد أخفاها عنهم وبعد أن قتل أول مجموعة منهم، هرب قبل تدخل جحافل الجنود للمنطقة، فوصلنا مضرجًا بدمائه، وأخبرنا أين أخفاها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة>>.

ضرغام: <<لا بد أنها ذات أهمية كبرى. لذلك تحاولون إخفائها>>.

ربعيل: <<نعم، أنها السبيل الوحيد للوصول لإبنتي ومعرفة حقيقة اختفائها وهو ما لم نستطع فعله في ذلك اليوم. لقد دفناها أسفل الطور بالقرب من شجرة، لكن الجندي أخرجها عندما قتل المجموعة التي حاربته وعندما شاهد جحافل جيوش العدو تقترب حفر حفرة صغيرة قريبة من الطور ثم طمرها ثم دحرج حجرًا كبيرًا ووضعه فوقها>>.

ضرغام: <<ولماذا لم تأخذوها معكم؟ ولماذا لم تحاولوا مجددًا؟ لماذا لم تفعلوا شيئًا منذ تلك الفترة حتى اليوم؟>>.

ربعيل: <<لا يمكننا الإبتعاد عن الطور ولا عن هذا المكان. نحن مُقيدون في حركتنا، ثم لم نحاول لأننا أرواح. لا يمكن للأرواح أن

تتعامل مع شيء ملموس>>.

ضرغام: <<والكبدة والخبز الذي أكلناه سويًا؟ أليستا أشياء ملموسة؟>>

ربعيل: <<أنت أكلت طعامًا روحيًا ذا شكل مادي لكنه ليس حقيقي ملموس>>.

ضرغام: <<أنا لا أفهم شيئًا. على كل حال مذا يمكنني أن أفعل؟>>

ربعيل: <<نريد قدراتك البشرية وقلبك الطيب لمساعدتنا، لنذهب للطور وهناك نريك أين أخفى الجندي قطعة القماش، ونخبرك ماذا تفعل لنحرر روح إبنتي معًا>>.

ساروا جميعًا نحو الطور القريب.. كان الظلام دامسًا والجو باردًا جدًا لكن مرافقي ربعيل التصقوا بضرغام، فكان يرى بوضوح، والدفء يملئ قلبه، وما أن وصلوا هناك حتى ألتف الرجال حول الصخرة فعاد البرد يهز كيان ضرغام، كانت هناك مجموعة من الأخشاب فاشتعلت النار في الحطب دون أن يلمسها شرارة أو نار. كانت النار صغيرة لكنها كافية. كيف اشتعلت لوحدها؟ لا أحد يعلم! ولم يسأل ضرغام!

كان الطور أمامهم ومقابله تلك الصخرة شبه المستطيلة

والضخمة والتي تبتعد عن الطور بحدود المترين، صخرة لن يستطيع عشرة رجال تحريكها أو دحرجتها لضخامتها... جزء منها مخفي تحت الأرض وقد يكون بحجم الجزء الظاهر منها.

نظر ضرغام مطولا لها وهو يقول في نفسه: كيف يصر ربعيل على أنه لا يريد رجل ضخم الجثة قوي البنية ليساعدهم! لا بل يريدون خمسة أو عشرة رجال لتحريكها من مكانها أو قلبها.

كان يفكر أن صخرة أقل بعشر مرات من هذه قد تسبب له فتقًا إن حاول تحريكها.

ربعيل: <<لا تأبه. أنت لن تحركها. أنت فقط ستلمسها ونحن بدورنا سنحركها بقوة الحب والإيمان. سنمنحك قوة دحرجتها>>.

كالعادة يقرأ ربعيل أفكار ضرغام.

ضرغام: <<حسنًا ماذا أفعل؟>>

ربعيل: <<ستضع يدك عليها فقط ولا تقم بأي جهد، أما نحن فسنعطيك طاقتنا، وستتحرك من مكانها، بعدها ستحفر قليلا أسفلها لمسافة قليلة وستجد القطعة القماشية وبعدها سنخبرك ماذا تفعل>>.

أحاط ربعيل والرجال بضرغام والذي بدوره وضع يده على

الصخرة الضخمة، ووضع ربعيل يده على كتف ضرغام. في البداية لم يشعر ضرغام بها، ثم بعد قليل شعر بحرارة تدخل جسده وقوة تتحد به، بدأ الحجر بالتحرك صعودًا من الحفرة، ثم سمع الرجال يتحدثون بلغة لا يفهمها ويرتلون كأنهم يصلون، ثم بدأت الصلاة تشتد حرارة والطاقة تملئ جسد ضرغام واشتعلت النار الصغيرة بقوة وأصبح الجو دافئًا والحجر يتحرك لكن ليس بتلك الحركة الكبيرة.

ربعيل: <<الآن ادفع الحجر دفعة بسيطة>>

دفع ضرغام الحجر بيده دفعة صغيرة فقلب الحجر على ظهره للجهة الأخرى.

امتلأ ضرغام بالدهشة... كانت صدمة عمره. إن حياته تمتلئ بالصدمات لكن ما حدث فاق الوصف!

ربعيل: <<الآن أحفر حفرة بسيطة، ستجد تحت طبقة قليلة من التراب بقايا الثوب، قد يكون بقايا قماش بالي، لا يهم! قطعة بسيطة منه تكفي>>

ركع ضرغام وأخذ يحفر في الحفرة التي كان الحجر منغرسًا فيها، كان التراب الناعم يدخل بين أضافره ويؤلمه، مع ذلك، ظن الأمر سهل... أخذ يحفر ويحفر حتى نال التعب منه، وكل مرة

كان يخرج من الحفرة التراب وبعض الحصى... كانت أصابعه تتجرح... ولم يظهر شيئًا... بعد حفر دام بضع دقائق تعب ضرغام وبدأ الدم يخرج من تحت أضافره.

ضرغام: <<لا شيء. هل أنت متأكد أنه أخفاها هنا؟>>

ربعيل: <<نعم، هكذا أخبرنا. تحت حجرٍ كبير ولا يوجد حجر كبير بالحجم التي ذكره لنا إلا هذا الحجر>>.

ضرغام:<<كيف لجندي واحد أن يُحرك حجر ضخم بهذه الكتلة؟ هل تصدق جندي هارب من أرض المعركة؟>>

ربعيل: <<نعم أصدقه، لأنه حارب ببسالة ولم يتراجع إلا ليحذرنا. ثم ألا ترى كيف بنينا عاصمتنا ومدننا؟ نحن نملك ذرة الإيمان التي تُحرك الجبال وتطوعها وتحفرها وتزخرفها، وحجر مثل هذا لن يقف عائق أو حجر عثرة أمام إيماننا>>.

خجل ضرغام من كلامه.

ثم فكر في نفسه: إن كان لديهم إيمان يحرك الحجارة والجبال، فلماذا لم يتمكنوا من الأعداء؟ كيف انتصر الغزاة عليهم؟ لماذا لم يأمروا هذه الجبال الضخمة أن تنهار على الأعداء؟ أو تتحول رمال هذه الصحراء لرمالٍ متحركة وتبتلعهم، لماذا لم يقولوا للجبل الذي ابتلع ابنتهم إفتح يا سمسم فينفتح وينقذوا

إبنتهم!

ربعيل: <<أنت تسأل نفس الأسئلة الساخرة التي طرحها قَتَلة المُعلم وهو معلق على خشبة[1]، خصوصًا حين قال: إيلي إيلي لَمَّا شبقتني؟ فقال أولئك ساخرين منه: لماذا لا يأتي إيليا وينقذه؟ المعلم نفسه الذي أنقذ أُناس من الموت ومن الأمراض ومن البلاء، لم يستطع أن ينقذ نفسه! هذا هو الأمر بالنسبة لهم. الجميع ينظر للأمور بسطحية وينظر لها بتهكم وسخرية>>.

لقد قرأ ربعيل أفكار ضرغام مجددًا...

متى سيتعلم ضرغام أن يجمد أفكاره وتفكيره؟

أو على الأقل يرتقي بفكره لمستوى الأرواح المتعبة؟

متى ستنمو في عقله أفكار هذه الصحراء الفاضلة ويبتعد عن فكر المدينة وتفكيرها؟

الحضارة والمدنية جعلت الناس سطحيين، والريف والصحراء تجعل الناس أكثر روحانية وعمق وسلام. المدينة تجعل الناس آليين وجشعين وسريعين ومتسرعين، شديدي الغضب والإنفعال. أما الريف والصحراء فجعلت البشر قريبين من أنفسهم ومن روحهم. جعلت المسافة بين البشر وقلوبهم مسافة حبٍ وقُبلة.

1) حادثة الصلب كما رويت في الأناجيل

أما ربعيل فيقول الحقيقة... لكن ضعف إيمان ضرغام جعله يقف عاجزًا عن فهم كل هذه الأمور. ما زال ضرغام يتعامل معهم كأنهم بشر وليسوا أرواح. أرواحٌ متعبة تهيم في صحراء فاضلة ليلاً وتلتصق بجبالها نهارًا.

أما قطعة القماش، فلقد حدث هذا الأمر قبل فترة طويلة جدًا... لعل الحجر تحرك قليلا وانغرس أكثر فانغرست معه قطعة القماش أو ذاب معظمها تحت الضغط الشديد.

ربعيل: <<تحلى بالإيمان... تحللى بالصبر. أحفر مجددًا. إنها هناك إنني أراها>>.

وضع ضرغام يديه في الحفرة ليبدأ الحفر مجددًا لكن ما أن بدأت أصابعه تنغرس في الرمال حتى شعر ببعض الخيوط المتماسكة تحيط بأصابعه.

رفع ضرغام ما أمسكه فكانت قطعة بالية من قماش قديم أسود مهترئ تكاد تنهار بين يديه.

أخذها بكل عناية ورفعها ليراها ربعيل... كان ربعيل ينظر لها بحزنٍ، وكان ضرغام حريصًا جدًا على أن يمسك القماش المهترئ بكل عناية وحذر خوفًا من أن يفقدها أو يتلفها. كان يتمعن فيها ويقول في نفسه: إنها آثار. إنها آثار. لو رآها عالم آثار لوضعها

في كيس بلاستيكي بكل حذر وأخذها لمختبرٍ متخصص لفحصها ودراستها وترميمها. إن هذه القطعة من القماش على اهترائها تمثل شيء عظيم ملموس من موقع لا نجد فيه إلا الحجارة، لذلك فهي تمثل قيمة أثرية لا تقدر بثمن.

كانت الريح قوية وأحاط الرجال بضرغام جيدًا لكي لا تتمكن ريح غادرة من العبث بهذا المقتنى الثمين، كما عبثت ريحُ الأعداء بهذا المكان وهذه الأرواح قبل قرون طويلة.

ربعيل: <<حسنًا، ستبقيها بين يديك لأننا لا نستطيع إمساكها. نحن سنلتف حولك ونصلي صلواتنا. وستظهر روح ابنتي لنا ولك وستراها فلا تخف وستسمعها مثلنا وستخبرنا أين كانت وماذا حدث لها>>

ضرغام: <<حسنًا>>.

بدأ الرجال بالصلاة... كانت صلاتهم مزيجًا من تراتيل تشبه قراءة المزامير في الكنائس الأرثوذكسية، لكنها كانت بلغتهم وبدينهم، كان الشيء الوحيد الذي فهمه ضرغام اسم الأميرة غزالة.

تحولت النار إلى ما يُشبه شعلة كأنها شمعة كبيرة جدًا أما الكلاب البعيدة فصمتت فجأة، وبينما كانت تخترق التراتيل

جدار الصمت هدأت قوة الرياح، لا بل اخترقت العتمة، فصمت كل شيء... لا صوت في الأرجاء... إلا صوت الصلاة. كان الأمرُ شبيهًا بالزلزال، يزلزل الأعماق والأقدام ثابته... أهذا ما تفعله صلاة قوة الإيمان؟ حين يصلي البشر بإيمان تخترق أصواتهم عنان السماء، فتتفتح أبوابها وتنمو في بساتينها أنواع الأقحوان، ويصبح القمر معبدًا تنمو فيه الأشجار والكواكب كالقطار تدور وتدور حول محطاتٍ كإنها ترقص رقصة الدراويش، والنجوم كأنها مراقص... تعلوها الملائكة تهذي وتصلي وتدور أيضًا في رقصةٍ صوفية.

كان ربعيل ورجاله قد وضعوا أيديهم على أكتاف بعضهم البعض وأخذوا يتراقصون بأجساهم وهم يصلون وكأنها دبكة هادئة، كانت عيونهم ناعسة وأجسادهم تتحرك معًا بإنتظام، وأصواتهم رقيقة تدعو ربها بخشوعٍ واحترام حتى ظهرت أمام ضرغام وفي وسط الرجال فتاة سمراء جميلة ذات ضفيرتين وتلبس ثوب أسود مزركش بألوانٍ متعددة، وقد تمزق جزء بسيط من طرفه الأمامي، جزء يناسب جدًا قطعة القماش المهترئة التي بين يدي ضرغام.

كانت كما وصفها ربعيل بلا زيادة ولا نقصان. كانت وكأنها اختفت

قبل قليل وليس قبل مئات السنوات... صبية فاتنة وجميلة جدًا.

بقي ضرغام راكعًا ينظر لها بينما صمت الرجال وسكنوا في أماكنهم وهم ينظرون لغزالة... أما ربعيل فكان تقريبًا في حالةٍ بين هدوءٍ وعاصفة!

أخذ القماش الذي بين يدي ضرغام ينهار رويدًا رويدًا ويتلاشى كأن لا وجود له... نظر ضرغام لربعيل ليخبره، لكن أحد الرجال أشار لضرغام بالصمت.

دخل ربعيل لوسط الدائرة وحضن ابنته بشدة وأخذا يبكيان...

ربعيل: <<سامحيني يا ابنتي ، أأيقضتكِ من سباتك العميق الطويل>> كان يتحدث إليها وهو يرتب شعرها ويتحسس ضفرتيها.

ضحكت.

غزالة: <<شكرا يا أبتي. أنا كنتُ معلقة لا استطيع المرور أو العودة... شكرا يا أبتي لقد أنقذتني>>

ربعيل: <<لم أنساكِ يا بنيتي يومًا. حمدًا لله أنكِ الآن هنا. سنحررك يا ابنتي. لكن لكي تتحرري أخبرينا ماذا حدث. أين كنتِ؟ هل ابتلعك هذا الطور الملعون؟ هل خطفكِ الأوغاد؟>>

غزالة : <<سامحني يا أبتي. لقد أقلقتُ راحتك طوال هذه المدة وأنا لا أعلم كم هي. لقد أخذنا تجمد الوقت فما عدنا نُبصر من شدة حزننا إلا هذه المساحة الشاسعة من الفراغ التي نسبح فيها لكن لم أنساك يومًا، لم تغبْ عن تفكيري لحظة... سامحني يا أبتي لقد خطفني الحب منك>>.

ربعيل: <<الحب؟!>>

غزالة : <<نعم يا أبتاه>>.

ربعيل: <<أنتِ تحبين جنديًا من جنودنا، وكنا ننوي تزويجك إياه قبل أن تختفي بأيام. لقد ظننا أن الغزاة خطفوك أسيرة لديهم أو أن الجبل ابتلعكِ>>.

غزالة: <<لا يا أبتي. أنا كنتُ أريد الزواج من ذلك الجندي تنفيذًا لإرادتك. لم أكن أنوي الخروج عن طاعتك، لم أكنْ أحبُ ذاك الجندي، لكن قلبي رق لرجلٍ غريب من الشمال كان يرعى أغنامه في الجهة الأخرى من الجبال البعيدة، تلك المناطق التي لم يستطع الغزاة من الجنوب الوصول إليها بعد كانت تسكنها قبيلة تسمى قبيلة عزيزولآت، كانوا على حلفٍ مع أهل الشمال الأغراب فسكنوا بالقرب من قبيلة عزيزولآت. كان هذا الرجل يراقبني دون أن أدري ويراقب الغزاة أيضًا من موقعه

العالي، وفي يومٍ من الأيام وبينما كنتُ أرع أغنامي كان ثلاثة من مستطلعي الغزاة يقتربون مني ببطء دون أن أنتبه لوجودهم، وما أن أقتربوا حتى خاف القطيع فهرعت ألملمها دون أن أفهم ماذا حدث حتى ظهر ثلاثة رجالٍ أشداء بسيوفهم أرعبوني وأرعبوا القطيع. قال لي أحدهم: لن نقتلك ولن نؤذيك. خذينا إلى مرابع قبيلتكِ بالسر ولن نؤذيكِ. وبينما هم يتحدثون، ظهر رجل رابع من حيث لا أدري وانقض عليهم وطرحهم أرضًا بعصا كانت بيده، وأنهكهم ضربًا ثم قام بتوثيقهم واستجوابهم. وبينما كنتُ ألملم قطيعي والخوف يدب في أوصالي، كان الرجل قد أحكم وثاقهم، ثم جاء الرجل إلي وقال لي لا تخافي اسمي استيفان وأنا من الشمال البعيد وأقطن أرض قبيلة عزيزولآت، أنا جندي أحرس هذه المناطق واتنكر بزي راعٍ حتى أشهد تحركات الأعداء>>

ربعيل: <<هل آذاك أحدهم يا بنتي>>.

غزالة: << ا، لقد كان استيفان يراقبني ويراقبنا جميعا لقد قال لي أنهم لم يريدوا أن يحتلوا أراضينا لأنهم يعلمون أننا سكان هذه الأرض، مسالمون وطيبون وأن جنودهم منهكون من الحروب التي خاضوها، وأن طبول الحرب مع أهل الجنوب تدق

أيضًا، ولذلك هو يراقب الوضع هنا متخفيًا بزي راعٍ، وأهل الجنوب يرسلون كل يوم مجموعات استطلاع لدراسة تحركات القبائل والحاميات>>.

ربعيل: <<وماذا حدث أيضًا>>

غزالة: <<أخبرني أنه سيأخذ الرجال أسرى حتى لا يخبروا قائدهم عن مكاننا، لقد رأى أننا أضعف من أن نحارب أهل الجنوب لوحدنا، وهم يريدون هذه المنطقة لينطلقوا منها للشمال، وأنه اذا قتل هؤلاء الرجال واكتشف الأعداء ذلك فسينتقمون منا ويقتلون رجالنا وكل الذكور منا ويأخذون النساء والأطفال سبايا، ذلك قرر أن يحافظ على حياتهم ويسلمهم إلى أقرب حامية من جند الشمال. كان رجلا شهمًا يا أبتي، لقد وضع الرجال الثلاثة في مغارة وأحكم وثاقهم ثم أغلقها وذهب لبعض الوقت وعاد ومعه رجل آخرين قال لي إنهم جنود من حامية قريبة، وكان معه خروف فذبحه وشواه على النار وأحضرت أنا لبنًا وخبزًا وأطعمنا الأسرى وأكلنا جميعًا، وفي هذا الوقت جلس معي لوحدنا وأخذنا نتحدث. كان لطيفًا دائم الإبتسام رقيق المشاعر، مرهف الأحاسيس يؤمن بحق الناس بالحياة والإيمان لذلك لم يمس الأسرى بسوء ولم يمسسني بسوء أيضًا.

كان يراقبنا من بعيد ويعرف عن شعبنا الكثير فهو يؤمن بأن شعبنا متحضر وفنان وحكيم وأن الناس الذين تركوا مملكتنا وهاجروا مع أخيك للشمال تركوا إيماننا وطقوسنا وعاداتنا ولغتنا ليتشبهوا بأهل الشمال، فضعفوا حتى ذابوا مع شعوب أهل الشمال. أما نحن فيحترم أننا ما زلنا محافظين على أنفسنا وعاداتنا وطقوسنا رغم قلتنا وضعفنا. كان يقول أنه كان من الأجدر لملكهم أن يتركنا بحالنا وأن نتحالف عسكريًا فقط، وأن اللعنات التي حلت على شعبنا جاءت بعد تحالف ملكنا السابق مع مملكتهم وتدخل أجدادهم في تفاصيل حياتنا، وأخبرني أن اللعنات نفسها حلت على أخوتنا من أهل النهر الخالد عندما احتل أجدادهم البيض أراضي أهل النهر الخالد، وحكموهم بالسيف والنار. وقبل أن تغيب الشمس طاب مني أن لا أخبرك بشيء حتى لا تفزع وأن أعود لرعي قطيعي كالعادة كل يوم وأنه سيحميني من أي متطفل كلما خرجتُ للرعي وأنه سيراقبني ويراقب المكان كله من الجبال العالية حيث يتظاهر أنه راعٍ وسيخبرني إن شاهد الغزاة يقتربون مني أو من مملكتنا أو يتجهون للشمال. في تلك الليلة يا أبتي عُدتُ بالقطيع لك لكن روحي بقيت مع هذا الرجل الشهم الطيب. لقد أسرني يا أبي لكن

بالحب، لم يقم بأي عمل يؤذيني بل حماني من الرجال الثلاثة الذين كانوا ينون خطفي فلم يسمح لهم. لم أنم تلك الليلة وأنا أُفكر بهذا الرجل الجميل القوي الأبيض وما فعله من خير معي، وكذلك بالرجال السمر الثلاثة الذين لو نجحوا بخطفي لكنت أسيرة وعبدة لهم>>.

كان ربعيل والرجال يصغون لها أما ضرغام فمندهش وتمنى لو كان معه مسجلة أو ورق وقلم لتسجيل هذه الأحداث التاريخية التي لا يعرفها أحد... التفاصيل التي يجهلها أحد.

إنها أهم من تلك التسجيلات والقصص المضحكة التي يسمعها...

غزالة: <<في اليوم التالي وبينما كنت أرع أغنامي صباحًا في نفس المكان جاء استيفان ومعه طعام لنا فأكلنا معًا وأخبرني أنه أرسل الأسرى مع الجنود للشمال، وقال لي إن وجود هؤلاء الأسرى بالقرب منا يعني أن جيش الغزاة قريبون وعلى مسافة يوم أو يومان منا، وأن هذه المجموعة الاستطلاعية إن لم تعد فسيتبعها مجموعة أخرى أو الغزو نفسه. لقد أفزعني حين قال إن أهل الجنوب ماهرون في الحرب ويعرفون الكر والفر وأنهم تمكنوا من الجنوب كله لأنهم أشداء مدربون ومؤمنون بهدفهم وزعيمهم، بعضهم قساة القلوب ماكرون وجشعون يقتلون كل

شيء أمامهم، همهم الغنائم والسبايا، وبعضهم الآخر طيب ومحارب وشجاع، همهم أن يحصلوا على أراضي جديدة وتجارة واسعة. وأخبرني استيفان أن هذا لن يحدث، وأن سيده الملك الأبيض وجنوده لن يسمحوا بهذا، لكنه يشك بولاء بعض القبائل فهم يكرهون أهل الشمال، ومستعدين للتحالف مع أهل الجنوب ليتخلصوا من ضرائب وحكم الملك الغريب الأبيض>>.

كانت غزالة تتحدث عن تفاصيل مهمة وكان ضرغام ينظر لقطعة القماش التي تنهار بين يديه وكيف أنها تنتقل رويدًا رويدًا وببطء إلى ثوب غزالة... كأن أحد ما لا يُرى يُخيط لها ثوبها الممزق من أسفل.

غزالة: <<وبينما كنت يا أبتي أسمع لهذا الجندي الأبيض والطيب والباسل والذي يعرف لغتنا ولغة أهل الجنوب كنت أفتتن به، أحببته جدًا... وكل يوم كان يأتي لي بلحم طازج وأنا كنت أحضّر اللبن والخبز لنا ونأكل معًا ونتحدث ثم يتركني ويصعد للجبال ليحرس المكان، وبعد بضعة أيام أخبرني أنه يحبني جدًا وأنا أيضًا أخبرته بذلك لكنني أخبرته أنني مخطوبة لرجلٍ من دمنا ولحمنا وعقيدتنا وأرضنا وأنني لا استطيع الزواج من أجنبي لأنك ستحزن يا والدي. أخبرته أن والدي سيحزن جدًا

وسيغضب إن علمت أن ابنته الوحيدة تحب رجلا أجنبي>>.

كان ربعيل يمسك بيدي إبنته والإبتسامة لا تفارق محياه. لم ير ضرغام على وجهه حزنًا أو غضبًا أو قساوة بل كانت معالم وجهه صافية وإبتسامة خفيفة على وجهه ويستمع لابنته بكل جدية وحنان.

نظرت غزالة لاسفل وهي تشعر بالذنب وعيناها تدمع: <<ولأن الحب يا والدي أقوى فقد قررنا أن نهرب معًا. لقد خفنا أن ترفض زواجي من استيفان وتصر على تزويجي لجندي لينتقل الحكم له من بعدك وتبقى مملكتك. مملكتك التي تحبها وتحب شعبها أكثر من نفسك ومن حبك لي. لقد قررت الذهاب معه بعد أن كرر عرضه الزواج مني وأنا أحبه جدًا. لا أتخيل نفسي مع رجلٍ آخر سواه. وأنت يا والدي ومليكي علمتنا الحب، وقلت لنا أننا سننتصر بالحب، وأننا نؤمن بعظمة آلهتنا بالحب، نطوع الحجارة بالحب، نربي أولادنا بالحب، نرعى قطيعنا بالحب، ندخل الحروب دفاعًا عن الحب، نعقد التحالفات بدافع الحب، نعقد السلام رغبةً بالحب، حتى أننا ندفن موتانا بالحب. وأجدادنا الذين سمحوا للغرباء بدخول مملكتنا القديمة سمحوا لهم بدافع الحب، وسمحوا لرجال دينهم بالدخول لمملكتنا لأن

سيدهم يؤمن بالحب، فبشروا قومنا به وبالحب، وبنوا معابد لهم وسطنا كانت تدعو في أول الأمر للحب، وحتى عندما طرد رجال الدين البيض أحد زعمائهم الدينيين ونفوه لبلادنا مكبلا مهانًا استقبلناه نحن بالحب، واحتضناه بالحب وعندما مات حزينًا كئيبًا وحيدًا منفيًا مطرودًا، دفناه في مقابرنا نحن بالحب، بينما رفض البيض دفنه في مقابرهم لأن معظمهم لا يؤمن بالحب، وهذا ما أغضب ألهتنا وأغضب تحالفاتنا مع الجن، لكن رغم كل الويلات بقي شعبنا وصمد. هذا الرجل استيفان يا والدي حماني بالحب وطوقني بكل أسباب الرغبة بالحياة وبالحب، فهل كنت ستنتصر للحب الذي بيني وبين استيفان وتتركنا لنتزوج؟ أم كنت ستنتصر لحب مملكتك وعرشك ليستمرا وتزوجني لشخص لا أحبه؟>>

ساد الصمت

لم يجرؤ أحد على قول شيء... وبعد فترة قصيرة من الصمت كسرت غزالة جمود الكلام

غزالة: <<الحبُ يا أبي أقوى من أن نحاربه ونمنعه، الحب يأسرنا ويعتقلنا، وأنا يا أبي وقعت أسيرة هذا الرجل الأجنبي الأبيض، ولم أقع أسيرة رجالٍ يأخذون النساء سبايا! لقد

حماني. كان القدر في تلك اللحظة قد قرر أنني أسيرة. وكنتُ أمام خيارين... إما أسيرة حب أو أسيرة حرب. لم يكن أمامي أي خيارٍ ثالث. في تلك اللحظة بالتحديد لم أكن لك. لم أعد غزالة التي تعرفها. عُدت إليك بعض الليالي لكن ما عاد لك جسد بلا قلب. أما القلب فكان أسيرًا لرجلٍ آخر>>.

ترك ربعيل يد إبنته اليسرى ورفع يده اليمنى وأمسك بذقنها ورفع رأسها لأعلى وابتسم لها

ربعيل: <<نعم يا ابنتي. الحب هو الأقوى. الحب هو دائماً الأقوى. الحب الكامل سينتصر أما الحب الناقص فإلى خسارة. الحبُ هو ما جعل مملكتنا تستمر لقرون، وعندما نقص الحب أصابنا ما أصابنا. لولا الحب يا بنيتي لما كنا ولما بقيت أرواحنا أسيرة تنتظر الفرصة المناسبة للإنطلاق والحرية. أنا وأنتِ وهؤلاء الرجال. نحن في مكانٍ ما موتى لكن أرواحنا معلقة، نحن الآن أسرى! الحب هو الأقوى يا بنيتي، لكن عندما رفضنا الحب وتمدن شعبنا ووقعنا أسرى الغيرة والكراهية والطمع والأنانية والصراعات دخلت مملكتنا في خطرٍ شديد، فرحل من يحب التمدن للشمال وتركوا تراثنا وأوله الحب، أما نحن من صمدنا هنا رغم كل الصعاب وعلى قلتنا رحلنا إلى حيث كان أجدادنا

الأوائل، لنحاول أن نستعيد الماضي وتراث أجدادنا. نحاول أن نعود للحب النقي ونعيد تأسيس مملكتنا من جذور الحب الأولى، ورغم ضعفنا لكننا كنا ننمو بالحب، وحاربنا لأجل الحب، ودافعنا عن أرضنا وعرضنا بالحب، ومتنا حتى آخر رجالنا دفاعًا عن الحب. لقد كان قدرنا يا بنيتي أن نحب وأن نموت. قدرنا أن تنتهي مملكتنا على يد أهل الجنوب وأهل الشمال معًا، كلاهما نهشا مملكتنا الضعيفة. لكن أحسنتِ صنعًا باختيار الحب... الحب باقٍ، فرحيلك ضمن أن هناك نسل لنا وهذا هو الحب الذي كنا ننشده. لو تزوجتي من اخترته أنا لكي لانتهت مملكتنا أيضًا. لكن الفرق أن مملكتنا انتهت بولادة حبك مع استيفان ولم تنتهِ بزواجك من شخص لا تحبينه>>.

غزالة: <<هذا يعني أنك لم تعد غاضبًا؟ إن روحي لم ترتاح منذ تلك الأيام>>

ربعيل: <<إن أرواحنا الهائمة لن ترتاح إلا بعد أن ترتاح روحك يا بنيتي. أنا لستُ غاضبًا منكِ يا بنيتي... ارتاحي بسلام، لكن حتى نرتاح جميعًا أخبريني قصة الثوب الممزق، لماذا وجدنا طرف ثوبك ممزق في هذا الشق الذي يقسم الجبل لنصفين؟>>

غزالة: <<بعد فترة من اللقاءات اليومية، وخوفًا من رفضك

زواجي من استيفان، إتفقنا أنا وهو على الرحيل واخترنا اليوم المناسب، ولكي يظهر الأمر وكأنه اختطاف مزقتُ جزءًا من ثوبي وأدخلته في هذا الشق الذي تراه لكي تظن أن الجن هم من خطفوني وسجنوني في هذا الجبل وليس أهل الجنوب أو أهل الشمال فلا تشتعل حرب بسببي، ورحلنا ذلك المساء إلى الشمال وسكنا أرض عشيرة عزيزولآت تاركت خلفي أب أحبه ووطن أعشقه وأهل وقبيلة لا يمكن أن أنساها>>.

ربعيل: <<إنني أسامحك يا بنيتي. الحب أقوى من أن يقف أحد بوجهه. لا شيء أقوى من حبٍ حقيقي وصادق. ليكن الرب معكِ أرحلي يا بنيتي بسلام>>.

بقي الرجال يصلون لكن بصوتٍ رقيق والنار ما زالت مشتعلة رغم أن الحطب أصبح رمادًا وضرغام راكع على الأرض يحمل ما تبقى من قطعة القماش التي قاربت على الإضمحلال.

كانت الكلاب والذئاب ما زالت صامته على غير عادتها، وكأن شيء ما هدئ من روعها وشعرت بسلام.

إن هذه الأرواح أرواح حب لا أرواح شر.

بعد صمتٍ وجيز كسر ربعيل الصمت

ربعيل: <<ألن تذهبي يا بنيتي؟ لقد أطلقتك بسلام.>>

غزالة : <<ليس بعد يا أبتي. ما زال هناك شيء>>

ربعيل: <<طهري روحكِ يا بنيتي، طهري روحك وأرواحنا. نريد أن نرتاح بسلام>>

رفعت عيناها إتجاه والدها الذي طوقها بذراعيه

غزالة : <<لدينا ابن>>

ربعيل: <<لدي حفيد!>> كانت السعادة تبرق من عينيه

غزالة : <<بعد زواجنا بفترة اشتعلت الحرب وقُتل زوجي فيها، فأردتُ العودة للديار لكن أهل زوجي أخبروني أن أهل الجنوب استولوا على كل الديار، فقرر أهل زوجي وكل أهل الشمال الرحيل للشمال، وفعلا بدأ الجميع بالرحيل إلا نحن تأخرنا لأنني أنجبت عمير وقتها وكنت ضعيفة جدًا لا أقوى على الرحيل>>

ربعيل: <<أنه اسمٌ جميل من اسماءنا. لماذا لم يسمونه بلغتهم؟>>

غزالة : <<كان هناك رجل طيب من أهل الجنوب يسكن قريبا منا، فأخذنا عنده، وتكفل بحمايتنا، وما أن ولدتُ عمير حتى هجم أهل الجنوب ثانية فقُتل خلقٌ كثير، أما أنا وابني فقد احتمينا عنده، وحتى نبقى بسلام اسميته اسمًا من أسمائنا

وليس اسمًا من اسماء أهل الشمال فيصير عبدًا أو يُقتل>>

ربعيل: <<وماذا حدث لعمير؟>>

غزالة: <<بعد أيام اكتشف أمرنا، وجاء جنود يريدون أخذي وأخذ عمير، لكن الرجل الذي يحمينا رفض فقام الجنود بقتله ثم جاؤوا لأخذي أنا والطفل فطعنت رجلا منهم بسيف كنت أخبئه تحت فراشي، ولا أعلم ماذا حدث بعدها، لقد متُ وأنا أدافع عنه... يا أبتي إن روحي تحن له>>.

ربعيل: <<إن روحك معلقة بعمير حفيدي. أعدك أن أحمل عنك هذا العبء، سأبحثُ عن روح إبنك وأحررها، أما أنتِ فلا بد أن ترتاح روحكِ وترحلي بسلام إلى السماء>>.

غزالة: <<أنه حمل ثقيل جدًا يا والدي لا تستطيع أن تجد له حل. ستبقى أسيرًا على هذه الأرض لأن لا علامة قد تدل عليه، أنت وجدتني لأن هناك علامة ومكان. أما إبني فلا علامة تدل عليه>>.

ربعيل: <<أنا يا إبنتي متعلق بهذه الأرض ومعلقٌ وملتصقٌ على جبالها، لن أتحرر أنا وجنودي إلا بعد أن نحل كل الأمور العالقة. وأهمها أمر حفيدي عمير، وعندما تحرر أرواح من نحبهم ستحرر أرواحنا ونتبعك بسلام. أما أنتِ فذهبي بسلام إلى حيث روح

زوجك وتحرري. أنا سأحمل عنكِ هذا الأمر بالحب وسيساعدنا هذا الرجلُ الطيب هنا>>

نظرا إلى ضرغام نظرة حبٍ

توجهت غزالة إلى ضرغام وقالت: <<أنت رجلٌ طيب، وفيك روح الحب والصفاء، أنت تحمل قلب يُشبه كثيرًا قلب أبي، أشعر بطاقة سلام منك، لا بد أنك من النادرين الذين يؤمنون بالحب النقي، سلامٌ لك أيها الجندي الشجاع>>

نظر ضرغام لربعيل ثم لغزالة : <<أنا لستُ بجندي... أنا رجلٌ عادي، أنا هنا في مهمة عمل، ووالدكِ اختارني لمساعدته>>

غزالة : <<أبي لا يخطأ في الرجال. أبي يُحسن اختياراته. أنت جنديٌ ومجاهدٌ شجاع>>

ربعيل: <<نعم أنه المختار الذي جاء يحررنا من هذا القيد>>

فكر ضرغام بكلمة المختار! «إنها كلمة لو نطقها هو بحق نفسه لقتله الناس بسهولة في هذه البقعة من العالم. لو قال هو إني جئت أخلص العالم أو جزء من العالم لضحك عليه الناس. لكن الخلاص لم يأتِ لهذا العالم فقط على شكل أنبياء أو أولياء. فالخلاص قد يأتي على شكلِ رجلِ سياسةٍ حكيم يمنع الحرب ويوقفها ويزرع السلام... قد يأتي على شكل عالمٍ أو طبيبٍ

يكتشف دواء أو حقنة أو طريقة علاج... قد يأتي على شكل عامل نظافة يزيل قذوراتنا في الوقت المناسب... وقد يكون إنسان مختار ينقذ أجسادًا من الموت أو يحرر أرواحًا مقيدة في الأرض... المخلص أو المختار قد يكون شخص عادي وقد يكون نبي... لكن له رسالة. لكن المختار دائمًا ما يُقتل، فهل نهايته موت؟».

ربعيل: <<تحرري من قيودك وارحلي. سنحمل عنك وزر البحث عن عمير وعندما نعرف الحقيقة ستحررنا>>.

غزالة: <<ليكن الحق معكم... « تعرفون الحق والحق يحرركم»>>

ابتسمت غزالة وبدأت روحها بالإنقشاع والاختفاء رويدًا رويدًا، وأما ما تبقى من قماش فتحول إلى غبارٍ إلى أن اختفت واختفى القماش واختفت النار. شيئًا فشيئًا بدأت الكلاب والذئاب تعودي من بعيد... وكل لحظة كان عوائها يزيد ويطول... وكأن عوائها أصبح عويلا، وأخذت الريح تشتد والبرد يزيد... أصبح كل شيء طبيعي وعادت الصحراء لليلها المعتاد، وصوت نسرٍ من بعيد يخترق عنان السماء!

أما الرجال فكانوا صامتين. ساد صمت عميق... صمتٌ لم يسمع

ضرغام مثيلا له. صمتٌ لم يشعر به طوال حياته.

الرجالُ صامتون وكأنهم يتأملون هذا المشهد العظيم وقد تحررت روحٌ من قيود الدنيا، وانطلقت للحرية. لا بد أنهم بدورهم يتوقون للإنطلاق... للحرية. لعلهم يقولون في قرارة أنفسهم «ومتى دورنا؟ لقد سأمنا هذا السجن الطويل الطويل... ألم يحن بعد هروبنا من هذا القفص الموحش».

« ننا نحن أصحاب الأجساد نُقيد أرواحنا في جسدٍ فانٍ، في كومة أعضاء نستهلكها بشهواتنا وأفكارنا وأعمالنا الغريبة! ونسمي أنفسنا إنسانيون! بل نحن مجرد بشر متوحشون. أرواحنا مقيدة بهذه الأجساد سواء كانت قوية أو ضعيفة، جميلة أو قبيحة، بيضاء أو صفراء أو سوداء، صحيحة أو عليلة. نُقيد أرواحنا بكل وجع وألم... والأرواح تشعر بهذه الأجساد وتتألم معها. ثم متى ماتت أجسادنا تحكم على أرواحنا أين تذهب... فبعضنا تنطلق روحه للسماء وبعضنا تنطلق روحه للجحيم والبعض تائه... مُقيد هنا على الأرض... لا يمكنه الوصول لأي شي. ينتظر حُكمًا أو سببًا أو صلاة لتنفك قيوده وتنطلق».

كان ربعيل صامتًا بعد أن حقق أول شيء في مسيرته للحرية. ها قد أطلق روح إبنته وحمل عنها وزر البحث عن إبنها حاملا عنها

سر أصعب من أن يجده بشر أو روح. البحث عن لا شيء... لا بد أنه يفكر الآن بالورطة التي وضع نفسه فيها، ووضع رجاله أيضًا بها. كيف سيجد طفلا اختفى منذُ قرون؟

من عادة الآباء أن يحموا أبناءهم. يفدوهم بأرواحهم. وربعيل كان أمام خيارين لا ثالث لهما. إما أن يحمل بذاته قيد غزالة ويطلق روحها للحرية، أو أن يعرف سر غزالة ويترك روحها تحوم بحثًا عن ابنها وتبقى مقيدة إلى أن تجد بشرًا يساعدها على حل اللغز!

لكن أين البشري الذي يتمتع بصفات الإنسان؟

كان صمت ربعيل ورجاله مرعبًا. رغم كل العواء البعيد وصوت الريح والبرد، لكن كان صمت ربعيل ورجاله يخترق ضرغام... كان صمتًا حزينًا مؤلمًا يخترق روح ضرغام.

شعر ضرغام لوهلةٍ أنه قد مات وأصبح روحًا مثلهم. مُقيد بهذه القيود التي يعانون منها.

روحٌ لا تشعر بشيء إلا بألمهم وقيودهم.

كل الحواس معطلة... كل الحواس صامته... كل الحواس انتهت.

« ل هذا هو الموت؟» ...» هل متُ؟» كان ضرغام يفكر.

قطع ربعيل هذا الصمت الرهيب: <<لا... لست بميت. إنما أنت

في حضرة الروح. حضرة الحب والصلاة، لذلك تشعر بما نشعر به تمامًا>>. ضرغام: <<وأين ذهبت غزالة؟>>

ربعيل: <<إنها الآن في حضرة الحب والحرية. ما عادت مُقيدة>>

# الفصل العاشر

في تلك الليلة وبعد أن رحلت غزالة إلى حريتها، وعاد ضرغام وربعيل ورجاله للمخيم، كانوا معظم الوقت صامتين يحدقون في جمرٍ قليل، وقبل أن يحل الفجر بدقائق، قال ربعيل: <<لنذهب يا رجال، حان موعد الإلتصاق بأرضنا. القيود تطلبنا>>

ضرغام: <<وماذا عن عمير؟>>

ربعيل: <<لا مجال لمناقشة وضع عمير الآن! سنرجع غدًا وسنفكر بالموضوع ونجد حلا. بالحب سنجد الحل. إذهب يا صديقي واسترح في خيمتك وغدًا بعد أن يذهب الجميع للنوم سنلتقي كما كل ليلة هنا. كالعادة ابقى وحيدًا بعيدًا عنهم، وأما نحن فسنطلب من ريح الصحراء أن تعصف البرد، فيأوي الجميع لفراشهم، فنأتي إليك>>

واختفت الأرواح.

في تلك الليلة لم ينم ضرغام ولم يستطع النوم حتى بعد مغادرتهم، كان الأمر كثيرًا وكبيرًا عليه، كان أمرًا يفوق الخيال...

فوق التصور! كان سعيدًا ومرتعبًا، كان حزينًا ومضطربًا... اختلطت المشاعر عليه، لكن رغم هذه المشاعر المختلطة فقد كان يعرف أن السلام الداخلي في كينونته يتعاضم شيئًا فشيئًا بفضل ربعيل، صديقه الروحي... صديقه غير المرئي. ربعيل منح ضرغام الرؤية، علمه كيف يكون الحب والتضحية، منحه الإيمان، إيمان حبة الخردل، الإيمان الذي يُحرك الجبال، الإيمان الذي يحرر الأرواح التائهة في عالمٍ موازٍ، والأهم أنه يحرر أرواح البشر الذين يظنون أنهم أحياء وهم أموات. موتى يتحركون ويأكلون وينطقون.

«نحن موتى وإن كنا نعيش ونعتاش ونمارس بلا وعي الشهيق والزفير، موتى وإن كنا نأكل ونشرب ونملئ بطوننا!

حتى بعض القراء... يقرأون ويملئون أدمغتهم بكتبٍ تافهة.

لا يهم إن كنا أحياء بجسدنا ودمنا لكن المهم أن نكون أحياء بضمائرنا وأرواحنا، فإن أردنا أن نحيا فلا بد أن نكون أحياء فعلا. أن نفكر.. أن نختار.. أن نتأنس.. أن نولد كل يوم ولادة جديدة. ولادة روح وضمير. والولادة من روح لا بد أن تكون ولادة من حب. لا ينفع أن نولد مجددًا ويُكتب لنا حياة جديدة ونحن لا نزال ننظر للعالم كما كنا ننظر له بالأمس. الأمس ذهب

ولن يعود وأنت في الأمس ليس كما أنت اليوم ولا كما أنت غدًا. لا تكرر نفسك كل يوم. لا تعش لكي تملأ معدتك بشهيات الطعام وعقلك بتفاهات الكتاب وفمك وأذنك بتفاهات الكلام. لا بد من أن يكون الغد أفضل وأنا أفضل وأنت أفضل وإلا...»

كتب ضرغام هذه السطور ثم رمى بدفتره على السرير الآخر ورمى نفسه على السرير حيث ينام.

نظر للأعلى وقلبه يخفق بشدة، شعر بأن روحه تملئ كيانه، شعر بالإمتلاء، شعر بالشبع... شعور لا يوصف. لقد حرر فتاة. شارك في تحرير روحٍ مقيدة، لكنه أيضًا كان روحًا مقيدةً. هذه الفتاة تحررت وحررته، وهناك روحٌ أخرى لتتحرر تليها أرواح ربعيل ورجاله الأبطال الذين ينفذون أوامر مليكهم بصمتٍ وهدوء...

ونام

لم يكن نومه لفترة طويلة، كأنها دقائق فقط، وبعد الإفطار أعدّ ضرغام القهوة له وللمجموعة. أخذ يشربها على مهل كما قال نبي الرومانسية محمود درويش. كان الدكتور كعادته متنمرًا ووضيعًا...

الدكتور: <<أنت تشرب قهوتك على مهل. نريد أن ننجز>>

ضرغام: <<كل يوم أشربها هكذا! ونذهب للعمل في نفس الوقت

وننجز المطلوب منا دون أي تأخير>>

الدكتور: <<لماذا تشربها ببطء؟>>

ضرغام: <<القهوة يجب أن تُشرب بطريقتين فقط، إما لوحدك أو مع من تحب وفي فناجين بيضاء من زجاجٍ أو فخار. قد نشربها في فناجين ملونة تزيها ورود أو عصافير أو طيور أو زخارف جميلة، فهذا المشروب الرومانسي لا يجب أن يوضع إلا في فناجين تستحقه، والقهوة يجب أن تُشرب من هذه الفناجين بروية وعلى مهل، ويجب أن تأخذ الفنجان من شخص أعدها لك بحبٍ ورومانسية، فكل فنجانٍ يحدثك عن مودةٍ خاصة يكنها من يقدمها لك. أما أن تشربها في مقهًا أو في كاسات من كرتون فهذا إجرامٌ بحق القهوة. هكذا الحب الفاشل أو المحكوم بالفشل يوضع في غير مكانه، يمارسُ على عجل، ينتهي بسرعة بلا أدنى إحساس>>.

الدكتور: <<أنا أشرب قهوتك ولكن لا أُحبك>>

ضرغام: <<أنت تحب عملي. أنت تحب إنتاجي وما أقدمه لك. أنتم ربيتم لكي تأخذوا ما تحتاجونه من الآخر وبأي وسيلة حتى لو كانت بطرق غير أخلاقية من ناحية إنسانية ولكنها مشروعة من ناحية بشرية. أنت لا تحب الآخر لكنك تحتاجه ولذلك أنت

تمثل الفكر الذي قادكم لهذا المكان مرات ومرات ومرات... قد يكون سبب قدومك الآن مختلف لكن التفكير عندكم ما زال قائمًا على ماذا سآخذ من الشعوب الأخرى، وماذا سأستفيد بالمقابل، ماذا امنحهم ليحتاجوا دعمي. تفكير رأسمالي استعماري بحث>>

الدكتور: <<أصبحت عدوك الآن؟>>

ضرغام: <<أنت من حدد طبيعة العلاقة. نحن هنا لعمل ما. أنا أعمل لصالحك وفي قضية محددة، وأعلم أنك تملك رقبتي في قضية المنحة الجامعية. لكن أتعلم شيئًا، أنا لا أريدها. لا أريد أن أكون كلبك المدلل لأحصل على هذه المنحة. بمجرد ما تنتهي مهمتنا هنا سأقطع علاقتي بك>>

كان الدكتور ينظر لضرغام فاتحًا فاه، لقد توسعت عيناه والصدمة بادية على وجهه، كذلك وعيد. لقد نسف ضرغام آخر أملٍ له في المنحة! كان كل ما عليه هو أن يفتح فاه ويمد لسانه ويطأطأ رأسه ويهز ذيله ويُصدر ذلك الأنين الذي يترجى فيه عطف الدكتور. فيمد الدكتور يده ليلحسها ضرغام! لكن... لا.

الدكتور: <<أمتأكد من هذا الكلام؟>>

ضرغام: <<مئة بالمئة. لا أُريد منحتك>>

الدكتور: <<كيفما تريد، ما زال أمامنا بعض الأيام، لنرى ماذا يحدث!>>

وأخذ يرشف قهوته ويصدر مممممممممم.

ذهبوا لعملهم... وكل واحد فيهم أخذ يعمل المطلوب منه، ورغم النقاش الصباحي الحاد بين ضرغام والدكتور بقي ضرغام يعمل بجد كما كل يوم... كان الفريق يشعر أن ضرغام ما عاد يهتم... كان الفريق كله يشعر بأن ضرغام اليوم مختلف عن كل يوم.

وعيد: <<ما بك؟ لماذا تعاملت مع الرجل بهذه الوضاعة؟>>

نظر ضرغام لوعيد نظرة مطولة ثم قال له: <<أتعلم شيئًا؟ لا أريد التحدث بالموضوع. أنا وضيع ومتنمر، أنا لا أرغب أن أُفسر لك أو لأي مخلوق على هذه الأرض تصرفاتي. أتعلم شيئًا، يمكنك أن تذهب له وتخبره أنك تستنكر كلامي، وأن كلامي لا يمثلك ولا يعجبك وهكذا تضمن حصتك كاملة غير منقوصة من مخصصات هذا المشروع وتضمن السفر والمنحة والصداقة وكل ما تحتاجه>>.

وعيد: <<لا يا رجل أنا أُحبك، لا تتعامل مع الموضوع بحساسية شخصية، هو يمازحك وأنا أيضًا. أعلم أنه وضيع ومتعالي أحيانًا، ولكن حتى تضمن المنحة على الأقل تعامل معه كما يقول المثل:

« بوس الكلب على ثمه حتى تقضي غرضك منه» اذهب واعتذر منه الآن، ما زال الوقت أمامك، لا تخسر منحتك>>

ضرغام: <<لا. لن أُقبّل كلابًا ولا ذئابًا. ثم ما الذي دهاك لتهتم بي؟ أنت تقف إلى صفه في كل شيء سواء كان صحيحًا أو خاطئًا. أنصحك أن لا تقف مطولا معي فيحقد عليك ويقطع عنك المنحة>>

وعيد: <<براحتك، لكن لن أنسف فرصتي معه، سأكسب المنحة وأنت الخاسر>> وذهب

كانت نظرة وعيد لضرغام نظرة منتصر، هو يضمن بذلك أن المنحة ستكون له وأن ضرغام لن يحصل على شيء.

ضرغام لم يأبه ولم يكترث... في داخله كان يقول: «طوبى لمن يرتبون فوضاهم ويتركون لنا مساحة لنرتب فوضانا».

أكمل ضرغام عمله، ولم تظهر عليه علامات غضبٍ أو حزنٍ أو نية للإعتذار، فزاد استغرابهم وما زادهم دهشتهم أنه عمل بجدٍ أكثر، وأخذ يمشي ذهابًا وإيابًا كشابٍ مراهق يمتلئ بالقوة والعنفوان والطاقة، كان ضرغام يتصرف في المكان وكأنه يعرفه منذ سنوات طويلة وكأنه وطنه... وكأن المغر بيوت أقرباءه وجيرانه... كان لسان حالهم يقول «ماذا دهاه هذا اليوم؟».

فعلا كانت نظرة ضرغام للمكان مختلفة ذلك اليوم، كان ينظر للكهوف بكل اهتمام وقد شرد في خياله. كان يقول في ذاته: «لا بد أن هذا الكهف يخص رجلا من رجال ربعيل ولا بد أن ذلك الكهف سكنه رجل آخر، هناك ساحة صغيرة لا بد أن الأطفال كانوا يلعبون فيها، وفي الجهة الأخرى كهف أرضي لا بد أنه كان حظيرة لقطيع غزالة وهناك في الأعلى كهف واسع فيه فريسكو جميلة لا بد أنه مسكن ربعيل وابنته غزالة... حقًا أنه يرى المكان بنظرة مختلفة».

كان ضرغام ينظرُ للجبال فيرى وجه ربعيل وهو فارغٌ فاه، فكتب في دفتره فترة الاستراحة:

«فرق كبير أن تفتح فمك لقول الحق وانتصارًا للحرية، وبين أن تفتحه لقول الكذب وانتصارًا لحريتك في التنمر على باقي البشر واستغلالهم والسيطرة عليهم بأي شكل مهما كان. قائل الحق وقائل الكذب كلاهما يملكان فمًا... ولسانًا... وموقفًا... ورأيًا. كلاهما يملكان الحجة. كلاهما يقفان مدافعين عن حق ما يظن كل طرفٍ أنه يملكه. اذا كان ربعيل يملك حجة الدفاع عن أرضه وشعبه ومعتقداته وتقاليده ضد المعتدين، فإن الدكتور يمثل في مرجعيته حجة من يملك الدفاع عن المدنية والتقدمية

والليبرالية ومد جسورها بوسائلهم الخاصة نحو كل العالم. المدنية والتقدمية والليبرالية مصطلحات حديثة لكن لها جذورها في التاريخ، فكانت تعني قديمًا حق القوي في أن يسيطر على أراضي وممتلكات الشعوب الأخرى، فيبيدهم، ويأخذ النساء سبايا والأطفال غلمان وعبيد، ويجعل معابد الخاسر مرابض خيول المنتصر، ومكب نفاياته، في إهانة متعمدة لمعتقدات الآخر، وبيوتهم مقر لجنودهم إن سلمت من نهب وحرق، وقصورهم وخدمهم ملك اليمين، ولا بد أن تتغير ديانات الشعوب المهزومة، وأفكارهم، وعقائدهم، أو يدفعوا في المقابل ضرائب، ولا بد من أن يطمس تاريخهم ويزور ماضيهم. لذلك وصلتنا الصورة مشوهة، وكُتب التاريخ مبتورًا غير سليم في تركيبه، وترابطه، ومنطقيته، ثم جاءت بعد ذلك الثورة الصناعية والتحرر في أوروبا فدخلت المدنية والتقدمية والليبرالية على شكل استعمار، وبعد الحرب العالمية الثانية دخلت من بابٍ آخر، وهو تملّك الثروات، فما فوق الأرض وما تحتها لا يستطيع صاحب الأرض استغلالها لأنه ما زال يجهل الكثير من العلم والمعرفة، ولا يملك الأدوات والفكر والخبرة، فيأتي هذا اللص بزيٍ يختلف عن زي الأمس. لا يحمل بيده سلاحًا ولكنه يخفيه خلف ظهره، ويقدم لك الحلول. يقول

لصاحب الأرض أنا أملك العلم والمعرفة والأدوات والخبرة وأنت تملك الثروة والأرض، لنتعاون، ونتقاسم. هو ساهم في تجهيلك لتكون تحت إبطه، وأنت ساهمت في رفعته لأنك مُسير لا مُخير. لم يتغير شيء من ماضيك أو دينك أو فكرك أو أي شيء، كلها ما عادت تهمه، لأنها لا تسهم في قوته، بل يريدك عبدًا لهذه القضايا ومنتشيًا بها، ما يهمه أن تكون أنت متعلق بماضيك لأنك ستدخل في صراعاتٍ دينية وطائفية وعشائرية وقبلية وغيرها. سيبقى هو مشغول بثروتك، وأنت مشغول بخلافاتك، وعندما يتدخل يقول لك: فقط لنتفق ونتقاسم ما تملك وأنا أُحميك من أعداءك. فإن قَبِلَ نال جزءًا من الثروة وإن رفض نال غضب القوي. وصاحب الأرض ضعيف لا يملك أن يقول لا في وجه من يملك المدنية. المدنية في هذا العصر شر لا بد منه. التقدم في هذا العصر بلاء... واحتلال من نوعٍ آخر. لكن... من يستطيع أن يقف في وجه فيضان جارف؟ هكذا المدنية والتقدم... تكون أنت الفيضان إن امتلكتهما أو ضحية الفيضان إن كنت رجعيًا. لذلك أكتبُ عن الفم.. الفم مصدر الكلام ومصدر الإدانة. ربعيل والدكتور كلاهما يفتحان فمهما، الأول من هول الصدمة، والثاني من هول الوضاعة. الفم وسيلة، واللسان رسالة، فإن فتحت فاك

للحب وحركت لسانك للخير ستكون أسطورة وبطل، وأن فتحت فاك للتنمر وحركت لسانك للشر فستكون غبيًا يحمل شهادة!»

بقي ضرغام ينظر لصديقه المسمر على الجبل، كان يقول له في سره: «نم يا صديقي، قريبًا سنعرف سر عميرونحرره. استرح يا صديقي، فبعد أيام ستحرر جنودك وتتحرر أنت أيضًا، وتنتهي من حملك الثقيل، وترحل إلى حيث تُقيم أميرتك وابنتك الحبيبة غزالة. أعدك يا صديقي أن لا أترك هذا المكان إلا ونحن جميعًا أحرار».

كان أحد رجال ربعيل قد التصق على جبلٍ خارج المدينة وقبل بوابتها الضيقة وكأنه يحرسها.

نعم لم يكن الزوار والسياح يزعجونهم إلا بالتصوير والصعود على أكتاف تلك الجبال، وبعض القذورات هنا وهناك.

بينما ضرغام والمجموعة يغادرون ذلك المساء المكان للمخيم نظر ضرغام للجندي وقال: «أنت أيضًا يا صديقي الصامت ستتحرر. ستحرر أيها الجندي المخلص وستتركون هذا المكان للزوار والسياح. ستبقى قصة المكان مجهولة لأن من كتبها سابقًا وحاليًا ليس إلا مغمور مغرور. هم لا يعرفونكم على حقيقتكم النقية. لا أحد منهم كلف نفسه معرفة الحقيقة أو كشفها، الحقيقة التي

ستبقى في غياهب الزمان. وإن نجح الأغراب برسم قصةٍ مغايرةٍ عنكم فلا يهم. المكان سيبقى المكان، وأنتم أصحاب المكان، وكل محتلٍ وغازٍ ستكشف الآثار المطمورة يوم ما حقيقته وحقيقة ما حدث... وإن تأخرت!».

في المساء تجمع الفريق على العشاء وبينما كانوا يأكلون المقلوبة الشهية سأل ضرغام بعض طلبة المجموعة متجاهلا الدكتور ووعيد سؤالا:

<<برأيكم كيف يمكننا بناء قصة المكان بواقعية أكثر؟ أقصد نحن نعرف هذا المكان من الرحالة والمستشرقين، وسمعنا قصص من السكان المحليين تعود لبعض العشرات من السنين أو أكثر، ولكن هل يمكننا معرفة المزيد عن السكان الأصليين؟>>

ضحك الدكتور فضحك الفريق كله وكأن ضرغام قد تفوه بنكته... لكن الضحكات هذه المرة كانت بأسلوب استهزائي واستهجان. كان لسان حالهم يقول ماذا دهى هذا الرجل الحاصل على شهادة في الآثار يتحدث عن شيء كأنه لم يدرسه!

وعيد: <<وكيف يمكن الوصول للسكان الأصليين؟ هل تعرف أين هم؟>>

ضحكوا مجددًا

ضرغام: <<لا... لا أعرفهم. هل يمكننا أن نكون جديين لبعض الوقت؟>>

وعيد: <<حسنًا... لنكن جديين. هات ما عندك>>

ضرغام: <<ما بُني من قصة المكان عن هذا الموقع الصغير أو حتى المكان الكبير يكاد يكون ناقص... مشوه... يمتلئ بالفراغات... الكثير منه غير مبني على أسس صحيح أو حقيقية يُعتد بها. لذلك لا أقتنع بمعظمها. فما السبيل لمعرفة قصة المكان بدقةٍ أكثر؟>>

الدكتور: <<سأجيبك أنا>>

مضغ اللقمة بعد مممممممم طويلة ثم قال: <<سنطلبُ من الموتى أن يقوموا من قبورهم ويخبروننا أو بالأحرى يخبروك أنت... وأنتَ تخبرنا>>

ملأ الخيمة الكبيرة بضحكات الجالسين على الطاولة وأخذ كل من في المخيم ينظر للطاولة...

الدكتور: <<و...و... وعليك في بادئ الأمر أن تجد قبرًا فيه بقايا أحد السكان الأصليين ثم تستحظر روحه ويخبرك الحقيقة ثم ترويها لنا>>

ضحكوا مجددًا... أما ضرغام فكان يمضغ الطعام وهو ينظر لهم

مفكرًا: «كيف لو عرفوا أن ما يستهزئون به قد حدث بالفعل؟ أنهم يستهزئون ويضحكون! لا بأس... لن تتغير عادتهم. الطبيعة تغلب التطبع. القطيع يتبع المرياع، والمرياع يتبع الحمار!>>.

بعد توقف الضحكات والاستهزاء، توجه وعيد بالكلام للدكتور قائلا: <<لقد كشفت إحدى البعثات مخطوطات ذات أهمية كبيرة قرب الكنيسة البيزنطية فلا بد أنها تعطينا رواية مهمة عن السكان في فترة بناء الكنيسة أو إقامة الشعائر فيها>>

فجأة تحول الموضوع من هزلي إلى جدي، وأخذ وعيد والدكتور يتناقشان وكأن ضرغام غير موجود.

الدكتور: <<ما قصة هذه المخطوطات. أتعلم عنها شيئًا؟>>

وعيد: <<نعم نشر دارسوها وهم من جامعة أمريكية عدة دراسات عنها بعد أن رموها. عندما وجدت كانت تعاني معظمها من تلف شديد، لكن بعد الترميم، قام الباحثون بترجمتها وهي تُشير للوضع السياسي على ما أظن وأحداث تتعلق بالتأثير المسيحي على هذا المكان>>

الدكتور: <<هل بينها شيء ما يتعلق بما قبل التأثير المسيحي؟>>

وعيد: <<لا أعلم لكن ما أعرفه أن الرومان وكذلك البيزنطيين

أجروا أحصائيات للسكان مرات عدة وكانت هذه المنطقة واقعة تحت سيطرة الرومان ثم البيزنطيين، وأن عددًا من المخطوطات كانت تحمل اسماء السكان وأعدادهم وكانت مفصلة بطريقة ممتازة جدًا. ولعل هذا طلب ضرغام بما يخص كتابة قصة المكان بصورة أكثر واقعية لكنها احصاءات لا تقدم الكثير من المعلومات>>

لم يستطع ضرغام أن يمنع نفسه من الدخول بهذا النقاش الذي تحول فجأة إلى نقاشٍ جدي.

ضرغام: <<قصة المكان تهتم بكل شيء ليس فقط العقيدة واللغة والكتابة وفن العمارة والمهن واسماء الملوك والقادة لكنها أيضًا تهتم بتفاصيل السكان وأعمالهم وعاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم ومعاملاتهم وغيرها. نعم نحن نملك اسماء الملوك وفن العمارة والنحت والكتابة والعبادات الأساسية لكن هذه الأمور لا تعطينا قصة الحياة والعيش>>.

وعيد: <<نحن نملك معلومات قيمة عن بعض هذه الأشياء ومنها سبب نزوح السكان الأصليين نحو الشمال>>.

الدكتور: <<لكن بقي بعض السكان هنا بدليل أنه وجدت كنيسة بيزنطية>>.

وعيد: <<صحيح. ويبدو أن السكان هناك لم يكونوا فقط مسيحيين بل بقي بعضهم على وثنيتهم، فبعض المؤرخين القدماء قالوا أن آلهة المنطقة كانت تُعبد لفترات متأخرة>>.

الدكتور: <<لم يدخل الجميع إلى المسيحية>>.

وعيد: <<نعم، بقي البعض على وثنيتهم>>

الدكتور: <<يمكننا القول أن الناس العاديين في هذا المكان لم يتأثروا كثيرًا بعقيدة البيزنطيين، لكن لا يمكننا كتابة تفاصيل أكثر من ذلك بما فيها الحياة اليومية للعامة، لأنها ستكون معلومات كثيرة جدًا وليست ذي جدوى، ثم أن ما نريده يمكننا الوصول إليه بتحليلات ما يكتشف من آثار جديدة كالمخطوطات أو النقوش أو عملات أو مدافن>>.

ضرغام: <<هل يمكن أن نجد يومًا ما مخطوطات تتحدث عن سيرة ملكٍ سكن هذا المكان؟>>

وعيد: <<ممكن. ما الذي يمنع؟ المهم أن نجدها سليمة قدر الإمكان، لم تتعرض لتلفٍ طبيعي أو تلفٍ ناتج من عبث لصوص الآثار. لكن المخطوطات تقدم لنا شيء جيد بالإضافة للكتب التاريخية المعاصرة لتلك الفترة>>.

ضرغام: <<وعيد، لقد قلت أن هناك إحصائيات. كيف يمكنني

الوصول إليها؟>>.

وعيد: <<أعلم أن إحصاءً سكانيًا جرى للسكان في الشرق عدة مرات أحدى أيام الرومان فترة الإمبراطور أغسطس قيصر وإحصاءً آخر في عهد المسيحية في عهد هرقل بعد أن فقد مصر وبلاد الشام، وإحصاء للسكان في الفترة الأموية جرى في فترة متأخرة وقرأت أن الإحصائيات كانت موجودة في بيت الحكمة أي مكتبة بغداد وأن من أهميتها أنها أُخفيت مع كتبٍ نادرة أخرى أثناء إقتحام المغول لبغداد من قبل رجلٍ مثقف يدعى نصير الدين الطوسي الذي تمكن من نقل قدرٍ من كُتب بغداد إلى مدينة مراغة، وأنشأ فيها دارًا جديدة للحكمة. ثم نقلت في عهدٍ آخر لإسطنبول>>

ضرغام: <<أيعقل أن نجد هذا الإحصاء؟>>

وعيد: <<نعم موجود في مكتبة السليمانية ومكتبة بايزيد في اسطنبول وهناك احصاء آخر جرى في القترة العثمانية واستطاع باحثون أن يربطوا بين الكثير ممن ورد اسمائهم في احصائية الامويين واحصائية العباسيين واحصائية متأخرة جرت في العهد العثماني، وجميعها تم أرشفته من قبل الحكومة التركية قبل عقود على الميكروفلم ثم تم ارشفتها مجددًا على حواسيب

حديثة لتكون متاحة للباحثين، وبناءً على هذه الاحصائيات التي تعتبر مستندات عظيمة تم اتخاذ قرارات هامة في محاكم محلية ودولية أعادت حقوقًا لأصحابها أو نزعت ممتلكات أو ألقاب من أصحابها>>

ضرغام: <<وهل من المسموح الإطلاع عليها؟>>

وعيد: <<طبعا. تحتاج فقط لتقديم طلب، وغالبًا بعد دراسته يمكنك الإطلاع على ما تحتاجه منها لأنها ضخمة جدًا. واذا اردت نسخة من جزء منها يعطونك نسخة مدفوعة الثمن>>

ضرغام:<<أعتقد أنها تحتوي على معلومات قيّمة جدًا قد تغيير الكثير من قصة المكان، لا بل قد تُغير وتبدل من تاريخ المنطقة لو تم الكشف عنها>>

وعيد: <<لا. إنها لا تقدم تاريخًا مدونًا عن أحداث، إنها تقدم احصائيات لسكان أماكن واسماء قبائل وجماعات وأعداد السكان وهكذا. نعم ربطوا اسماء وردت فيها بأحداث معينة كما ربطوا تواجد جماعة ما في مكان ما لسبب تاريخي لكن حسب علمي هي مخطوطات ذات طابع احصائي وليست تاريخًا>>

الدكتور: <<وما الذي يجعلك تهتم بهذا الأمر كثيرًا>>

ضرغام: <<لا شيء أنه فقط الفضول>>

ثم فتح وعيد موضوعًا آخر في نية لإغلاق النقاش الجدي، ليتحول النقاش إلى تنمر جديد، أما ضرغام فكان يأكل وهو شارد الذهن يفكر في الحوار الأول الجدي بينهم وكيفية استغلال هذه المعلومة لمعرفة قصة عمير أو أي شي قد يدله عليه.

هل يمكن أن يستفيد من هذه المخطوطات في الاستدلال لموقع عمير؟

تذكر أن له صديق اسمه واثق يدرس الدكتوراة في اسطنبول وهو مهتم مثل ضرغام بالتراث المادي وغير المادي للشعوب، إذا لا بد أنه سمع عن تلك الإحصائيات، لا بد أن يشحن هاتفه بشكل جيد ويجري معه اتصالا غدًا صباحاً عندما يخرجوا للعمل ويلتقط هاتفه إشارة خليوية. سيسأله عن تلك المخطوطات وعن الحواسيب التركية وهل يستطيع الولوج إليها؟

في اليوم التالي بعد أن ذهب كل واحدٍ إلى عمله نظر ضرغام لهاتفه فوجد إشارة ضعيفة فقرر إرسال رسالة نصية عبر تطبيق الواتسآب لرفيقه:

<<واثق هل سمعت بمحتويات مكتبتي السليمانية وبايزيد باسطنبول؟ هل لديك معلومات عن عملية أرشفة وحوسبة مخطوطات الإحصاءات السكانية التي جرت في عهود سابقة.

أرجوك أن تتأكد من وجودها أو أنها إشاعة أو مبالغة في حجم ونوع المخطوطات>>

ظهر واثق فورا

<<نعم صديقي، اطلعت على الكثير منها أثناء الدراسة وما زلت>>

<<هل هناك فعليًا مخطوطات عن احصاءات سكانية جرت في العهد العثماني والعهد البيزنطي لسكان هذه المنطقة؟ أم أنها مبالغة في تسمية العملية بعمليات إحصائية؟ هل الأرشفة تمت بشكل علمي أم فوضوي أو منقوص؟ الأمر مهم>>

<<نعم هي موجودة وحجمها ضخم جدًا، وتم أرشفتها في مطلع العشرينات على الميكروفلم ثم بعد ذلك تم حوسبتها بطرق علمية وفنية دقيقة على حواسيب حديثة. لكنها بصراحة من الضخامة ما تحتاج لعشرات السنين لمعرفة محتوياتها كلها. المخطوطات التي تتحدث عنها جزء كبير منها مؤرشف بشكل جيد تستطيع قراءته>>

<<أنا الآن في الصحراء في الجنوب، هل تظن أن سكان هذه المنطقة قد شملهم احصاءات البيزنطيين والأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين>>

<<أظن كذلك حتى أن بعض الاحصاءات تتحدث عن احصاء البدو المتنقلين فما بالك بسكان ثابتين. وهناك الكثير من الخرائط التي تدل على المواقع، مفيدة جدًا في البحث عن الآثار. الفضول جعلني أبحث عن سكان مدينتي وقد تتبعت جدودي حتى فترات قديمة. لن تصدق ما اكتشفته عن ماضي عشيرتنا>>

<<سنتحدث عنها لاحقًا. الفضول يقتلني لأعرف عن سكان هذه المنطقة وسكان المناطق الشمالية منها. هل تظن أننا نستطيع أن نكشف شيء منها>>

<<يمكنني الولوج لحواسيب المكتبتين في أي وقت، أنا الآن في عطلة واستطيع أن أساعدك. هل هناك شيء معين استطيع مساعدتك به، لكن من المهم أن تكون دقيق في معلوماتك لأختصر البحث. المخطوطات ضخمة ولا يمكن البحث فيها كلها>>

<<حسنًا احتاج إلى أن أعرف مبدئيًا من أي فترة مؤرشف تاريخ الأنساب والقبائل واحصاءات سكان المنطقة التي أعملها فيها وجوارها>>

<<سأعمل على زيارة المكتبة بعد قليل، وسأطلعك على الجواب

فور معرفتي به>>

انتهت المحادثة بينهما لكن كان عقل ضرغام مشغول وهو ينظر لتلك الكهوف التي رأها اليوم كئيبة حزينة على غير عادتها. كأنها اليوم فقط عرفت أن سكانها رحلوا، وأن أمر عودتهم لها محض هباء، اليوم علمت تلك الكهوف أن لا أمل بعودة الأجساد إلى تلك الأرواح الهائمة، الأرواح التي تسكنها ولا تسكنها.

إن تلك الكهوف تنظرُ لضرغام باشمئزاز فهو ذلك الرجل الذي يأتي يوميًا لهذا المكان يشارك عن قصد في تحرير الأرواح! اذا هو عدو لتلك الكهوف. آه لو تستطيع تلك الكهوف المشرعة للزوار والسياح أن تبتلع هذا الضيف المُخرب، أن تمتصه للداخل وتحبسه للأبد فلا يستطيع أن يحرر تلك الأرواح! أن تحوله لجدارٍ أو تمثالٍ فيتوقف عمله، لكنها لا تستطيع أن تفعل شيء دون سكانها.

لا بد أن الكهوف تؤمن بعودة الأرواح لأصحابها وأنهم سيعودون يومًا، لكن هذا الرجل الهائم تحت أشعة الشمس الحارقة، والذي يتحرك جيئًا وذهابًا أمامها، لا بد أنه محميٌ بقوة ما.

جلس ضرغام على باب كهفٍ يستظل تحت نتوء جبلي يقيه حرارة شمس الظهيرة، وأخذ يكتب:

«يؤسفني أيتها الكهوف والمغر أن أخبرك أنهم لن يعودوا وأن الماضي ماضيًا ولا يحتمل العودة.

يؤسفني أن أُخبرك أن ساكنيك قد ولوا عن عالمنا... فروا... ولا مجال لعودتهم! لماذا يعودوا؟ عالمنا لم يتغير كثيرًا عن عالمكم، لكنه مع الحداثة والتكنولوجيا الحربية والقتالية أصبحنا أكثر توحشًا وأقل إنسانية... في حروبكم التي استخدمتم فيها السيف والرمح والقوس والنبال قتلتم الكثيرين، لكن كم كنتم تقتلون في ساعة؟ بضع مئات؟ نحن نتفوق عليكم، نحن نقتل بقنبلة واحدة موجهة عبر أحدث التكنولوجيا وبطائرة بلا طيار المئات بل الألوف وخلال ثوانٍ معدودات، اذا أيتها الكهوف اعتادي الوحدة أو تحرشات الزوار لكِ بضع ساعاتٍ في اليوم، لأن الأحباب رحلوا ولن يعودوا أبدًا».

نظر ضرغام لأعلى وشاهد بعض الماعز الجبلي يقتحم كهفًا علويًا...

«لا بد للكهوف والمغر أن تعرف أنها مُشرعة للريح... للغبار... للعصافير... للكلاب والماعز الجبلي... للخراف والبهائم... وأن بعضها متاحٌ للزوار. لكنها لن تصبح مأهولة بسكانها الأصليين أبدًا.

يؤسفني أن أقول للكهوف والمغر والجدران والمذابح وذو الشرى واللات والعزة وللقبور الفارغة والمسلات ولكل تلك المعالم أن سكان هذه البلاد لن يعودوا... لقد ماتوا. تركوا كل هذه الآثار ولم يبق منهم أحد يخبرنا عما حدث.

الحدث الذي قد يدلني على عمير! لكني كباحثٍ عن إبرة في كومة قش. يقول الفاشلون: «اشعل القش فتجد الإبرة في كومة الرماد»، لكن لكثرة القش وشدة الحرارة ذابت الإبرة وما عاد لها وجود فعلي.

عن ماذا نبحث هنا؟ عن طفلٍ من ماضٍ سحيق. عن مجهولٍ لا نعلم سوى أنه طفل ذكر اسمه عمير وأمه اسمها غزالة أميرة من هذه الصحراء وأبوه اسمه استيفان جندي من أهل أقصى الشمال لكنه كان يخدم في سريةٍ شمال هذه الصحراء في منطقة عشيرة عزيزولات. هذا كل ما نعرفه».

# الفصل الحادي عشر

**بينما كان ضرغام يتناول العشاء رن هاتفه بصوت رسالة على الواتسب! استغرب الجميع أن هاتفه التقط إشارة ورن في الصحراء حيث لا إشارة خليوي.**

**واثق: <<هذه عودتي لشقتي من المكتبة، لقد وجدت الكثير من الاحصائيات واسماء مدن وقرى وسكانها ووظائفهم والكثير من التفاصيل والاحصائيات منها ما يعود للفترة الرومانية ومنها ما يعود لفترات بيزنطية متعددة وفترات إسلامية، سأرسل لك بالبريد الإلكتروني مخطوط من عدة صفحات يعود للفترة الأموية عن المنطقة التي تتحدث عنها لعلك تستفيد منه، ومخطوطات عثمانية قديمة وحديثة اذا أردت المزيد سواء ما قبل هذا المخطوطات أو غيرها أبلغني. أنا متفرغ تمامًا هذه الأيام>>**

**سار الفضول لدى المجموعة كيف ومن أين وصلت ضرغام رسالة الواتسب، أخبرهم أنها رسالة تحية من صديق، فبدأ تنمر جديد**

من طرفهم لكنه لم يهتم، لم يتحدث، لم يعلق... فانتهى التنمر سريعًا.

فتح ضرغام البريد الإلكتروني وكانت هناك صور لمخطوطات كُتب بخط الثلثين واضح لكنه خط عريض. وبجانب المخطوطات شروحات وكتابات توضيحية وهناك مخطوطات عثمانية كتبت باللغة التركية القديمة وأيضًا شروحات وتعليقات باللغة العربية بجانبها... بدأ ضرغام بمطالعة المخطوطات... كانت هناك تفاصيل لا تهمه... أكملت المجموعة طعامها وذهب كل واحد منهم لتفاصيل حياته إلا ضرغام بقي يطالع تلك المخطوطات... ساعات وساعات طوال وهو يقلب المخطوطات.

إلى أن وقع نظره على تفاصيل قبيلة تسمى بقبيلة العميريين. لكن لا مزيد عن هذه القبيلة ولا عن أعدادها ولا عن أي تفصيل عنها.

عاد يبحث مجددًا... فوجد في مخطوط آخر أن قبيلة تحمل نفس الاسم كانت تقطن شمالا في المنطقة التي يشك أنهم يقطنون فيها. اذا لا بد أن هناك إحصاء ومعلومات عن هذه القبيلة في مخطوطات أخرى. بعث ردًا على البريد الإلكتروني لصديقه أنه بحاجة لمخطوطات فيها تفاصيل حول تلك القبيلة

في فترات أخرى... فإما أنه مخطوط سابق أو لاحق.

في الصباح الباكر وبعد ذهابهم للعمل وما أن إلتقط الهاتف إشارة حتى وصلته رسالة من صديقه أنه وجد ضالته، وطلب منه أن أيجهز حاسوبًا محمولا لأنه سيرسل مخطوطات ذات حجم أكبر وأكثر ولا ينفع فتحها عبر الهاتف النقال. طلب ضرغام من رجلٍ كان يساعدهم في العمل من السكان المحليين أن يستأجر له حاسوبًا محمولا لعدة أيام على أن يسدد ثمن استئجار الحاسوب المحمول عند انتهاء المهمة، فكان الرجل كريمًا وأعطاه حاسوب ابنه المحمول دون مقابل. وفي المساء بعث صديق ضرغام الكثير من المخطوطات وكان ضرغام ينزلها على الحاسوب ليتفقدها لاحقًا.

في ذلك المساء أخذ ضرغام يفتش ويبحث في هذا الملفات الكثيرة والكبيرة كان يقرأ الكثير من التفاصيل عن القبائل وأماكن سكناها والأراضي التي لها وأملاكها وبيوتها وقراها وحتى أطوال أراضيها وعرضها والدواب التي تملكها ومن أشهر أعيانها وأشهر فرسانها وجنودها وكيف أغار البعض على الآخر وتفاصيل كثيرة جدًا بما فيها أغلال الأرض وثمارها وأوزانها وأيام الرغد وأيام الجفاف... وخرائط كثيرة جدًا.

«متى سأقرأ كل هذا؟ كيف سأجده؟» قال ضرغام في نفسه

الدكتور: <<ماذا تقرأ؟>> ونظر إلى حاسوب ضرغام ثم قال: <<أه أنها مخطوطات... جميل. عن ماذا تتحدث هذه المخطوطات؟>>

ضرغام: <<عن سكان هذه المناطق>>

الدكتور: <<أنت مُصر ومستمر بالبحث عن قصة مكان هذه البقعة من الأرض>>

ضرغام: <<نعم... نوعًا ما>>

الدكتور: <<رغم أن ما تفعله جميل لكن بحثك لا معنى له. اذا ظننت أنك ستضيف شيئًا لمشروعي البحثي بهذه المخطوطات فأنا لا أهتم. أنا أهتم بأن تعمل على نتائج مشروعي فقط. دعنا نركز على ما بين أيدينا>>

ضرغام: <<لا علاقة لمشروعي بمشروعك، أنا أبحث لنفسي وفي وقت فراغي، مشروعك أعطيه اهتمامي، لكن مشروعي مختلف. مشروعك سينتهي خلال أيام وأما مشروعي فهو للمستقبل. في فترة استراحتي أنا أعمل على مشروعي ولكن إن أردت شيء ما بخصوص مشروعك فأنا جاهز>>

الدكتور: <<أفضل أن تركز فقط على مشروعي>>

ضرغام: <<مشروعك يأخذ ما يحتاج من اهتمامي ووقتي المتفق عليه بيننا، غير ذلك لا علاقة لك بمشروعي وهو أمر خاص بي ولا تتدخل بما لا يعنيك>>

الدكتور: <<سيتأثر عملي>>

ضرغام: <<أنك تتدخل فيما لا يعنيك، هذا وقتي الخاص. كف عن التدخل فيما لا يعنيك>>

عندما شعر الدكتور أن لا سبيل لثني ضرغام عن حريته واستقلاله تركه غاضبًا ورحل عنه، وهو يتوعد.

بعد أن ذهب الكل لفراشه طلب ضرغام شمعًا من موظفي المخيم وجلس في خيمته يتصفح المخطوطات ويفرز تلك التي تتحدث عن العميريين مخطوطًا مخطوطًا، وكان يسجل ملاحظاته فيعود لمخطوط سبق واطلع عليه ثم يذهب لمخطوطٍ آخر، ثم سمع طرقًا خفيفًا على باب الخيمة...كان ربعيل. جلس القرفصاء بجانب ضرغام

ربعيل: <<ما بالكم أيها الأحياء ملتهون بهذه الأجهزة الحديثة؟>>

ضرغام: <<نعم أنت صادق لكن هذه التكنولوجيا أصبحت جزءًا من حياتنا. إنها أسلوب حياة. عالم افتراضي آخر نعرف

فيه أخبار الناس>>.

ربعيل: <<بل لديكم نقص في معرفة أخبار الناس وهذا تواصل غير حقيقي>>

ضرغام: <<لا يهم... أنا أستخدمه في دراساتي وأبحاثي وكتاباتي وقلما أتواصل مع الناس به! هل تعرف لماذا أستخدمه الآن؟ أنا أبحث عن عمير>>

ربعيل: <<وكيف تبحث عن حفيدي بهذا الشيء؟>>

ضرغام: <<هذه مخطوطات كُتبت قبل سنوات وقرون ومنها ما يُشير لقبائل وعشائر، كذلك حروب وممالك... فيها معلومات قيمة لو تم ربطها بطريقة صحيحة. بخوارزمية دقيقة وهذه لعبتي>>

وبدأ الأخير يقرأ له بعض الأنساب وحركة هجرتها وربعيل يرشده إلى الصحيح منها وإلى إهمال البعض الآخر، وكان ضرغام يسجل ملاحظات في دفتره، كان يخبره عن خيوط مهمة، كيف تداخلت القبائل وأين اندمجت الناس وأين تفرقت وأين اختفى الكثير منها ولماذا وكيف.

كيف ذابت مجتمعاتٍ في مجتمعات أخرى بعد رحيلها للشمال وبعضها للجنوب والبعض للغرب والبعض للشرق.

إن هذه البقعة الواسعة من المنطقة كانت محط اهتمام الكثير من الشعوب ولذا حاولت جيوش جرارة وقبائل متعددة السيطرة على أكبر مساحات فيها.

سأل ضرغام ربعيل عن سر هذه الصراعات؟

ربعيل: <<إنها منطقة طرق لتبادل احتياجات الامم، ومنطقة في الوسط ترتاح فيها القوافل، ومنطقة عبادة. فالآلهة كلها ولدت هنا أو عبرت من هنا وقدست كل هذه البقاع، ونحن شعبٌ مؤمن وندافع عن أرضنا وعرضنا وآلهتنا بدمائنا. منذ أن ورثنا هذه الأرض من أجدادنا اتفقنا أن نكون مسالمين، فنسمح للقوافل أن تمر عبر أراضينا مقابل دفع ضريبة الحماية ومنحنا للهاربين واللاجئين من القبائل الأخرى الحماية وسمحنا لهم بالإقامة وتركنا لهم حرية العبادة واعطيناهم من ماءنا وغذائنا، رغم شح الماء في مواسم كثيرة فهذه البقعة من الأرض والمحاذية للصحراء تعطينا حسب قلوبنا، لا تبخل على الكرماء، والبسطاء، والأنقياء. إنها صحراء فاضلة يا صديقي صحراء فاضلة. حتى إننا كنا نمنح الماء الزلال بالمجان للقوافل التي تعبر ولكننا كنا نبيعه بيعًا لهم إن أرادوا التزود منه كمؤنة للسفر، وهذا كله جعلنا أغنياء، وفي نفس الوقت محط طمع الكثير من

القبائل والممالك والشعوب الأخرى حتى البعيدة جدًا عنا>>

ضرغام: <<أنتم شعب مثقف مقارنة بالكثير من الشعوب في تلك المرحلة وتدل النقوش على ذلك، ولقد قدمت تلك النقوش والمسكوكات معلومات جيدة لنا عن أجدادك الملوك، ونعلم أن قوتكم كان يُحسب لها حساب في فترات متعددة>>

ربعيل: <<وصلت مملكتنا في أوج قوتها إلى أكبر اتساع لها، فحكمنا شمالا حتى نهر باراديوس المقدس و جنوبًا إلى الحجر المقدس، كنا حراس الصحراء الفاضلة وسكانها، وكنا نعقد سلامًا وتجارة وتحالفات مع كل جيراننا ومع ذلك حين تمادى بعضهم حاربناهم بقوة وبسالة>>

ضرغام: <<لا تقدم هذه المخطوطات الشيء الكثيرعن تفاصيل معينة ولا عن أسباب انقسامكم رغم أنه مذكور في التاريخ ولعل المخطوطات هنا غير واضحة في بيان أسباب نهاية مملكتكم وذوبانكم في المجهول! كنتم شعب قوي متماسك غير منعزل ثم فجأة رحل معظمكم للشمال ودخلت المنطقة في صراعات وذاب الشعب في الشمال مع سكان الشمال، أما من بقي في هذه الديار فلا أخبار عنكم. اختفيتم هكذا بلا أي سبب>>

ربعيل: <<إن أردت أن أخبرك الحقيقة فكل الظروف عملت على

نهايتنا. أخي آخر الملوك كان صغيرًا عندما قرر النزوح للشمال وجازف بشعبنا بقراره هذا ورحل معظم الشعب معه وكذلك الجيش، في تلك الأثناء جاء عبر البحر قوم بيض قساة ذوي بأس عظيم من أقصى الشمال البارد واحتلوا أرض أصدقائنا سكان ضفاف نهر إيتروعا وعاثوا بأرضهم فسادًا وكانوا أيضًا قد سيطروا على الشمال وسكنوا مملكة أخي الشمالية وأصبحت تابعة لهم، لقد أصبحت الأرض والبحر والأنهار تدين لهم، وهكذا فقدنا كل من كنا نتقايض معهم احتياجاتنا واحتياجاتهم، وفقدنا أهم طرقنا التجارية، كان الفقر والمجاعة والعطش وجيوش جرارة تقف على أبواب عاصمتنا التي خربها الزلزال والطوفان، أما أنا فقررت البقاء هنا وشاركني القرار البعض القليل من الجيش والشعب ولكننا لم نستطع البقاء في عاصمتنا المهددة والضعيفة، فرحلنا إلى هذه الأرض التي تعرفها فهي أكثر أمانًا وحصنًا وتتسع لنا جميعًا... ويكفي أنها بعيدة عن أعين الأعداء>>.

ضرغام: <<وأين المقاومة؟ ألستم شعب مقاوم ومحارب في الأصل؟>>

ربعيل: <<كان الكثير من شعبنا قد بدل دينه، والكثير منهم

يعجبهم التغيير والتشبه بالأجانب، حتى أخي كان يريد التشبه بهم، لذلك كانت المقاومة من الداخل غير قوية. بعد نزوح معظم شعبنا للشمال بقي معي القليل من الجنود وأما الآخرين فكانوا مصابين وكبار بالسن والأطفال>>.

ضرغام: <<اذا كان هناك مملكة شمالية، وأنتم في هذه الأرض حيث مملكتكم القديمة بعيدين عن عاصمتكم نوعًا ما، وبقي القليل من شعبكم في عاصمتكم المخربة، لكنهم اندمجوا أيضًا مع الحكام الجدد لعاصمتكم. أنتم كيف صمدتم طوال هذا الوقت؟>>

ربعيل: <<كان هذا المكان في وقتنا يصلح للزراعة وفيه أيضًا أشجار متعددة تطعمنا التمر والصبر والتين والعنب، كنا نعيش هنا بعيدين عن الأعين، كالسر، لا أحد يعرف بوجودنا، لم نندمج مع أحد ولم نختلط بأحد، فأي دخول لغريب بيننا قد يحطم بقايا مملكتنا التي كنا ننوي إعادة إحيائها، كنا نكتفي بأقل القليل من الطعام الذي تمنحنا إياه الأرض ونعيش على القليل من الماء وكنا نعرف جيدًا كيف نصل للماء رغم شحه وكيف نجمعه بما تبقى من قنوات وبرك وخزانات هنا وهناك، وكنا نأمل أن يعيد أخي بعد سنة أو بضع سنوات تفكيره ويعود

هو وشعبنا في الشمال لهذه الأرض، فنعمرها بسواعدنا، ونعيد تكوين مملكتنا، لكن مملكتنا في الشمال كانت تذوب، وعاصمتنا كان يقطنها الأغراب، ونحن هنا كنا نضعف كل يوم، ونغيب عن التاريخ، ونغيب عن العالم، ويغيب هو عنا>>.

ضرغام: <<لهذا السبب لا وجود لذكركم في القرون اللاحقة، كأنكم شعب غير موجود. أنتم الذين رحلتم عن عاصمتكم ولكن لم ترحلوا مع الراحلين للشمال كنتم أقلية، أعداد لا تذكر. لذلك لم يتم ذكركم في كتب التاريخ>>

ربعيل: <<حتى الذين كتبوا التاريخ عن نهاية عاصمتنا أو في الشمال كتبوا بلسانهم لا لسان حالنا. المنتصر يكتب بلسان حاله، وعندما يكتب شخص ما عن شعبٍ آخر فهو يكتب من وجهة نظره لا من واقع حياتهم، أنه شخص من الخارج، وبالتالي فهو متحيز نوعًا ما>>

ضرغام: <<أنت تربط الدمار الذي حل بكم بقدوم أهل أقصى الشمال>>

ربعيل: <<الزلازل والجفاف والتمدن كلها ساهمت في إضعاف مملكتنا وخرابها، أهل أقصى الشمال ذو الوجوه البيضاء والشعر الأشقر والعيون الملونة، جاؤوا واحتلوا أرضنا وأدخلوا ديانتهم

علينا وفرضوا ضرائب مرهقة على شعبنا ودخلت أمراضهم الغريبة بيننا ثم عاداتهم وتقاليدهم وأسلوب حياتهم، وهذا ما دمر شعبنا رويدًا رويدًا. البعض من شعبنا فُتن بهم وبجمالهم وقوتهم وأسلحتهم وأسلوب حياتهم، لذلك الكثير من شعبنا عمل لديهم أو تعبد لهم والتحق بهم، بعض بناتنا هربوا معهم وبعض رجالنا تزوجوا نساءهم، هم لم يحرقوا أرضنا كما فعل أهل أقصى الشرق الهمجيين قبلهم... هم حرقوا اتصالنا بجدودنا وتراثنا>>

ضرغام: <<نسميه نحن تغيير ثقافة، العبث بهوية الشعوب الأصلية. اذا لا علاقة لاهل الجنوب بنهايتكم! أنتم كنتم على شفير الهاوية>>

ربعيل: <<نحن كنا كقبيلة صغيرة تسكن هذه الأطراف، وكان مد أهل الجنوب سيصلنا شأنا أم أبينا، غزوة بسيطة من أهل الجنوب كانت كفيلة بنهاية وجودنا، من مات بهذه الغزوة التصق بالجبال مثلي، وبعض جنودي المخلصين، ومن هرب هرب، ومن بقي في الكهوف خرج منها مع نهاية الحرب مهاجرًا إلى عالمٍ جديد، لقد انتهت آخر آمال البقاء بمجرد حدوث تلك الغزوة الصغيرة>>

ضرغام: <<أمرٌ محزن>>

ربعيل: <<أمرٌ انتهى، المهم كيف سنجد عمير؟ اذا تحرر عمير سنبقى على بعد خطوة واحدة صغيرة من التحرر. فهل جاء في هذا الشيء الذي تنظر إليه أي ذكرٍ لعمير؟>>

ضرغام: <<لو وجدتُ رابطًا بين غزالة واستيفان لاستطعت الوصول لعمير. كيف سأجد هذا الرابط وعلاقته بعمير في هذه المخطوطات الكثيرة؟>>

ربعيل: <<سأجعل إتصالنا بعالم الأرواح يقدم لنا المساعدة، سأعود إليك لاحقًا ومعي مفتاح ما للصندوق المغلق! الأرواح الطيبة تساعد بعضها بعضًا>>

# الفصل الثاني عشر

مر اليوم التالي دون أي أحداثٍ جديدة... نفس الروتين اليومي. ما أن حل الليل بطقسه الصحراوي البارد حتى هرب الجميع إلى خيامهم الحديدية يتقون شر ذلك الزائر الليلي... كأن أحدهم يعبث برياح الصحراء، فتعصف بعد أن تنطفئ الكهرباء، فيهرب الجميع للنوم!

كانت الكلاب والذئاب تعوي بعيدًا.. وضرغام جالسٌ أمام بقايا الجمر يشرب ما تبقى من كأس الشاي، وهو يُفكر: «هل سيأتي ربعيل الليلة ومعه مفتاح ما يدلنا على طريقة البحث؟»

سمع ضرغام دبيب أقدام خفيفة في الظلام آتية نحوه، كان الظلام دامسًا فلا يرى زوبعة غبارٍ أو الشخص القادم من أعماق الظلام الدامس: «وما أصعب أن ترى معالم وجهٍ تظهر ببطء من ضوء الجمر وسط ظلام حالك لا ترى فيه حتى روحك، بل ما أصعب أن تكون في هذا الظلام...

شيء ما يطبق على جسدك رغم هبات الريح الباردة، رغم عواء

الكلاب الجائعة...

تشعر بخوفٍ ورعدة من أي حركةٍ،

لكنك تتمنى صديق لا عدو... إنسان لا جن أو شيطان».

وها هو ضرغام يتمنى لو كان القادم... ربعيل... لا إنسان ولا جن، فقط روح هائمة تُفلتُ من سجنها كل ليلة لتلتقي بضرغام....

الشاب الذي يدبر الهروب! الشاب الذي يضع خطط الإفلات.

ضرغام ينتظر وجه ربعيل الشفاف ليظهر عبر الظلام، ويقول في سره: « أذكر الشيء يأتيك».

لكن ما أن اقترب الصوت أكثر حتى ظهر أحد مُلاّك المخيم من الظلام. رجل طاعن في السن يمشي محدودبًا ولحيته تكاد تلامس الأرض من شدة انحداء جسده، ومعه ربابة.

أنه صالح، المُسِنُّ الذي كان يأتي في بعض الليالي ويعزف بربابته ويدندن قصائد بدوية لا يفهمها أحد، لكي يسلي الضيوف. التراث الذي يحبه الزوار.

جلس مقابل ضرغام وسلم عليه، وطلب منه أن يصب له بعض الشاي.

صالح: <<لماذا تجلسُ في هذا البرد وحيدًا؟ ما الذي يمنعك من النوم؟>>

ضرغام: <<كنتُ أفكر أن أحتسي الشاي على مهل ثم أذهب للنوم. لا رغبة لي بالنوم مبكرًا>>

صالح: <<وأنا أيضًا هرب النوم مني، غفوت قليلا وشاهدث بالحلم رجل يقول لي أن النار هنا ستكون مشتعلة، والشاي ساخن، بودي أن أسمعك قصيدة لكن لا أُريد أن ازعج الضيوف النيام بعزفي وصوتي، إن صوتي وقصائدي تعجبهم لكن أصحاب المخيم يروننني مزعجًا. سأشرب معك الشاي إن كنت لا أضايقك، ثم سأذهب في حال سبيلي>>

صب كأس شاي وناولها لصالح...

ضرغام: <<شكرًا يا عم لحضورك، أنت مفتاح سهرة الليلة. لكن أريد أن أسألك عن ماذا تتحدث قصائدك. أنا أعتذر لكن أغلب ما تقوله لا أفهمه>>

صالح: <<كلها عن عاداتنا وتقاليدنا. عن الحب البدوي والزواج، عن جدودنا ومغامراتهم، عن الصحراء والجمال والحلال والمال>>

ضرغام: <<أنتم البدو تحبون هذه الصحراء>>

صالح: <<يا ولدي نحن منها. لا يمكننا أن نعيش بعيدًا عنها. ولا يمكن لهذه الصحراء أن تعيش بدوننا، هذه أرض آبائنا

وأجدادنا>>

ضرغام: <<وهل الصحراء تعيش بوجودكم؟>>

صالح: <<الصحراء «مش بس تراب وجبال، الصحرى يا ولدي الناس الي فيها، والناس يا ولدي مش بس الي عايشين، كمان الي ماتوا، وأرواحهم لسه فيها»[1]>>

ضرغام: <<منذ متى تقطنون هذه الأرض؟>>

صالح: <<من زمان يا ولدي... من زمان. جدنا الكبير يا ولدي كان يعيش بالشمال قريبًا من أرض لقبيلة ثانية. كان رجل مبارك وحكيم ويقصده الناس من كل حدب وصوب لأنه حكيم وطبيب ورجل مبارك وشيخ قبيلة كبيرة. ثم في يوم أسود هجمت عليهم قبائل ثانية، وكانت أعدادهم كبيرة جدًا، ودارت حرب بالسيوف والخناجر والنيبال بين قبيلتنا وتلك القبائل الغريبة، وبقيت الحرب دائرة من الفجر حتى آخر الليل، وتكسرت السيوف والنيبال والخناجر من شدة القتال، حتى تصارع الرجال فيما بينهم بالأيدي، انتصر جدودنا في نهاية الحرب بصعوبة وقد أصيب شيخ قبيلتنا جدي الأكبر ومات بعد عدة أيام، فأخذه الكبار نحو مكانٍ بالصحراء حدده هو ودفنوه

1) من اللغة المحكية

هناك وعاش أجدادنا حول القبر لسنوات وسموها جرود الشيخ، ودفن بالقرب منه أولاده وأحفاده وأولاد أحفاده، وبقيت العشيرة تكرم شيخها وتذبح عند قبره الخراف وتقدم الصلوات ظنًا أن هذا القبر للولي الصالح شيخنا سيحقق أماني وطلبات المحتاجين، ثم في ليلةٍ باردةٍ عاصفة جاء شتاء كثير أكثر ممّا تتحمله أرض الصحراء فجاء سيل كبير وجرف معه نصف القبيلة، البيوت الحجرية هدمت وبيوت الشعر طارت وذهب مع السيل رجال ونساء وأطفال وحلال كثير جدًا، ثم وجد أجدادنا بعض المفقودين بعد أيام أموات، فقاموا بدفنهم بطريقة صالحة، ثم ظهر جدنا الشيخ الكبير في المنام لرجل صالح من القبيلة كان من أحفاده وطلب منه أن يرحل هو وكل العشيرة عن هذه الأرض لأن سيل كبير آخر قادم، وفي الصباح الباكر هاجر من تبقى من العشيرة من تلك الأرض وساروا أربعين يومًا في الصحراء، في الليل كان جدنا الشيخ الكبير يظهر في المنام للرجل المبارك ويخبره أين يسير إلى أن انتهى المطاف بجدودنا في هذه الأرض، وسكن جدودنا فيها، ومن يومها ونحن نرى الخير في هذه الأرض. نشعر أنها أصلا كانت أرض جدودنا منذ يوم تأسست الأرض إلى

**حين «نسلم وداعتنا»[1]>>**

**ضرغام: <<ما اسم جدكم الكبير؟>>**

**صالح: <<الشيخ عمير>>**

**ضرغام: << من؟ ماذا قلت؟>>**

**صالح: <<ماذا دهاك يا ولدي؟ قلت لك عمير. نحن اسمنا عميريين، ننتسب لجدنا الأكبر الشيخ عمير. الشيخ عمير الذي أُصيب في الحرب ومات بعدها بأيام ودفن في الصحراء في منطقة نسميها جرود[2] الشيخ عمير>>**

**ضرغام: <<أتقصد نفس القبر الذي تقدم عنده الذبائح؟>>**

**صالح: <<نعم>>**

**ضرغام: <<وهل ما زال القبر موجودًا؟ هل يزوره الناس؟>>**

**صالح: <<لقد جرت العادة لدينا ولدى جدودنا وآبائنا أن نزور القبر ونذبح عنده، ثم جاء من يخبرنا قبل فترة طويلة أن ما نفعله حرام. فتركنا هذه العادة لكي لا نغضب ربنا سبحانه وتعالى>>**

**ضرغام: <<اذا ما عاد أحد يزور القبر>>**

**صالح: <<لا والله يا ولدي، حتى أن أولادنا لا يعرفون مكانه،**

1) كناية عن الموت

2) الأرض القاحلة

أنا وبعض رجال العائلة نعرف المكان، لا أحد غيرنا يعلم حتى بوجوده>>

ضرغام: <<هل تستطيع أن تدلني عليه؟>>

صالح: <<نحتاج لسيارة لنصل هناك، المكان بعيد جدًا يا ولدي، كنا في ما مضى نذهب بالدواب لتلك المنطقة وتحتاج منا أربعين يوم للوصول، أنا رجل كبيريا ولدي لا أقدر أن أذهب>>

فكر ضرغام كيف سيذهب إلى هناك؟ لا يملك سيارة ولا يملك مالا لاستئجار سيارة دفع رباعي للوصول لمنطقة نائية قاحلة في وسط اللامكان. وصالح رجل طاعن في السن لن يتحمل، ثم ماذا سيقول للمجموعة؟ أنه أمام معضلة... لو يأتي ربعيل هذه الليلة سيفكران في حل. لقد وصل إلى من يعتقده عمير حفيد الملك ربعيل. وسيتتبع في المخطوطات ما قال صالح عنه ليتأكد من أن كلامه صحيح ودقيق وليس ضربًا من القصص الشعبية غير الدقيقة.

في تلك الليلة نام ضرغام ولم ير ربعيل ولم يتأكد من صحة قصة صالح ولم يعرف ماذا يفعل.

في الصباح الباكر كان ضرغام قد عقد العزم على تفتيش المخطوطات عن أجداد هذه العشيرة، فلجأ إلى سائق السيارة

التي معهم وسأله عن صالح.

ضرغام: <<هل صالح سليم العقل أم شخص فقد اتصاله بالواقع؟>>

السائق: <<العم صالح يملك ذكريات وعقل أكثر مني ومنك. هو مزعج ولحوح وينسى الأشياء الحديثة، لكن القديم لا ينساه أبدًا. لماذا؟>>

ضرغام: <<لقد أخبرني عن جدكم عمير المدفون في الصحراء وكيف تاهت قبيلتكم في الصحراء أربعين يومًا وليلة حتى وصل أجدادكم هنا. أظن أنه خلط قصة الخروج الواردة في التوراة بقصة وجودكم هنا>>

السائق: <<لا... ما قاله لك صحيح جدًا. على الأقل هذا ما نعرفه عن أجدادنا>>

ضرغام: <<هل القبر موجود؟>>

السائق: <<نعم في منطقة اسمها جرود الشيخ عمير وأنا أعرفها جيدًا>>

ضرغام: <<ممتاز، إذا لن أُتعب العم صالح، ماذا لو طلبت منك أن تأخذني إليها يوم العطلة القادمة دون أن يعلم أحد. فقط أنا وأنت... كم سيكلفني ذلك>>

السائق: <<ضع وقودًا كافيًا في سيارتي ولا أريد غير ذلك. لكن عليك أن تحفظ السر عن الجميع، لو عرف الناس هنا بأمر الزيارة سيتهمونني بالكفر>>

ضرغام: <<وهو كذلك، وكم تحتاج وقود؟>>

ما أن ذكر السائق قيمة المبلغ المطلوب لضرغام عرف الأخير أنه لا يمكنه الذهاب؛ أنه لا يملك هكذا مبلغ، ولأنه يريد المهمة سرية، فلا يمكن أن يطلب أموالا من وعيد، كما أنه يريدها في يوم عطلة الفريق، فما الحل؟ لقد قرر انتظار الليل ليخبر ربعيل بما عرفه، والمشكلة التي تمنعه من الذهاب لقبر عمير.

وحل الليل

كان ضرغام ينتظر قدوم ربعيل فقرر أن يذهب لفراشه مبكرًا فيظن الجميع أنه نائم... انتظر حتى سكن الليل وحل الهدوء ونام الجميع... فخرج من غرفته ومشى نحو الخزان، كانت هناك نارٌ خافته فقال في نفسه لا يريد من يقاطعه أو يمنع وجوده ظهور ربعيل... لكن ما أنت مشى قليلا حتى شاهد ربعيل يجلس برفقة حراسه بعيدًا عن النار.

ضرغام: <<لقد ضننتكم من السياح وخفت أن يمنع وجودهم ظهوركم>>

ربعيل: <<إجلس بجانب النار لقد اشعلناها لك>>

ضرغام: <<أينك أمس؟ لم تأتِ>>

ربعيل: <<لم يكن سكان الخيمة التي بقرب خيمتك نيام، لا يمكننا الظهور للأغراب، ثم بعثنا لك ما قد يفيدك في البحث>>

جلس ضرغام قرب الناس يستدفئ من برد ليل الصحراء وفتح الحاسوب المحمول.

ضرغام: <<ربعيل أنت هنا منذ قرون. ألم تتساءل عن القوم الذي يقطنون هنا... من هم؟>>

ربعيل: <<أنهم أحد الذين سكنوا هنا... طوال قرون كانت الكثير من القبائل تأتي وترحل بعضهم يقطن أيام وبعضهم شهور وبعضهم سنوات وبعضهم عقود... هؤلاء عندما جاؤوا وسكنوا هنا، قطنوا كهوفنا وخيامهم، لم يعيثوا فسادًا في الأرض، وقد طال بهم البقاء لأنهم طيبون وغير عابثين ولا شر يأتي منهم لذلك طال بقائهم وتأقلمنا معهم، البعض الآخر أخفناهم وطردناهم>>

ضرغام: <<ألم تفكر في سبب تسميتهم بالعمريين؟ ألا يذكرك هذا باسم حفيدك عمير؟>>

ربعيل: <<أتنسبهم لحفيدي؟ لا أعتقد أن التسمية لها علاقة

بحفيدي>>

ضرغام: <<من هم إذا؟>>

ربعيل: <<عندما جاؤوا كان اسمهم عرب البئر، ثم كان هناك رجل منهم يدعى عمرو شيخ جليل أحبوه وأحبهم، كان زعيمهم، وعندما مات أخذوا جسده ودفنوه في أعلى الجبال وسمي مقامه بمقام عمرو وكان الناس يصلون عند قبره لفترة قريبة، ثم امتنعوا عن ذلك بناء على طلب رجال دينهم، وسمي تابعيه بالعمروين ثم بالعمريين>>

ضرغام: <<ما هذا التداخل؟ ما هذه القصص التي لا يمكن التأكد منها ولا الاعتماد عليها ولا الوثوق بأحدها. أنا أصبت بالصداع لكثرة القصص الشعبية التي اسمعها هنا... ما هذا الهراء؟>>

ربعيل: <<ما الذي حدث أخبرني؟>>

أخبر ضرغام ما الذي قاله صالح وكيف أكد السائق كلامه...

ربعيل:<<أنا الذي ظهر لصالح في الحلم، لقد شعرت أنه سيساعدك بشيء ما>>

ضرغام: <<كيف لا تستطيع وأنت تملك هذه القدرات تحديد ما هي الرواية الصحيحة؟>>

ربعيل: <<أنا لستُ إلهًا ولا نبيًا ولا حتى ملاك. أنا روحٌ مقيدة. والقدرات التي لدي مُنحت لي لكي أبحث عن مخلصي من قيودي... عنك أنت. قدراتنا محدودة ولا يمكننا استخدامها بعبثية. لا يمكننا رؤية الماضي قبلنا ولا المستقبل... لا يمكننا رؤية ما هو أبعد ممّا يحدث هنا، لأننا ونحن ملتصقين بالحجارة لدينا القدرة على السمع والنظر فقط لكن لا يمكننا التدخل مباشرة في حياة الناس ولا في كلامهم وأفعالهم... لكن شعرت بأن لصالح دور في معرفة الحقيقة، إنه الأكبر سنًا هنا ولا بد أنه سمع أجداده يتحدثون عن أشياء نحن لا نعرفها، لذلك ظهرت له في الحلم ليأتي ويشرب الشاي معك>>

ضرغام: <<حسنًا، وكيف أستطيع أن أعرف أي الروايتين الأصح... روايتك أم رواية صالح؟>>

ربعيل: <<تذهب لمقام عمرو ولمقام عمير. وتسألهما عن ماضيهما>>

ضرغام: <<ومن أين لي أموال لاذهب مسافات كبيرة مثل هذه؟ ثم كيف أسأل الأموات عن ماهيتهم؟ أنت تضعني أمام المستحيل، ثم إذا تأكدنا أن عمير هو فعلا عمير حفيدك كيف سأحرر روحه لوحدي؟ إنني احتاج إلى مساعدتكم بهذا الأمر>>

ربعيل: <<سأقدم لك تميمة تجعلك تتواصل مع كليهما. أما كيف الوصول لهما فهذا الأمر أتركه لرجالي. غدًا صباحًا ستجد حلا قد وضع أمامك. لكن لكي تصل للحل قارن ما هو موجود بحاسوبك من أسماء بما يذكره صالح من اسماء أجداده. أما موضوع تحرير روحه فسنجد أيضًا حل>>

ضرغام: <<لماذا أذهب للقبرين معًا؟ سأذهب لقبر عمير فورًا وإن لم يكن عميرنا لا داعي أصلا للذهاب لقبر عمرو>>

ربعيل: <<أتفق معك. وبودي لو ذهبت معك لكن لا استطيع>>

ضرغام: <<طالما أنك معي هنا فأنا سعيد... أنا متأكد أن الحل سيأتي عاجلا أم آجلا فقط لو يأتي صالح الآن سأسأله>>

ربعيل: <<غدًا ستنكشف أمامك الكثير من الأمور... رجالي سيسهلون الكثير من العقبات أمامك، لكن من المهم أن تستغلها جميعا قبل أن ينفد وقت الفرص>>

# الفصل الثالث عشر

كان صباحًا شديد الحرارة منذ ساعات الصباح الباكر وكان ضرغام متضايقًا من قلة النوم ومن الحر الشديد لكنه حاول أن لا يظهر ذلك لئلا يتعرض لتنمر ذلك اليوم. كان جل اهتمامه أن يطلب من السائق ومن صالح شجرة العائلة على قدر ما يتذكران لعلها توصله أو تربطه بما لديه من مخطوطات إلكترونية.

شاهد ضرغام السائق يأتيه مسرعًا من بعيد

السائق: <<أستاذ ضرغام أُريد أن أتحدث معك منفردًا>>

اتخذا زاوية في الخيمة الكبيرة

السائق: <<هناك عائلة كان عليها دم[1] وقد فك الله عنهم هذه المصيبة ليلة أمس، وطلبوا مني سرًا أن يأخذوا جديًا ليذبحوه عند قبر جدنا المبارك، أنه نذر وليس شركًا بالله والعياذ بالله، وحتى لا يثيرون الشبهة سيذهب رجل واحد من العائلة مع ابنه وأنت فقط. لقد أخبرتهم بطلبك ولأنك غريب لم يمانعوا ذلك، فلا داعي لتملأ خزان الوقود، لن تدفع أي قرش فأنت ضيفهم، هم

1) ثأر

ستولون كل شيء لكن علينا أن نبقي الموضوع سرًا فيما بيننا>>

أثار الموضوع فرح ضرغام: «يا اللّٰه كيف تتسهل الأمور رغم صعوبتها لكن في الوقت الذي يريده اللّٰه أن يسير».

ضرغام: <<لكن علمت أن هناك مقام لجدكم الأكبر اسمه الشيخ عمرو. فمن هو جدكم الأكبر؟ الشيخ عمرو أم الشيخ عمير؟>>

السائق: <<كلاهما من جدودنا، لكن الشيخ عمرو من أحفاد الشيخ عمير وهو رجلٌ مبارك وقاد عشيرتنا إلى هنا، ولأن قبره قريب اعتاد أجدادنا التقرب منه لقرب المسافة بدل قطع مسافات شاسعة لقبر شيخنا عمير، ومع الوقت ظن الناس أن عمرو جدنا الأكبر لكن عمرو هو جد العمريين الذين يقطنون هنا فقط بينما عمير هو جد العمريين كلهم، بما فيهم الأموات في بقاعٍ بعيدة، ولهذا لدينا أبناء عمومة يسكنون في مناطق قريبة>>

ضرغام: <<هل لديك شجرة عائلة بهذا الأمر؟>>

السائق: <<غدًا الجمعة جد سببًا لتترك مجموعتك، وسنذهب باكرًا لقبر الشيخ عمير ونذبح هناك ونشوي بعض اللحم للأكل، والليلة سأحضر معي شجرة العائلة لك>>

ضرغام: <<تم>>

في ذلك المساء قررت المجموعة أن يقضوا عطة يوم الجمعة بالذهاب إلى عين ماء معدنية قريبة على مسافة ساعة. أخبرهم ضرغام أنه تعب ويريد قضاء يومه في الكتابة، أما السائق فنصحهم بالذهاب فجرًا وقضاء معظم الوقت هناك وطلب الاستئذان أن يوصلهم إلى عين الماء ثم يتركهم للذهاب لمشوارٍ عائلي وأن يعود في المساء لهم، وهكذا حُل الأمر.

في ذلك المساء أعطى السائق لضرغام ورقة كُتب فيها بخط اليد شجرة عائلته. كانت تضم اسمه ثم كلمة بن لتشير لأبيه بن كذا بن كذا بن كذا وهكذا... وأخبر السائق أنه وصل للجد الذي استطاع تذكره هو وصالح.

في الليل وبينما كان ضرغام ينظر لحاسوبه المحمول وللورقة لإيجاد رابط بين الاسماء الحديثة نسبيًا في ورقة السائق وبين الاسماء في مخطوطة عثمانية هي الأحدث بين كل المخطوطات وتحتوي على اسماء رجالٍ كلفوا بالتجنيد الإجباري لصالح الدولة العثمانية.

بينما كان ضرغام يتفحص الاسماء جاء ربعيل وأخذا ينظران للورقة والمخطوط ويتناقشان حول الاسماء.

ربعيل: <<أنظر هنا: يقولون أن فارس مغوار اسمه يوسف من

العميريين تم أخذه للجندية ليحارب مع العثمانيين في انتفاضة الصرب عام ١٨١٥ . ويوسف هذا هو يوسف بن سالم. أنظر للورقة... هو أحد أجداد السائق، وهذا قتل ودفن هناك>>

ضرغام: <<يؤيد هذا الكلام الوثيقة هذه التي تتحدث عن انتفاضة الصرب وأن يوسف مسجل مع العرب الذين شاركوا في تلك المعركة. اذا سنبحث الآن عن سالم والد يوسف>>

بعد عدة محاولات بحث استطاعا أن يجدا سالم وربطاه بعمرو وعندما فتشا باقي المخطوطات استطاعا ربط عمرو بعمير... اذا وجدا عمير. وما أن فكا هذا اللغز حتى بدأ الفجر يحل.

ضرغام: <<إذا بقي أن أذهب للقبر وأحرر روحه. لكن أولا نتأكد أن القبر يخص عمير... عميرنا. ماذا عن التميمة؟>>

ربعيل: <<تلك هي التميمة>>

وجد ضرغام قطعة قماش ملفوفة داخل جرة صغيرة بالقرب منه. كيف وجدت هناك ومن وضعها؟ لم يسأل. عليه أن يعتاد هذا الأمر وأن لا يسأل.

ضرغام: <<إنها تشبه المدامع! تلك القوارير الزجاجية التي غالبًا ما نجدها في القبور الرومانية، لكنها من فخار>>

ربعيل: <<لا تخرج القطعة القماشية منها ولا تدعها تفارقك

إلا عندما تضعها بين حجارة القبر. هذه التميمة تساعدنا أن نعرف من المدفون هناك، هل هو عمير حفيدي أم عمير آخر! لن تنفع هذه التميمة لتحريره. ضعها بصمت دون أن ينتبه أحد، وانتظر بعض الوقت، المدفون في القبر سيخاطبك. سيتحدث لك صاحب القبر في الوقت المناسب. هذه التميمة تضعها بين حجارة القبر وتبتعد حتى لا يشك بك مرافقوك، وعندما يذبح الرجل الذبيحة ستكون قادر على التواصل مع ساكن القبر>>

ضرغام: <<الموضوع يثير أعصابي...>>

ربعيل: <<لا تخف>>

ضرغام: <<والسائق والرجل الآخر وابنه ماذا أفعل معهم عندما التواصل مع ساكن القبر؟>>

ربعيل: <<ستحدث الأمور بسرعة، لن يشعروا بشيء. كنت أتمنى لو استطيع الوجود هناك لأرى وجه حفيدي وأحرره بنفسي>>

ضرغام: <<المعضلة هي كيف استطيع أنا تحريره؟ فعلا معضلة، أنتم لا تستطيعوا الخروج من هذا المكان>>

ربعيل: <<لا يمكننا ذلك، لكن سيكون هناك حل>>

ضرغام: <<أنا واثق من ذلك. أنا أثق بك. وأنا أثق بحدسي

الذي يقول لي أنك ستتحرر أنت ورجالك>>

وحل الفجر

ربعيل: <<لا بد لي من الرحيل لألتصق بحجارتي وجبلي. لقد حل الفجر. سنجد حلا>>.

ضرغام: <<عليك أن تجد حلا في أقرب فرصة. قد استطيع الذهاب أول مرة دون أن أثير الشكوك، لكن المرة الثانية قد تصبح مستحيلة>>

رحل الليل وبرده وقلقه... وحل يوم جديد بحرارته القاسية وقلقه.

القلق الذي يرافق ضرغام صبح مساء منذ أن أصبحت هذه الأرواح معلقة بما يفعله!

كان الصباح ذلك اليوم مرهقًا. فضرغام لم ينم، جائع، تَعب جدًا، وكان التفكير يسيطر عليه! منذ أيام لم ينم بشكل جيد، لقد أصابه الإرهاق والتعب والوهن.

كانت أسئلة كثيرة تحوم في لرأسه: اذا كان ساكن القبر عمير حفيد ربعيل فكيف ستسير الأمور؟

ثم أن القبر بعيد، كيف سيذهب الجميع؟ كيف سيحررونه؟ لا بد أن ربعيل سيجد حل! هل يعقل أن يكون التحرير هذه المرة يتم

بضرغام وحده؟

هل يحتاج لأن يكتب ما ينشده ربعيل وجنده كما حدث ليلة تحرير غزالة؟ تلك الأناشيد التي أنشدوها لغزالة! لا يستطيع أن ينطقها لأنها يجهل لغتهم... ماذا لو لفها كتميمة مثل تلك التميمة التي اخفاها في الغرفة، تميمة يضعها في القبر فتتحرر روح عمير؟

أم يحفظ تلك الأناشيد ثم يقولها على القبر؟ ماذا لو لفظ كلمة ما بطريقة خاطئة؟

هل ينفع مثلا لو أخذ شيئًا ما من قبر عمير وعاد به للمخيم لتصلي عليه تلك الأرواح المتعبة؟

ماذا لو استخدم تطبيق الواتسآب أو المسنجر أو غيرهما لفتح كاميرا صوت وصورة من القبر لربعيل وجنده، لكن من أين يحضر هاتف آخر؟

ضحك على سخافة فكرته! ومن هو الشخص الذي سيثق به ليخبره عن قصة ربعيل؟ لا هذا أمر ملغي تماماً. فكرة سخيفة جدًا.

ما الحل؟

# الفصل الرابع عشر

« ما الحل؟

أحيانًا نقف عاجزين أمام معضلة. تكون الخيارات أمامك محدودة، بعض الخيارات غير مرغوب بها، بعضها مرفوض تمامًا، بعضها مرعب، بعضها لا يمكن تنفيذه! أحيانا تكون أمام خيارٍ واحد فقط.

أمام وقتٍ ينفد أو حتى روح تضمحل... أنت أمام قرار واحد. عليك إتخاذ القرار.

كل دقيقة تمر في هذه الحياة وأنت تتردد في إتخاذ القرار هي دقيقة ضائعة، دقيقة ماتت وأنت ساهمت في موتها.

آهٍ كم أضعنا من وقت... دقائق... ساعات... أيام... شهور... سنوات... عقود ونحن نريد إتخاذ قرار. ولم نفعل!

آهٍ كم تهشمت وتكسرت أنفسنا وأرواحنا ونحن ننتظر.

كم طعنةٍ في ظهورنا نحن وجهناها إلى الخلف ونحن ننتظر

آهٍ كم شاهدنا عمرنا يسير ونحن نقف... نقف ونحن نشاهده

يسير ولا نسير معه... ونحن ننتظر».

هذه الليلة ستمر على ضرغام... وعلى الأرواح المتعبة الملتصقة بجدران العجز... وعلى العالم كله... ستمر دون أن يحصد ضرغام حلا لمعضلةٍ أخرى.

إنه يفكر... ويفكر... ويفكر.

«صبيحة يوم الجمعة... صبيحة يومٍ لن يمر بهدوء

لن يكون سهلا، ولا هينًا... لا اعتياديًا ولا رتيبًا». الأسئلة ما زالت تنخر رأس ضرغام والأجوبة قد تكون أسهل ممّا يعتقد، وقد تكون شديدة الصعوبة! الله وحده يعلم.

«الإنسان كائن صعب... لا يمكن تحليله، لا يمكن تفسيره، لا يمكن تحديده.

لماذا خلقنا الله؟ قد يكون سؤالا كافرًا مرفوضًا عند البعض، وستجد مليون مؤمن يحيط بك ليخبرك عن ألف سبب وكلها تدور في فلكٍ واحد... مع ذلك لا سبب مقنع لما فعله الإنسان بأخيه الإنسان.

أخيه! ابن أمه وأبيه... آدم وحواء... دون أن ننسى أنهما سبب خروج الكائن البشري عن جنة الله... وأن ابنيهما نفسهما كانا مثالا سيئًا لباقي البشرية. كلاهما! نعم كلاهما. لو جاء الأخ

العارف للأخ الجاهل وقال له إفعل مثلي... لختصرا هذه السلسلة الطويلة من الدماء التي ذهبت هباءً وسدى!

لكن تنمر البشر بعضهم على بعض جعلنا اليوم على ما نحن عليه، وهو ليس إفضل حال من الأمس القاسي بكل معانيه».

عاد السائق لضرغام مع قريب له وطفلٍ صغير وجدي أبيض... وذلك بعد أن أوصل المجموعة لمقصدهم.

السائق: <<لنذهب الطريق أمامنا طويلة. لدي في الشاحنة الصغيرة ماء بارد وبعض الطعام يكفينا حتى نجهز الجَدْي>>

ضرغام: <<لنذهب على بركة الله>>

خرجوا من المخيم وضرغام ينظر معاتبًا لربعيل المسمر على جبله «لم تأتِ بحل ولا ألومك فنحن أمام معضلة، سأذهب وأعود ولكن أخاف أن أعود لك دون أن أحرر عمير. هذا إن كان المدفون هناك حفيدك عمير»

سارت الشاحنة الصغيرة على طريقٍ صحراوي شمالا لمسافة طويلة ثم مسافة طويلة أخرى نحو الغرب.

كل ما يحيط بهم صحراء...

كانت الشمس ساطعة جدًا... الحرارة فوق التصور... الطريق طويلة جدًا... وبعد فترة من السير على طريقٍ معبدة هبطت

الشاحنة الصغيرة على طريق غير معبدة ولكنها مرصوفة حديثًا بالحصى. كانت الشاحنة الصغيرة تهتز بعنف وهم يهتزون أيضًا باهتزازها، كان الأمر أشبه بوضع نقودٍ معدنية في علبةِ أُحكام إغلاقها ثم تم هزها بعنف في كل الإتجاهات.

صداع رهيب... حرارة شديدة... الماء البارد أصبح حارًا.

ضرغام: <<هل اقتربنا؟>>

السائق: << لا، قطعنا نصف المسافة... ثم للعلم بعد فترة لن يكون هناك طريق من الحصى... سنترك الشاحنة ونسير في الصحراء مشيًا على الأقدام، وستصادفنا صخور كبيرة ومنحدرات وتلال. سنترك الشاحنة الصغيرة في مكانٍ، ثم نسير مسافة سيرًا على الأقدام حتى نصل لجرود الشيخ عمير>>

قبل أن يصلوا هناك وصلوا لبئر ماء... أنه بئر أثري.. خرجوا من السيارة وارتاحوا قليلا.

أخذ السائق دلوًا مربوطًا بحبل وطرحه أسفل البئر ثم أخرجه رويدًا رويدًا وبمشقة حتى بلغ الدلو السطح... ثم شربوا جميعًا. كان ماءً باردًا وشهيًا

ضرغام: <<مياه هذا البئر القديم شهية ونقية>>

السائق: <<هذا البئر يقال أنه روماني لكن أعتقد أنه أقدم،

عاش أجدادنا هنا فترة طويلة ثم تركوه ورحلوا>>

ضرغام: <<آه لذلك يسمونكم أيضًا بأهل البئر>>

السائق: <<ولهذا البئر تسمية أخرى. بير أبو عمرو>>.

بعد فترة استراحة وشرب الشاي وأكل بعض الطعام ركبوا الشاحنة الصغيرة مرة جديدة ودخلوا عمق الصحراء، ثم بعد فترة لم يعد بالإمكان أن تسير الشاحنة الصغيرة، الحجارة الكبيرة أصبحت تقف عائقًا أمام تقدم الشاحنة، ولا وجود لأي طريق... فقط حجارة كبيرة ووديان وجبال. والأهم هدوء ساحر. هدوء لم يمر على ضرغام مثله أبدًا.

سار ضرغام خلف السائق والرجل الذي كان يجر الجَدْي المسكين جرًا وعلى أكتافه الصبي نحو مناطق وعرة صعودًا ونزولا، كان ضرغام يتعثر وتزل قدمه هنا وهناك، فأخذ ينظر إلى مكان وضع قدميه لكي لا يقع أو يتعثر، كانت مرتعبًا من بعض المناطق، ثم... وبلا سابق تنبيه وجد نفسه أمام ما يشبه المقبرة على سفح جبلٍ منحدر.

كان الرجلان اللذان يسيران أمامه يتجهان نحو قبر مختلف عن باقي القبور، وهو يتبعهما. لقد وجد نفسه أمام سلسلة من الحجارة متوسطة الحجم تشكل دائرة قطرها يقارب الثلاثة

أمتار وارتفاع الحجارة ما يقارب المتر وفي وسطها... لا شيء، فقط تراب وحصى من ألوانٍ مختلفة كما كل المكان الواسع الذي يحيط بالقبر.

رفع ضرغام والرجلان والصبي أكفهم وأخذوا يصلون.

ضرغام: <<أهذا هو القبر؟>>

السائق: <<نعم>>

ضرغام: <<لا أرى قبرًا بل كومة حجارة على شكل دائرة، أنظر لباقي القبور، شكلها يشبه القبور. ارتفاع على شكل هرم طوله طول إنسان وعند الرأس صخرة كبيرة وعند القدمين صخرة أصغر حجمًا>>

السائق: <<إنها قبور الناس أما هذا فهو قبر شيخ... قبر ولي. أنه مقام يا أخي. والمقام يُعمّر بطريقة مثل هذه>>

ضرغام: <<وأين يمكن أن يكون رأس المتوفي؟>>

السائق: <<الرأس نحو القِبلة. هل ترى هذه الفتحة البسيطة في كومة الحجارة؟ أنها قرب الرأس حتى يرى الميت فيها القِبلة عندما يقوم من بين الأموات، فأول ما تقوم القيامة سيرفع رأسه وسيشاهد القبلة أول شي>>

لم يعلق ضرغام...

ضرغام: <<أنظر هناك الكثير من الأشياء موضوعة هنا... أقمشة، حذوات أحصنة، زجاج، ورق، بقايا حيوانية نتيجة الذبح، عصًا خشبية، أنظر هناك... صحن معدني حديث نسبيًا قد يعود لما يقارب ٥٠ أو ٤٠ سنة>>

السائق: <<كلها تقدمات>>

ضرغام: <<ماذا ستفعلون الآن>>

السائق: <<أنت أجلس بالقرب منا ونحن سنجهز الجَدْي للذبح>>

جلس ضرغام يشاهدهم يصلحون السلسلة الحجرية للقبر ويجهزون الجَدْي للذبح.

ثم قام يلتف حول القبر كأنه يعاين القبر من كل الجهات لكنه استطاع اخفاء تلك الفخارة الصغيرة التي تحتوي على التميمة بين حجارة القبر.

بُطِحَ الجَدْي بالقرب من الفتحة المتجهة للقبلة وجز رأسه وهم يرددون بسم الله ويدعون أدعية أخرى...

أخذ الرجلان يقومان بما يتطلبه أمر الذبح والصبي يلعب حولهما ثم أخذ رأس الجَدْي فنهره والده ووضعه داخل حدود السلسلة الحجرية.

قال ضرغام في نفسه: «ماذا علي أن أفعل؟ كيف سأتحقق من أن هذا قبر عمير؟».

تذكر ما قاله ربعيل... أن ينتظر فقط.

بينما كان الرجلان يكملان عملهما شعر ضرغام بنعاس لم يستطع أن يقاومه مد نفسه وهو يرى أحدهما يسلخ الجَدْي والآخر يجهز مكانًا للشواء والشاي، والصبي يجمع بعض الحطب... ونام ضرغام.

كان الأمر كمن ضربه بحصى صغيرة على رأسه... لا بد أنه الصبي. رفع رأسه ليرى ماذا يحدث فكان رجل طاعن في السن كأنه في نهاية التسعينيات أشيب مجعد الوجه محودب الظهر نوعاً ما ويلبس ملابس بدوية عتيقه لكنها مرتبة ويجلس القرفصاء على الأرض ينظر للرجال، ثم نظر لضرغام.

الرجل: <<السر يا ولدي في الكبد. إن كان كبد الذبيحة أحمر يميل للزهري أو الأزرق فالذبيحة مريضة ولن ينفع في شيء. إن كان الكبد أحمر يميل للقتامة فالذبيحة سليمة>>

ضرغام: <<الكبد كما ترى أحمر قاتم>>

الرجل: <<نعم يا ولدي. أحسن الرجال في اختيار الذبيحة وفي طريقة الذبح. ليباركهم الرب>>

ضرغام: <<لم أشعر بك يا عم. هل أنت من سكان هذا المكان؟>>

الرجل: <<نعم>>

ضرغام: <<لا بد أن الرجال رأوك من بعيد ودعوك لتتناول الطعام معنا>>

الرجل: <<أنا أسكن هنا يا ولدي ولم أغادر هذا المكان منذ مدة طويلة>>

ضرغام: <<الله يعطيك الصحة والعافية والعمر المديد>>

الرجل: <<ما عرفتني يا ولد؟ أنا الشيخ عمير بن استفانوس ساكن هذا القبر>>

اشتعلت النار فجأة تلك التي كانت مجهزة للشواء لترتفع جدًا لعنان السماء... وفي نفس الوقت جفل ضرغام وابتعد وقد فزع من هذا العجوز الذي قدم نفسه على أنه الميت الذي يسكن القبر.

كان الرجلان منهمكين والطفل ثالثهما في إعداد الذبيحة والشواء.

عرف ضرغام أنه وحده من يرى عمير وأنهم لا يشعرون بوجوده ولا يعلمون أنه يتحدث معه.

قال ضرغام في نفسه «هذا كثير... كثير علي. مرة أتحدث مع أرواح ملتصقة بحجارة، ومرة أخرى أشاهد روح فتاة، والآن

شبح!!! أنا لن أعود سليم العقل للبيت»

عمير: <<لا تخف يا ولدي... تعال... أرجع مكانك. نحن لا نؤذي. أنتم أيها الأحياء الأموات من تؤذون. نحن أموات لا نملك شيء>>

ضرغام: <<ألا يراك هؤلاء؟>>

عمير: <<لا. أنت نائم وأنا أظهر لك بالحلم>>

ضرغام: <<أين أنت؟ هل أنت ملتصق بشيء ما في هذا المكان؟ أتظهر ليلا؟ >> لقد ظهر أمام ضرغام ليس كروح بل كحلم، رأه رجلا عجوزًا فلم يصدق أنه عمير لكنه أكد له أنه عمير...

عمير: <<أنا يا بني في المجهول، لا أعلم حقيقة أين أنا لكني ساكن هذا القبر. أنت استدعيتني بتميمتك. تلك التميمة لا يعرف أسراها إلا قلة جدًا... فأخبرني كيف عرفتها؟ وماذا تريد مني أنت وهؤلاء؟ أنا ميت لا استطيع تحقيق شيء يا ولدي>>

ضرغام: <<هؤلاء من أحفادك، من أبناء جلدتك وهم يكرمونك. هذه الذبيحة كنذر عليهم>>

عمير: <<لا أستطيع مساعدتهم. لكن أدعو الله أن يحررني وأن يساعدهم. أخبرهم بشكري، وأخبرهم أن هذا الطفل سيكون

عظيم كأجداده>>

ضرغام: <<لا استطيع. هم لا يعلمون أنني هنا لسبب آخر مختلف عن سببهم>>

عمير: <<وما سببك؟ >>

ضرغام: <<أنا جئت لك لأعرف من أنت، فأخبرتني بذلك فورًا. أنا جئتك من طرف جدك الملك ربعيل>>

عمير: <<جدي؟!! هل أنت روح مثلي؟ لا أنت بشري حي! كيف لك أن تعرف جدي وهو ميت قبلي>>

ضرغام: <<سأخبرك بكل شيء منذ البداية ثم تحدثني عن نفسك ولكن لا بد أن نسرع حتى لا يشعر هؤلاء بك>>

عمير: <<لا تهتم لهم، هم لا يروننني ولا يشعرون بي، كما أنهم يظنون أنك نائم... إن الوقت بالنسبة لهم بطيء وبالنسبة لنا سريع، فأخبرني عن جدي؟ لقد حدثتني والدتي على أنه ملك وأنقذ بقايا شعبه>>

ضرغام: <<جدك تعب من السفر... لا محطة يستريح فيها أو يصل إليها. أنه مسافر على ظهر حصان لا يتوقف. أنه ملتصق بجبل، جبل على ظهره وجبل على صدره وجبل على كتفيه وجبل على رأسه! لقد تعب جدك يا عمير ويريد أن يستريح>>

وأخبره ضرغام بكل شيء حتى وصل للحظة لقائهما...

ضرغام: <<والآن... من أنت؟>>

عمير: <<أنا يا ولدي غريب. تركني أبي قطعة لحم طرية تزن بضعة أرطالٍ... تركني قبل أن أتكلم.. لا أعرف وجهه ولا أتذكر رائحته... وذهب للدفاع عني وعن أُمي وعن وطنه... تركنا وذهب لأرضٍ غير أرضنا، قيل لي أنها أرضُ أجدادي لأمي حينما احتلها الغرباء زحفوا منها نحو قرانا فهب الجميع للدفاع عنها. تركني أبي وأنا أبكي وهو يبكي ولكننا لم نفترق. ذهب وهو يحمل سيفًا ورمحًا ويمتطي حصانًا، ذهب مدججًا بسلاح الدبابيس والأقواس المركبة القوية، مرتديًا قميصًا معدنيًّا من رقبته حتى الفخذين، ويحمل درعًا مستديرًا، ويرتدي قلنسوة على رأسه وقفَّازًا طويلاً يُغطي اليدين إلى ما بعد الرسغ، وينتعل حذاء من الصلب.

ذهب وهو يحمل روحه بين كفيه، وأمي تحملني بين ذراعيها، وأنا أحمل جيناته وإيمانه وجينات أمي وقلبها. ذهب ليدافع عن وطنٍ يتقاسمه الجميع، أرضٍ خلقها الرب للجميع، باركها الأنبياء، لكن لا أحد في هذه الأرض الواسعة يرضى بالمشاركة. حتى الأنبياء متخاصمون فزرعوا في مؤمنيهم الخصام وحب القتال

دفاعًا عن آلهة صماء أو جوفاء لا حول لها ولا قوة. سقطت روما وسقطت أثينا وسقطت القسطنطينية وسقطت القدس وسقطت الإسكندرية وسقطت أنطاكيا وسقطت دمشق ولم تسلم مدينة من حربٍ ما.

مات بشرٌ لا يعد ولا يحصى، وذهبت دمائهم هباء، والأرض هي الأرض، لكن البشر اختلفوا فيها وعليها... ثم أن المدن التي سقطت عادت من جديد، بناها أبناء الحياة، لكن الماضي بقي في العقول والقلوب والحناجر. كلقمة غير قابلة للبلع بقي الإنتقام محشورًا في البلعوم، فعادت الحروب مجددًا، ولم ينتصر فيها إلا الموت. لعبة الحياة والموت ما زالت تتدحرج بين خاسرٍ من هنا وخاسر من هناك.

أنا يا ولدي مثالٌ على اختلاط الجميع. أبي كما تعلم من الشمال وأمي من الجنوب وعندما تزوجا سكانا في الوسط. فلماذا لا يتلاقى البشرُ مثل أبي وأمي؟ لماذا لا يلتقي البشر بالحب! أم أن الحرب هي الحل؟ الأرضُ خلقت لتكون مكان تلاقي البشر وتلاقحهم... الأرضُ تتسع للجميع... لكن البشر لم يلتقوا قط إلا في حربٍ ضروس فاختلطت دماء الأعداء معًا>>

ضرغام: <<أنت حاربت أيضًا>>

عمير: <<حاربنا دفاعًا عن أنفسنا... حرب الدفاع عن النفس مشروعة>>

ضرغام: <<الحرب حرب مهما اختلفت تسمياتها>>

عمير: <<إن كنت أمام خيارين لا ثالث لهما... الحرب أو العبودية أيهما تختار؟>>

ضرغام: <<أختار الرحيل>>

عمير: <<الرحيل للجبناء، للمتخاذلين، للمهزومين... لمن لا كرامة لهم>>

ضرغام: <<أنتم رحلتم عن أرضكم بعد المعارك... كذلك جدك ربعيل>>

عمير: <<قاتلنا ببسالة دفاعًا عن أرضنا وعندما أنتصرنا لم نقاتل لنبيد أعدائنا، وعندما خسرنا رحلنا حماية لعائلاتنا>>

ضرغام: <<ووالدك؟ ماذا حدث له؟>>

عمير: <<ذهب أبي ولم يعد لكننا لم نفترق أبدًا. خسروا الحرب ومات ودفن بعيد عنا، وبعدها زحف العدو لأرضنا... ماتت أمي دفاعًا عني ولم نفترق أبدًا. كان الجنود يقتلون الكل، لكن أمي دافعت عني... سقطت هي وأنا خلفها، وبعد أن سقطت ميته مضرجه بدمائها وقفت أمام جسدها النازف، بين ذراعيها

أبكي... أحمي جسدها من موتٍ قد نال منها.

عندما سقطت ميته ما عاد الجنود يهتمون بها ولا بطفلها، فاختلطت على تلك الأرض الدماء والدموع. دمائها ودموعي.

مات أبي وماتت أمي، وبقينا نحن الأطفال بأعمارٍ مختلفة بلا كبار يدافعون عنا

مات أبي وحلق عاليًا وأورثني مهمته وأوصتني روحه أن أحمي المكان من الحزن ومن الكراهية ومن العنصرية ومن نبذ الآخر والتنمر عليه... لكنني فشلت>>.

ضرغام: <<وكيف فشلت؟>>

عمير: <<أخذنا نحرس المكان، لكننا أطفال لا نملك سلاحًا ولا تدريبًا. ظنناها لعبة لكننا سئمنا هذه اللعبة بعد حين فعدنا للعبٍ يناسب عمرنا.

كانت حياتنا لعبة السيف ولعبة الدماء... ولعبة الموت.

سرعان ما سئمنا لعبة الحرب وسئمنا الحراسة وأخذ الجوع والحب ينتصر علينا، وأخذنا ننتظر أحد ما ينقذنا ولكن لم يأتِ أحد. اختفيت في المجهول أنا وبعض الأطفال لكن الأعداء عادوا... بعد أن نهبوا كل شيء عادوا ليأخذوا الأطفال، من اختفى مثلي في المجهول سلم منهم ومن كان يلعب في الساحات

المخضبة بالدماء أمام جثث أهاليهم ليحثوهم على القيامة تم أسرهم كالدجاج، وأخذوا الأطفال بعيدًا ليتم الاعتناء بهم من قبل غرباء.

رأيتُ الموت يلبس قناع الحب، يريدُ أن يحضنني، لكني أسرعتُ في الاختفاء منه>>

ضرغام: <<رباه ما أقسى هذا التشبيه>>

عمير: <<لو رأيت وجوه الجنود لعرفت أنه تشبيه واقعي... لعلمت كيف أن الحب يمنح شكله لصُنّاع الخزف ليصنعوا منه أقنعة الحب، ليستخدمها الكذب والنفاق والكره والزيف والخداع والتنمر... قالوا لشدة فرط الحب منح ذاته وشكله للآخرين... فتشبهوا به.

قلت للأطفال وقتها إنتبهوا إنه الموت، جاء يلاعبكم... أنه ليس الحب، إنما شُبّه لكم، لكنهم سقطوا في المصيدة، وتم أسرهم.

بقيتُ أنا وبعض الأطفال الآخرين. لا نعرف أبًا ولا أمًا...>>

ضرغام: <<وماذا حدث للأطفال الذين تم أسرهم؟>>

عمير: <<سمعنا أنهم يأخذون الأطفال ليعلموهم القتال. لقد كان الأعداء يدربونهم بقساوة كجنود ليحاربوا لهم. قتلة آبائنا أخذوا أصدقائي وأبناء عمومتي ليحاربوا من أجلهم في بلادٍ

بعيدة... أو ليحاربوننا نحن، لذلك قررنا أن لا نقف متفرجين أمام الأعداء. بقينا في المجهول مختفين نراهم ولا يروننا، لا أحد يعرف بوجودنا ونحن لا نتواصل مع أحد. كان لنا حربنا التي لا تعني الجميع، حرب إعانة أنفسنا بأنفسنا>>

ضرغام: <<نفس الحياة التي عاشها جدك ربعيل! نفس المعاناة. وكم بقيت مختفٍ عنهم؟>>

عمير: <<منذُ كَتَبَ عنا كذابون ومنافقون فطمسوا حقيقتنا وكأننا العابريين وهم الباقون، وكأننا الضيوف وهم الأصلاء>>.

ضرغام: <<وكيف أصبحت شيخا جليلا لقبيلة ضخمة>>

فأخبره عمير كيف بنى هو والأطفالُ قريةً يأون إليها. كيف أصبحوا رجالا وهم أولاد، ونساءً وهن صغيرات. كيف شكل مجتمع صغير من الأطفال قبيلة ضخمة خلال عقود من اللعب مع الموت، فما فلح الموت بالانتصار عليهم، فأرسل عليهم حربًا وسيلاً ونسيان.

ضرغام: <<وأين روحك الآن؟>>

عمير: <<جسدي هاهنا، أما روحي فما زالت تسبحُ في هذا التوهان، لقد مت ولستُ من تراني الآن، فأنا شبحي. هلا تركتني وشأني! لا أعرف كيف أساعد جدي>>.

ضرغام: <<أنا أُريد أن أحرر روحك من سجنها، إن استطعت. لكنني لا أعرف كيف>>

عمير: <<أنت السجين وأنا شبحٌ لا أُسجن. أنا فقط في التوهان>>

ضرغام: <<بل أنت سجينٌ. أنت شبحٌ ورِثٌ سجنه من أشباحٍ آخرين. أنا شاركتُ في تحرير والدتك من قيودها، والآن أسعى لتحريرك من قيدك حتى يتحرر جدك وجنوده من قيودهم>>

عمير: <<رأيت والدتي؟>>

ضرغام: <<نعم رأيتها صبية جميلة، حررناها... وحمل جدك وز تحريرك لتتحرر روح والدتك. إنها حرة الآن ولكن لا يستطع جدك أن يتحرر هو وجنوده إلا بعد أن تتحرر>>

رأى ضرغام دموع عمير تتساقط...

«هل تبكي الأرواح؟ دموعهم تشبه دموعنا... آهاتهم تشبه آهاتنا... أوجاعهم تشبه أوجاعنا... اذا لماذا التنمر عليهم؟ لماذا نقول أن الأرواح لا تشعر كما نشعر نحن؟

كم نحن قساة... نحن البشر! حتى أرواح أجدادنا ننال منها فكيف بالحري البشر الأحياء على هذه البسيطة؟

نحن تعساء لأننا لا نريد إلا أنفسنا في الحياة... نتقاتل ونقتل

بعضنا بعضًا فقط ليرانا العالم ونحن لا شيء.

ترك الأب والأم عمير طفلا صغيرًا لكنه مات شيخًا جليلا يدافع عن وطن، وروحه الآن روح رجل، لذلك توقعت أن أرى روح طفلٍ تحوم لكنها كانت روح رجلٍ كبير يحترمه أحفاد أحفاده وكل نسله. لقد رحلا عنه وهو طفل، لأجده رجل وزعيم قبيلة ضخمة».

ضرغام: <<لا أستطيع أن أفرض عليك شيء. أنا مجرد رسول، بينك وبين جدك ربعيل، أتريد الحرية والتحرر أم البقاء في التوهان؟ ورغم ذلك لا أعرف كيف تتحرر، لا أعرف كيف أساعدك بهذا الأمر>>

عمير: <<نعم أريد الحرية. سيبقى هذا القبر وحيدًا، مساكين هؤلاء الذين جاؤوا يقدمون ذبيحة لقبر ميت. يظنون أنني أستطيع أن أساعدهم. وأنا لا حول لي ولا قوة، ليتهم يرون الآن أن شابًا حيٌ يرزق هو من يساعدني.

سأخبرك كيف أتحرر، أطلب منهم الكبد، ضعه في شيء بارد لتقيه الحر ثم خذه وضعه أمام جدي، رأيتُ أمي تشوي كبد جَدْيٍ بعد استشهاد ابي فسألتها ماذا تفعلين؟ قالت أنها تشوي الكبد بالنار لتبعد الشياطين عن روح أبي وتبرد الكبد بقليل من

الماء البارد بعد الشوي لتسكن روحه في الجنة وتأكل الكبد ليسلم جسده من العبث. أخبر جدي بهذا الأمر وليفعل كما فعلت أمي ثم كُل منه أنت وجدي ومن تريدون... بعدها ستتحرر روحي فورًا. ستسمعون صوت نسرٍ يحوم فوقكم بعدها>>

ضرغام: <<نسر؟؟ في الليل؟ ثم أن جدك في أول لقاء أطعمني الكبد... لماذا أطعمني إياه؟>>

عمير: <<عليك أن تسأله هو، لا بد أنه حرّر أرواحًا قريبة منك. الآن خذ الكبد منهم وأفعل ما قلت لك>>.

ضرغام: <<النسور لا تطير ليلا>>

عمير: <<إن النسور أرواح، ونحن الموتى أرواح وعندما نتحرر نتحول لنسور لا يمكن أن تراها إلا بعد أن تشعر بمعنى أسرها، وعندما نصل السماء تصبح النسور نسورًا ونحن نكون قد تحررنا>>

واختفى

ثم شعر ضرغام بيدٍ على كتفه وصوتٍ يناديه

السائق: <<أستاذ ضرغام... أستاذ ضرغام. قم! حان موعد الطعام>>

نظر ضرغام فوجد نفسه ممددًا على الأرض وتحته بساط

وفوقه خيمة ورائحة الشواء تفوح...

ضرغام: <<ماذا حدث؟ أين أنا؟>>

السائق: <<أنسيت؟ نحن عند قبر الولي عمير، لقد ذبحنا النذر وشوينا بعض اللحم، وأثناء ذلك غلبك النعاس ونمت، فوضعنا خيمة فوقك تقيك من أشعة الشمس>>

كان الوقت يقارب الغروب

«هل ما حدث حلم؟ أكان الرجل الذي ظهر حلمًا؟ ألم تكن روح عمير؟».

بدا الأسى على وجه ضرغام، لم يظهر عمير، كان مجرد حلم... اذا كل ما حدث هو خيال! ماذا سيقول لربعيل؟ لقد نام وحلم، ماذا يقول له: لم تنجح المهمة!

بدأ الجميع بالأكل... كان ضرغام يأكل بحزن ولا رغبة له بالأكل رغم جوعه

كانت النار ما زالت مشتعلة فقام عن الطعام واتجه لإبريق الشاي ووضع له كأسًا وبدأ يحتسيه على مهل وهو ينظر للرجم الحجري.

السائق: <<لماذا توقفت عن الأكل. ألم يعجبك الشواء؟>>

ضرغام: <<بلا أنه لذيذ جدًا... لكن لا أشعر برغبة بالأكل>>

السائق: <<سنترك لك بعضه تأكله على الطريق. بالمناسبة عندنا عادة! يأخذ الضيف ما يشاء من اللحم. ماذا تريد أن تأخذ؟>>

نظر له ضرغام نظرة مطولة! أيعقل أن تكون رسالة؟ أيعقل أنه ترتيب من عمير؟

ضرغام: <<هل يمكنني أن أخذ الكبد؟>>

السائق: <<هو لك... أتريد المعلاق كاملا أم فقط الكبد؟>>

ضرغام: <<الكبد لوحده... أريد أن أتشارك أنا وأصدقائي به>>

السائق: <<يقول كبارنا من يأخذ الكبد ويأكله مع رفاقه يحرر روحًا من قيودها>>

ضرغام: <<حقًا؟>>

السائق: <<نعم. لكن رفاقك سيسألونك من أين لك هذا الكبد؟ سيعرفون أنك خرجت من المخيم وأنت لا تريد أن يعرفوا بقدومك هنا>>

ضرغام: <<نعم أُريد أن يبقى أمر خروجي من المخيم سرًا، أما الكبد فأُريد أن أتشاركه مع رفاقٍ آخرين. رفاق سيأتون للمخيم لاحقًا>>

السائق: <<بارك الله بك. اطهوه بحب وأطعم منه رفاق تحبهم وستحرر روحًا>>

ضرغام: <<أشكرك. لقد عادت شهية الأكل لي، أعتقد أنني سآكل معكم من اللحم المشوي فأنتم رفاق أحبهم أيضًا>>

السائق ضاحكًا: <<الرائحة أثارت شهيتك للأكل. تفضل قل بسم الله مجددًا وكل، وترحم على جدنا ومولانا الشيخ عمير>>

ضرغام: <<رحمك الله يا شيخنا عمير... رحمك الله>>.

أعاد السائق ضرغام للمخيم وقد حل الليل وذهب ليأتي بالمجموعة من رحلتهم... كان الجميع منهكًا فنام الجميع فورًا. ضرغام الذي وضع الكبد في الثلاجة كان ممددًا على سريره ثم كان هناك طرق خفيف على الباب.

كان ربعيل

ربعيل: <<أعلم أنك تعب وتحتاج للنوم>>

ضرغام: << ا يمكنني النوم دون أن أحدثك عما حصل>>

جلسا القرفصاء على الأرض وأخبره بما حدث معه

ضرغام: <<هل تعتقد أنه حلم؟ وأن موضوع الكبد صدفة؟>>

ربعيل: <<لا. الأرواح تظهر في الحلم أيضًا>>

ضرغام: <<الحمدلله ظننت أن هذا المشوار البعيد جدًا قد

ذهب سدى>>

ربعيل: <<كلا سنحرر عمير أخيرًا ولن يتبقى إلا أنا ورجالي>>

ضرغام: <<غدًا سأطلب من الرجال في المخيم طهو الكبد لنا>>

ربعيل: <<لا يمكن! يجب أن تهوه بنفسك أو نطهوه نحن>>

ضرغام: <<اذا كان جائزًا فليطهوه رجالك. أنا لا أعرف كيف أعد الطعام، ثم قد يشاركنا الغرباء في أكل الكبد ولا بد أن نأكله نحن فقط. إن طهوته أنا سأفتح مجالا لأسألتهم. كيف سنحل المشكلة غدًا>>

ربعيل: <<الرجال يعدونه ونحن نتحدث. لنذهب ونأكله جميعًا قرب الجمر. لا أحد سيشعر بنا>>

ضرغام: <<رغم أني متخم من الأكل لكنني سآكل لنحرر عمير الليلة>>

ذهب كليهما نحو الجمر المشتعلة كان الرجال قد انتهوا من إعداد الكبد. المخيم كان مطفأ والجميع نيام. جلسوا على شكل دائرة وبدأوا يأكلون الكبد...

ضرغام: <<لقد أطعمتني الكبد في أول يوم لي ألتقيك فيه وقال لي السائق أن من يأكل الكبد المطهو بالحب هو وأحباء له تتحرر روح... وعندما أطعمتني الكبد، حررت روحًا، فمن هي يا

تُرى؟>>

ربعيل: <<لم تكن روحًا واحدة بل روحين>>

ضرغام: <<حقًا! من هما؟>>

ربعيل: <<والديك... أباك وأمك>>

علت الدهشة والصدمة والحزن والفرح وجه ضرغام...

ضرغام: <<حقًا؟ أأنت حررت روح أبي وأمي أيضًا>>

ربعيل: <<نعم>>

ضرغام: <<أشكرك جدًا يا سيدي... أنا ممتن لك>>

ربعيل: <<لقد طارا كنسرين فوقنا ولم تشعر بهما... لقد تم تحريرهما>>

أكل ضرغام بشهوة كذلك الرجال إلى أن انتهوا جميعًا من الأكل

فجأة سمعوا صوت النسر فوقهم

نظر الجميع للأعلى... كانت النجوم تملأ السماء... سماءٌ صافية تمتلئ بالنجوم.

شعروا بالنسر يحوم فوق في السماء دون أن يرونه... والنجوم تتلألأ بشدةٍ وهواء عليل يدخل أعماقهم.

لقد تحررت روحٌ أخرى.

انتصرت الأرواح العاشقة... أنتصرت الأرواح الخيرة.

انتصرت صحراء فاضلة على الهمجية والمدنية بكل ما فيها من قسوة وجشع وتنمر.

انتصرت هذه الصحراء الفاضلة رغم قسوتها... لتظهر جانبها الرقيق. وفشلت كل قوى الشر رغم قوتها... لتؤكد جانبها الحقير.

بعد قليل اختفى صوت النسر من السماء.

وعاد الهدوء... لا صوت لنباح الكلاب ولا لأي شيء...

كسر ضرغام الجمود: <<لقد نجحنا. ماذا الآن؟>>

ربعيل: <<سنعود لجبالنا الآن... وأنت أذهب للنوم. غدًا في الليل سنخبرك كيف سنتحرر. غدًا سنتحرر... فما عاد يربطنا بهذه الجبال شيء. الليلة سنودع جبالنا وصحراءنا وغدًا سنخبرك كيف نتحرر>>

وذهبوا.

عاد ضرغام لخيمته الحديدية... رمى جسده على السرير... لم يستطع النوم.

بقي عمير في بال ضرغام طوال النهار وحتى تلك الساعة من الليل ولم يقارقه البته

أنه سعيد لأنه يحلق نحو السماء الآن...

ما زالت الساعة تتحرك ببطء

وضرغام لم يعد ذلك الشخص الذي كانه قبل المجيء هنا.

قبل دقيقة وغدًا سيكون ما كنتُ عليه بالأمس، شكلا ومظهرًا...

لكنه الآن مختلف بصورة لا يعلم كيف يعبر عنها.

عمير هو الأمس وها قد رحل...

أخذ قلمًا وبدأ يكتب في دفتره «كيف نعرف الأمس البعيد ونحن نجهل الأمس القريب؟ لدينا ما يكفي من الماضي وينقصنا الغد، الغد بكل ما فيه من خيبات ومن ابتسامات، من صعودٍ ومن نزول، من فرحٍ ومن حزن... نُخبئ حقيقتنا في رواية ما أو نراها مختفية خلف ظل الكلمات في روايةٍ كتبها شخص ما، وما أكثر الروايات التي يختبئ فيها بشرٌ وحقيقةٌ ما. حقيقة تشبه كثيرًا عمير... الطفلُ المفقود والزعيم الكبير!

يحلم البشر دومًا أحلامًا جميلة، عيشة هادئة هنية، سلام مستمر، طعام ساخن، ماء نظيف، بيت دافئ، عائلة جميلة متماسكة، حب نقي، مجتمع يقبلهم ويقبلوه، وطنٌ يكونون جزءًا منه وهو جزء منهم، وأن ينقلوا أسلوب الحياة هذا للأجيال القادمة. لكن طبع بعض البشر أنهم ولدوا وفي دمهم التنمر، يعشقون الدم والقتل والسيطرة. كان عالم الأمس يمتلئ بهكذا

بشر، وحروب وتهجير وسبي واحتلال وأخذ مكان العدو وأرضه وبيته وأرزاقه ونساءه وأطفاله وبناته، وتارة يصبغون هذا العمل الوحشي بطابعٍ ديني وحروبٍ مقدسة، وتارة يغزونها لأسباب توسعية تتعلق بخصب الأرض أو وفرة المياه أو مواد أُخرى.

كانت التجارة وسيلة سلمية لنقل الثقافة والتراث والدين بين الشعوب لكن البعض اختار الحرب لنقل جيناتهم وثقافتهم وديانـاتهم، وعندما وضعت بعض الشعوب على محك الدفاع عن النفس اضطرت لحروبٍ تدافع فيها عن قيمها وأراضيها وماضيها وهكذا عاش الإنسان على هذه الأرض أحيانًا بسلام وتلاقي وأحيانًا تحت حروب طاحنة خسر فيها الرابح والمهزوم معًا... كل البشر خسروا.

بعض البشر خسروا أكثر من غيرهم... خسروا كل شيء وأصبحوا من الماضي... وأصبحوا شعوبًا من التاريخ... فندثروا واندثرت معهم دياناتهم ولغاتهم وتراثهم... كلها أصبحت من التاريخ. دياناتهم وتراثهم وقصصهم وحكاياتهم وسلامهم وحروبهم كلها أصبحت من التاريخ. والتاريخ كتبه كما يقال الرابحون وكتبوه بما يليق بفوزهم، وعبروا عن الأعداء غالبًا

بأنهم شعب أو قبائل من الهمج والرعاع تنقصهم المدنية والحكمة والتطور على طريقة المحتل، وهكذا خسرنا الكثير من الشعوب الأصلية التي اندثرت واندثر معها الحقيقة... معظم الحقيقة أو كلها».

وقع القلم ووقع الدفتر وذهب ضرغام في سباتٍ عميق. نومٌ لم ينم مثله قبلا.

# الفصل الخامس عشر

بقي يوم واحد فقط وتنتهي هذه الدراسة العلمية. سيكون ربعيل وجنوده قد تحرروا، وضرغام يعلم أنه لا مجال لأي خطأ أو تأجيل أو تسويف. الدكتور أيضًا سينهي دراسته ويرحل، وهو أمر يسعد ضرغام جدًا.

أما ضرغام فما عاد نفس الشاب الذي كانه قبلا، إنه إنسان مختلف كليًا الآن، هو أكثر عمقًا ممّا مضى، أكثر روحانية وفهم للحياة والموت، والأهم من كل ذلك أكثر فهمًا لذاته وعلاقته بنفسه.

كان يومًا عاديًا... فطور ثم عمل ثم الغذاء واستراحة بسيطة ثم عمل إلى المساء ثم العشاء تليها الجلسة الليلية القصيرة قبل النوم ثم نام الجميع! وضرغام كالعادة يدعي النوم بالذهاب إلى خيمته، إلى أن ظهر له ربعيل وهنا بدأت آخر مغامرة.

هذه الليلة آخر ليلة وهي الفاصلة...

ربعيل: <<الليلة ستكون النهاية. قد تكون آخر ليلةٍ لنا معًا. إن

تحقق ما نتوقع ستتحرر أرواحنا قبل الفجر>>

ضرغام: <<ألن أراك ثانية؟>>

ربعيل: <<سأكون معك يا صديقي إلى الأبد، الأرواح المتعلقة ببعضها لا يستطيع الموت التفريق بينها. أما الآن فلنجتهد للوصول لآخر مرحلة، ولعلها الأكثر رعبًا بالنسبة لنا، وهي التي سنتحرر فيها إن وَجَدتَ يا صديقي آخر شيء نبحث عنه>>

ضرغام: <<ما هو؟>>

ربعيل: <<إنه كتاب الحرية، وهو موجود في المدينة المحرمة. إنه أحد أسفار كتابنا المقدس، لكنه سفرٌ سري لا يعلم بمحتواه إلا قلة قليلة حتى لا يستخدم بما لا يجوز>>

ضرغام: <<كتاب ومدينة محرمة! لماذا تترك المعلومات للآخر؟ لماذا لم تخبرني بهذا الموضوع مسبقًا فنكسب وقتًا وجهدًا>>

ربعيل: <<لا يمكن أن تتم الأمور هكذا أو بسرعة وإلا تحررنا من أول يوم، الأمر يسير خطوة بخطوة. ما كنا لنتحرر حتى لو كان كتاب الحرية معنا، ولا كنا نستطيع أن نتحرر دون تحرير غزالة، وغزالة ما كان يمكن تحريرها من دون تحرير عمير، وما كنا نستطيع هذا كله دون مساعدتك، وهكذا كل الأمور مترابطة. مجموعة من العُقد التي تحتاج إلى فك بتأني وصبر>>

ضرغام: <<كُنت أتمنى لو أني أحد جنودك فأفر معك إلى حريتك وأخرج من مستنقع الحياة هذا>>

ربعيل: <<لا... الحياة بحاجة لأمثالك، لطيبة قلبك، للمسة يدك، لقوتك، لإصرارك على عمل الخير. إن خرج منها كل إنسان طيب فلن يبقى فيها أي طعم. أنتم أيها الطيبون ملح الأرض>>

ضرغام: <<ليت عصرنا سهل كما تظن. عالمنا اليوم أشد قسوة وعنف وتنمر وعنجهية ممّا سبق>>

ربعيل: <<لذلك عصركم يحتاج لك ولأمثالك، لتغيروا ما يمكنكم تغييره بالقلم والحب والخير>>

ضرغام: <<لقد كتب الكثير من المفكرين ودعاة السلام والأحرار، ناضلوا من أجل أوطانهم وأفكارهم وحريتهم وحرية شعوبهم، وهل تعلم ماذا حدث لهم من إخواتهم البشر؟ سجن وقمع وتعذيب ونفي وتشريد واغتصاب وضرب وسحل وقتل وحرق حتى يصبح المقتول رمادًا أو حتى الإذابة بالأسيد حتى يختفي الإنسان كليًا... وهل تريد رأيي في هذا الأمر كله؟ أنه لن يقودنا إلى شيء. سيبقى عالمنا كما هو، ولن يستطيع ملايين الطيبين تغيير ملايين الملاعين، أتعرف لماذا؟ لأن هناك ملايين البشر يقفون على الحياد. وهل تعلم لماذا يقفون على الحياد؟

لأنهم خائفون، ويخافون المستقبل، أو لأنهم ضعفاء، أو لأنهم جبناء... ملايين البشر لا يهمهم أن يكونوا طيبين لكنهم ليسوا سيئين. أترى نزلاء هذا المخيم، والعاملين فيه، يرون الدكتور يتنمر يوميًا ولا يتدخلون، حتى زميلي أمام الدكتور يظهر بوجه ذئب وأمامي أنا يظهر بوجه صديق>>

ربعيل: <<لأنك كنت أنت الضعيف وليس هم>>

ضرغام: <<لو أني ضعيف لخفت من مساعدتكم... أنا لستُ بضعيف>>

ربعيل: <<ليس عيبًا أن تكون ضعيفًا، العيب أن تقبل بالضعف، وأنت لا تقبل به. أنت تقاوم... ولأنك تقاوم فأنت تتغير. أنا أعلم أن القوة في داخلك تزداد يومًا بعد يوم. أنت كنت مثلهم تقف على الحياد، لكن منذ أن قررت مساعدتنا اتخذت موقف قوة. أنت ضعيف لكنك تتقوى. أنت مثال على قول المعلم: «تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لأَنّ قُوَتِي فِي الضَّعْفِ تُكْمَلُ»، أنت تتقوى يا رفيقي. لقد قطعت جبال ووديان، عملت في أجواء مخيفة بالنسبة لك، جابهت الكثير من مخاوفك واستطعت الخروج منها... لماذا؟ لأنك تتقوى ولأنك إنسان طيب رقيق ومحب. وضعفك مصدر قوتك>>

صمت ضرغام ثم قال: <<أنت لا تعرفني جيدًا. أنت تتنمر علي

الآن وتتهمني بالضعف>>

ربعيل: <<أنا أقرأ داخلك جيدًا. أنت إنسانٌ مبدع، ذو قدراتٍ إبداعية في الكتابة، أنت كتاب لا ينتهي أبدا من البوح عمّا بداخله، أنا أسمع دقات روحك، وتدفق الإنسانية والإبداع في عروقك، ونمو الحب في صدرك. أنا أشعر بنبضات الطيبة في معصميك، أنا أرى داخلك، وما أراه طفل يتشجّع ويشق عباب البحر، يسبح دون هوادة إلى أن يصل الهدف. هذا فعلُ بطل وجندي شجاع... كان ضعيفًا لكنه الآن جنديٌ شجاع>>

ضرغام: <<كيف تجتمع الشجاعة مع الضعف؟>>

ربعيل: <<تجتمع الشجاعة والضعف في إنسان واحد. الإنسان الذي يمتلئ قلبه بالإيمان، الشجاعة تحتاج للكثير من الجهد، والمثابرة، والعمل. الشجاعة هو أن تعرف مخاوفك وضعفك وتعترف بها لنفسك، ثم التصدي لها. الشجاعة تنمو فقط عندما تثق بنفسك، تؤمن بحدسك. الحدس الذي يخبرك أن هذا الأمر صح فتفعله، وهذا الأمر خطأ فتتجنبه، الشجاعة تتطلب أن تفهم مصادر قوتك الكامنة غير المستغلة فيك فتنميها وتعمل عليها. الإنسان القوي قد يكون قوي بجسده أو بلسانه السليط، لكن القوة هي عندما ترفض الاستسلام وتقول في

نفسك أنا بطل... أنا عظيم... أنا لا مثل لي في هذا العالم، أنا رقم فريد لا أحد يشبهني إلا ذاتي، فتقف رغم الضعف ويتشجع قلبك وتنتصر>>

ضرغام: <<إنك تعلمني درسًا كل يوم. كلامك صحيح>>

ربعيل: <<ما ستفعله الليلة يحتاج لقلبٍ شجاع. ستثبت الليلة أنك شجاع لنفسك. حتى وإن فشلت في إحضار الكتاب، لا يهم. لكنك ستثبت شجاعتك>>

ضرغام: <<إن فشلت فلن تتحرروا>>

ربعيل: <<إن فشلت سنكون قد نجحنا في أشياء كثيرة. في تحرير غزالة وعمير وتحرير والديك... وأنت أيضًا تحررت من بعض قيودك. لكن إن نجحت سنتحرر وأنت ستتمكن من كسر قاعدة أنك إنسان ضعيف. وهناك في المدينة المحرمة الأمر ليس سهلا ولا هينًا>>

ضرغام: <<هل الأمر مخيف لهذه الدرجة؟>>

ربعيل: <<ستذهب للمدينة المحرمة وستدخلها من بوابة وتخرج منها من بوابة أخرى. ستكون لوحدك ونحن لن نستطيع ولا نستطيع الدخول معك ولا مساعدتك ولا حتى معرفة ما يدور هناك معك. بعض المواقع ستعيش فيها الوهم، الجن لديه

طرق لخداع الناس الذين يقتحمون أهم معاقله>>

ضرغام: <<الجن عدو البشر>>

ربعيل: <<أخطر عدو للإنسان هو نفسه، وأفكاره ومخاوفه، إن ركز الإنسان على هذه الأمور وبالغ فيها فحتمًا ستكون نهايته كارثية، رغم أن الإنسان كائن اجتماعي لكنه يميل للوحدة أيضًا، لكن البقاء وحيدًا هي ميل للسوداوية، لذلك لا بد أن يكون هناك صديق لك مثل: كتاب، قلم، موسيقى، صلاة... أي شيء يبعد عنك الوحدة. وهناك إن واجهت أفكارًا سوداوية أطلب صديقك، وستجده يقدم لك العون>>

ضرغام: <<أنت صديقي، سأطلبك أنت>>

ربعيل: <<هي مدينة محرمة علينا، عليك أن تطلب نفسك>>

ضرغام: <<لماذا مدينة محرمة عليكم! وهل يمكنني معرفة السبب؟>>

ربعيل: <<عندما متنا ساعدتنا قبيلة من الجن في دفن أجسادنا لكنها للأسف قبيلة شريرة من الجن، ولأننا مقيدين تنمرت هذه القوى علينا، فلم نكن نقوى على فعل شيء، يملكون قدرات كبيرة ونحن قدراتنا محدودة، هم يتحركون أينما شاؤوا ونحن لا نستطيع التحرك فنحن نلتصق بالجبال ولا تستطيع أرواحنا

الإبتعاد عنها كثيرًا، ولأننا لا نملك تلك القوى الكبيرة عقدنا معهم اتفاق>>

ضرغام: <<أشعر أنه إتفاق مجحف>>

ربعيل: <<كان لدينا كتاب سري كتبه ملكنا الأول، هذا الكتاب يجعلنا نملك قوة السيطرة والتحكم في الماء والتراب والنار والهواء. أنه الكتاب الذي أخبرتك عنه>>

ضرغام: <<يا للهول! لا أظن أن هذا الشيء حقيقي أو واقعي. لا أحد يستطع فعليًا التحكم بهذه الأشياء. الماء يتحكم به دورة الماء في الطبيعة، الهواء تحركه قوى تتعلق بالضغط الجوي، التراب أينما ذهبت فهو موجود في الطبيعة بوفرة، والنار أيضًا لا يمكن التحكم بها، تستطيع أن تصنع نارًا صغيرة ثم تطفئها لكنك لا تستطيع أن تسيطر عليها فعليًا فهي مؤذية. أعتقد أنه كان يكذب عليكم>>

ربعيل: <<صدقني كان الكتاب يحتوي على طرق للتحكم بهذه كلها لا بل وبغيرها. كان الكتاب الأهم في حياتنا لدرجة كان لا أحد يملك حق قراءة أي شيء فيه إلا الملك والكاهن الأعظم، ولا يستخدم إلا في حالات معينة وفي الخير فقط. والكتاب لا يُفتح إلا بالليل ولم نستخدمه إلا في حالات نادرة وغير ذلك

كان يُحتفظ به في مكانٍ سري في أحد المعابد الكثيرة، فحتى أبناء شعبنا لا يعرفون مكانه، ولا يظهر الكتاب للعلن إلا في أحد أعيادنا، مرة واحدة ليلا في السنة، ويقرأ منه بعض الفصول لجلب الخير والسلام والطمأنية لشعبنا>>

ضرغام: <<إذا هو كتاب شيفرة. شيفرة تتحكم فيها بكل القوى. لكن لماذا لا يفتح في النهار>>

ربعيل: <<إنه كتاب من الأسرار العظيمة، وعندما صنعه أجدادنا جعلوه للخير ولا يستخدم إلا من قبلنا. من يجده نهارًا سيضمحل منه للأبد، ومن يجده ليلا لن يستطيع أن يقرأ منه شيئًا لأنه لغة طقوسنا السرية، أما قوى الجن الشريرة فمتى وجدته فإنها تملك قدرة فك رموزه إن سيطرت على جسد وعقل بشري>>

ضرغام: <<يا للهول! لكن لو كان يجلب الخير والسلام لشعبكم لماذا انتهت مملكتكم؟ لماذا لم تستخدموه لصد أعدائكم؟ لماذا لم تسيطروا على قوى الماء التي شحت لديكم؟ لماذا لم تسيطروا على الزلازل التي قضت الواحد تلو الآخر على مملكتكم؟ اذا الكتاب لا فائدة منه>>

ربعيل: <<العيب فينا وليس في الكتاب. نحن من أهملنا أهميته

وتنفيذ الوصايا المقدسة. إن سبب بلاء العالم جشع الناس وطمعهم، فالعيب فينا وليس في الرب. الرب خلق لنا عقول وقلوب لنتصرف بالعقل والعاطفة معًا ودومًا نستخدم العقل في الوقت المناسب والعاطفة في الوقت المناسب، لكن في آخر عهد مملكتنا ترك الناس عاداتنا وتقاليدنا وعبادتنا وأخذوا يتشبهون بأهل الشمال. هذا أغضب آلهتنا. لقد تركنا الرب أحرار لنمارس حياتنا، لكن البشر خانوا عقولهم وخانوا قلوبهم ولم يخنهم الرب. نحن من خذلنا الرب وليس العكس>>

ضرغام: <<صدقت. لكنك تتحدث مرة عن آلهة ومرة عن الرب! ألم تترك أنت عبادة آلهتك أيضًا>>

ربعيل: <<ما عبدناه بالجسد كنا نؤمن به كجسد وما نعبده بالروح فبالروح نؤمن به>>

ضرغام: <<حسنًا والكتاب الآن في مكانٍ مجهول يقع تحت سيطرة أعدائكم، لكن لماذا لم يستخدموه حتى الآن؟>>

ربعيل: <<لم يجدوه بعد، والجن قد يستطيعون فك رموزه اذا ما توافرت لهم قدرات البشر. فينقصهم شيئان الأول إيجاد السِفر والثاني بشري يسيطرون عليه>>

ضرغام: <<وأنا هذا البشري! شكرًا على إخافتي مجددًا>>

صمت قليلا...

ضرغام: <<حسنًا وعلى ماذا اتفقتم؟>>

ربعيل: <<من طرفنا سمحنا لهم بالسيطرة على المدينة المحرمة ونحن خارجها، ممنوع علينا دخولها وممنوع عليهم إزعاجنا في المكان الذي قُيدنا فيه، ممنوع علينا الإقتراب من عاصمتنا، وممنوع عليهم الإقتراب من هذه الجبال. تم دفن أجسادنا بواسطتهم في أماكن مجهولة وفي المقابل لا يمكننا المطالبة بالسِفر المحرم حتى لو وجدوه>>

ضرغام: <<وكيف أستطيع مواجهة قوى شر كهذه؟ كيف لي أن ادخل المدينة المحرمة بسهولة هكذا وأخذ الكتاب وأخرج من البوابة الأخرى؟>>

ربعيل: <<المدينة محرمة علينا نحن فقط، وليس عليكم أنتم الأحياء. أنتم يمكنكم الدخول والخروج بلا أي سبب يمنعكم من ذلك. ألا ترى أعداد الزوار كيف تأتي وتذهب؟>>

ضرغام: <<ما من المشكلة إذا؟>>

ربعيل: <<المشكلة أننا لا نعرف أين خبأ أخي والكاهن الأعظم السِفر قبل رحيلهما مع معظم شعبنا، نحن نجهل مكان السفر فعليا ولا توجد أي قوى ترشدنا لمكانه، أنت ستقتحم مدينة

أثرية دون أي دراية أين يمكن أن يكون السِفر، لذلك أقول لك أن الأمر صعب جدا بل يكاد يكون مستحيلا، وعليك أن تدخل من بوابة و تخرج من أخرى. لا يمكنك سلوك نفس المسار>>

ضرغام: <<لماذا؟ >>

ربعيل: <<لأن الجان تراقب الداخلين وتراقب المسارات وإن اكتشفوا أنك أخذت السِفر سيحاولون السيطرة عليك واستخدامك ثم قتلك... ولا نريدهم أن يفعلوا هذا أو ذاك>>

ضرغام: <<الأمر مرعب... لكن لا بد من المخاطرة. لا يهم ماذا يحدث معي لكن لا بد أن أفعل المستحيل لأجيء بالكتاب لكم>>

ربعيل: <<أترى؟ صدقني أنك رغم ضعفك السابق تملك من الشجاعة ما يفوق ألف فارس. أنت لم تعد ضعيفًا، أنت شجاع وقوي>>

ضرغام: <<هل أملك وقتًا كافيًا لأجد الكتاب؟ أليس من الجيد أن أبحث من الصبح حتى فجر اليوم التالي؟ وإن وجدته أتركه في الظلام إلى أن يحل الليل وثم آخذه وأخرج سريعًا>>

ربعيل: <<لا لن ينفع الأمر، ثم سيشك زملائك بهذا الأمر>>

ضرغام: <<لا يهم. سأصحو فجرًا وأخذ معي القليل من الطعام والماء وأذهب وسيكون معي مجالا للبحث حتى ما قبل الفجر>>

ربعيل: <<وماذا سيقول زملائك؟ هذه مخاطرة. ثم قد يتعرض الكتاب لنور الشمس ويضمحل>>

ضرغام:<<لولا موضوع اضمحلال الكتاب، فإنني لا أهتم بزملائي وليقولوا ما يشاؤوا. الآن الأمر نهائي. في خطوتنا الأخيرة لا يمكننا مهادنة أشخاص لأجل رضاهم، علينا أن نتركهم في الخلف ونسير للأمام>>

ربعيل: <<صدقت>>

أخذ ربعيل يشرح لضرغام من أين يعبر وأي مسار يسير وبوابة الخروج. أخبره أن لا يهتم ببعض الكهوف وأن لا يبحث في المباني الأثرية الضخمة والمعابد لأن الجن فتشها جيدًا ولم يعثر على شيء.

ضرغام:<<وإن وجدته ماذا علي أن أفعل؟>>

ربعيل : <<عليك أن تخفيه في حقيبتك هذه وتردمه بالتراب من كل الأطراف بحيث لا يظهر منه شيء>>

ضرغام:<<تراب!>>

ربعيل: <<نعم. إن الجن في تلك المنطقة لا يستطيع أن يرى ما تحت التراب لذلك بقيت آثارنا والكتاب وكل شيء ثمين مخفي عن الجن ولم تكتشف إلا عندما اكتشف البشر منطقتنا>>

ضرغام: <<ألن يكون هناك حراس يستغربون حملي لشنطة ثقيلة؟ ألن يطلبوا تفتيشها؟>>

ربعيل: <<هذا صعب جدًا. وإن حدث وكشف الأحياء الكتاب فهو أفضل من أن يكتشفه الجن>>

ضرغام: <<سيأخذونه مني أو سيضمحل>>

ربعيل: <<وقتها سيكون قد فعلت الذي تستطيع عليه... فعلنا كلنا ما كنا نظنه مستحيلا>>

ضرغام: <<وقتها ستبقون حبيسي هذا المكان للأبد. ستبقى الجبال جاثمة على صدوركم>>

ربعيل: <<لقد اعتدنا الأمر...>>

ضرغام: <<الإعتياد مصيبة... لا بد أن يتغير حالكم كما تغير حالي، أنا لم أعد الإنسان الذي كنت عليه، لقد نضج شيء ما داخلي جعلني شخصًا آخر>>

ربعيل: <<لا تعلم كم أنا سعيد بما وصلت إليه>>

ضرغام: <<وأنا سأكون أسعد عندما تنطلقون نحو حريتكم. سأفعل المستحيل>>.

ربعيل: <<لننطلق... سنوصلك إلى أقرب مكان... بعده لا يمكننا الدخول أكثر>>.

**ثم انطلقوا**

**كانت هناك بوابة من حجارة نصف متهدمة بعدها ببعض العشرات من الأمتار بوابة قطع التذاكر للمدينة الأثرية... المدينة المحرمة... العاصمة.**

**وقف ربعيل وجنوده قبل البوابة الأثرية بمسافة آمنة لكي لا يشعر الجان الذي يحرس البوابة بهم. إنهم يرون الجن لكن ضرغام لا يراه... لن يستطيع أن يراه.**

**ربعيل: <<لا نستطيع أن نتقدم أكثر. الجان حارس البوابة سيشاهدنا أو يشعر بنا. ستمر من تلك البوابة... إنها بوابة الجن... ومعك الشنطة ثم تعبر البوابة الحديثة التي يقطع فيها الزوار تذاكر الدخول ومنذ تلك اللحظة أنت وحدك... ستبحث وحدك... لا تثير الشكوك. سواء وجدت الكتاب أم لم تجده أخرج من البوابة الأخرى قبيل الفجر سيكون هناك جندي من جنودي بإنتظارك سرًا سيأتي بك فورًا للمخيم والباقي سيحدث هناك>>**

**ضرغام: <<هل من الضروري أن يحدث الأمر اليوم؟ لا أملك إلا بضع ساعات. قد لا تكفي>>**

**ربعيل: <<لا يمكننا المجازفة بتأجيل الموضوع... الليلة عليك**

أن تفعلها>>

ضرغام: <<بوابة التذاكر مقفلة لا يوجد سوى الحارس>>

ربعيل: <<ستجد بعد بضع خطوات هناك خلف تلك الصخرة صُرة فيها بعض القطع الذهبية مدفونة في التراب، أعطه إياها وسيسمح لك بالعبور>>

ضرغام: <<أتمازحني؟ واضح أن الملايين عبروا بجانبها كيف لم يلاحظ أحد صرة الذهب؟>>

ربعيل: <<لا أحد يراها ولن يستطيع أحد رؤيتها، لقد وضعناها الآن>>

ضرغام: <<حسنًا سأذهب لأكسب الوقت>>

ربعيل: <<رافقتك السلامة. لكن ضرغام... إنتبه لا تكذب على جني أبدًا>>

ضرغام: <<لماذا؟>>

ربعيل: <<لديهم قدرة على كشف الكذب، ولكنهم ضعاف أمام الوعود>>

تركهم ضرغام وذهب نحو الصخرة نبش بعض السنتمترات ليجد صرة بحجم كف اليد... لم يفتحها وضعها في جيبه وسار نحو البوابة. قبل أن يدخلها نظر للخلف. لا وجود لربعيل ورفاقه.

سار نحو البوابة... شعر بالرهبة والخوف

أنه يعلم أنه تحت عيون بعض الأشرار الذين يريدون أن يراقبوا كل مار...

أنه لمرعب أن تعلم أن جني شرير يتابعك في كل خطوة

وبينما كان يعبر بوابة الجن تذكر كلمات الأخوين الرحباني والتي عنتها فيروز حين قالت:

«أحترف الحزن والانتظار

أرتقب الآتي ولا يأتي

تبدّدت زنابق الوقت

عشرون عاماً وأنا أحترف الحزن والانتظار

عبرت من بوّابة الدموع

إلى صقيع الشمس والبرد

لا أهل لي في خيمتي وحدي

عشرون عاماً وأنا يسكنني الحنين والرجوع

كبرت في الخارج

بنيت أهلاً أخرين

كالشجر استنبتُّهم فوقفوا أمامي

صار لهم ظلّ على الأرض

ومن جديد ضربتنا موجة البغض

وها أنا أستوطن الفراغ

شرّدت عن أهلي مرتين

سكنت في الغياب مرتين

أرضي ببالي وأنا أحترف الحزن والانتظار»

شعر ببعض الوجس... وأنه مراقب... الخوف يدب أوصاله لكن لا مجال للخوف أو التراجع. مصيرهؤلاء معلقٌ بين يديه... فإما أن ينجح وإما أن ينجح... لا خيار آخر.

سار نحو بوابة قطع التذاكر ذات الإضاءة الخافته...

وصل بوابة بيع التذاكر المغلقة... طرق الباب... بعد لحظاتٍ فُتِح الباب من قبل رجلٍ خمسيني أحدب.

ضرغام: <<سيدي هل أستطيع المرور؟>>

الحارس: <<لا لقد اغلقت البوابة ولا أحد من الموظفين هنا ليقطع لك تذكرة. عُد غدًا صباحًا>>

ضرغام: <<سيدي أنا سائح غريب، ولا أملك وقتًا إلا هذه الليلة، وسأسافر غدًا. أرجوك دعني أدخل وأعدك أن أعود بسرعة فقط ساعتين أو ثلاثة أشاهد أول المدينة ثم أرجع سريعًا>>

الحارس: <<مستحيل. المدينة مغلقة ثم لا يوجد إضاءة في

الداخل ولن تستطيع رؤية شيء. لسلامتك أمنعك من المرور ثم لا أملك أن أمرر سائحًا بعد إغلاق البوابة. ممنوع>>

ضرغام: <<سيدي أأستطيع أن أدفع لك الآن وغدًا تقطع التذكرة عني وهكذا لا نخالف القانون>>

الحارس: <<حتى لو وافقت، لا يمكنك العبور. لا يوجد إضاءة في الداخل وقد تصاب بأذى أو لا تعرف العودة>>

أخرج ضرغام الصرة ووضعها في يد الحارس

ضرغام: <<إن شعرت بالضياع سأبقى مكاني إلى أن يبزغ الفجر وأعود أدراجي وأخرج>>

نظر الحارس للصرة ثم فتحها وشاهد عددًا من القطع الذهبية... فتحت عيناه على وسعهما ثم أغلق الصرة ووضعها في جيبه

الحارس: <<أتملك هاتفًا>>

ضرغام: <<نعم. هذا هو... إنه معي>>

الحارس: <<إن شعرت بالضياع إتصل على ذلك الرقم المبين على تلك اللوحة. لكن لا تخبرهم أنني أدخلتك! قل لهم أنك كنت هنا منذ الصباح>>

ضرغام: <<بالتأكيد>>

الحارس: <<أنا لم أشاهدك ولم أفتح لك البوابة. اتفقنا>>

ضرغام: <<اتفقنا سيدي>>

فُتحت البوابة ودخل ضرغام...

أخذ ضرغام يسير وسط عتمة مرعبة نحو المدينة الأثرية... المدينة المحرمة.

يكاد يسمع حركة هنا وهناك بعض الخطوات تسير معه لكن لا يرى شيئًا، يشعر بعيون مضاءة في العتمة لكن سرعان ما تختفي... يقشعر بدنه، يقف شعر رأسه وتتعثر خطواته... دقات قلبه تكاد تصل لأقصاها والمرعب أنه يشعر بحرارة في جسده لا بل وحرارة من حوله... أنهم يحيطون به... يراقبون سيره وحركته... لا بل يشمون خوفه وارتعاشه. يبلع ريقه وهو يرتجف ثم يقف وسط الطريق... يأخذ زجاجة الماء... يفتحها... يضعها على فمه يرفعها ويرفع رأسه لتنزل جرعات الماء في حلقه الجاف من الخوف، إلى أن يمر شيء من أمامه بسرعة البرق فتقع الزجاجة البلاستيكية أرضًا وهو مرتعب... يكاد يتبول في بنطاله... «ما الذي مر من أمامي بسرعة؟» أخذ يصلي... أغمض عينيه بشدة وهو يصلي. كان صنمًا لا يتحرك من الرعب، والخوف يكاد يشله!! لم يسر سوى بعض الخطوات حتى بدأت هذه الأشياء بالحدوث... كيف له أن يكمل؟ أنه غير

قادر عن رفع قدمه اليمنى عن الأرض... لقد تسمر رعبًا... قدمه اليسرى كذلك... ماذا يفعل؟

ما عاد يستطيع التحمل... لا يمكن أن يفعل شيئًا أنه مرتبك.. خائف.. يرتجف.. وبدأت الدموع تنهمر من عينيه...

أنه ضعيف...

تذكر كلام ربعيل أنه قوي. والقوة لا يمكن أن نستمدها إلا من اللّٰه ومن ذواتنا! لا يمكننا أن نستمد قوة من أب أو أم أو عائلة أو عشيرة، لا يمكن للمال أن ينفع في منحك قوة دائمة ولا السلاح ولا العلم. القوة يمنحها اللّٰه لنا مجانًا وتولد في دواخلنا، بعضنا يعرف كيف يستثمرها وبعضنا تضيع هذه القوة في داخله إلى أن تختفي فيه وتخبو.

أنه قوي... حان وقت أن يجعل هذه القوة في داخله تتفجر كينبوع ماء في البرية وتسقي كل حياة فيه. سيفجر ينبوع القوة في داخله... لن يجعل هذه الأشياء تثير رعبه... تذكر أنه يملك هاتفه وفيه إضاءة جيدة... سيستخدمها ويتمنى أن لا يخذله هاتفه... أخرجه من بنطاله قام بإضائته فرأى أمامه الطريق جيدًا... وجائته القوة فأخذ يسير ببطء.

كان يحرك الهاتف يمينًا ويسارًا فتقع إضاءة الهاتف على معالم

المدينة الأثرية... بنايات مهدمة... أنصاف أعمدة منتصبة، وأعمدة منهارة، حفر في الجبال، مغر، أدراج، تماثيل شبه محطمة، وأخرى منصبة بلا معالم، أشكال هندسية، نقوش، وغيرها.

عمَّ يبحث؟ أنه الكتاب

أين يبدأ؟ لا يعلم...

تجاهل كل المغر والأبنية والمعابد والمعالم التي قال له ربعيل أن يتجاهلها... لكن وبينما هو يسير شاهد هذه الأشكال الهندسية. إنها مكعبة تقريبًا ويسمونها في القصص الشعبية بيوت الجن...

هل يعقل أن يكون الكتاب هناك؟

هل يسكن جنيٌ متوحش شرير تلك المكعبات؟

كانت ثلاثةُ مكعبات متتالية في ترتيبها من الصغير إلى الكبير. دار حول أول مكعب إلى أن وجد بوابة الدخول... لكنها ضيقة جدًا... لا يمكنه العبور منها... ماذا لو حفر عند بوابتها؟

نزل وأخذ يحفر في التراب... لم يجد شيئًا. ذهب للثاني دار حوله وحفر عند بوابته الضيقة... أيضًا لا شيء... دار حول المكعب الثالث كانت بوابته أكبر يستطيع الدخول منها للداخل... أرتعب من فكرة الدخول لهذا المكعب المُفرغ من الداخل، لكن قد

يكون الكتاب في الداخل... ركع نظر للداخل... أدخل رأسه... مد يده التي تحمل الهاتف إلى الداخل، فأضاء مصباح الهاتف جوف المكعب... كان كالغرفة الفارغة لكنها تمتلئ بالتراب، لا شيء في الداخل! أخذ يحفر بضع سنتمترات عند بوابتها ولم يجد شيئًا أيضًا.

أخرج رأسه... شعر بالإختناق وهو لم يدخلها بعد... أنه يريد بعض الأكسجين فقط... ويريد أن يتماسك أيضًا. اكتشف أن لديه رهاب الأماكن الضيقة... الآن؟ نعم أنه يخاف من البحر ومن العتمة ومن الأفاعي ومن العناكب ومن المرتفعات ومن المنحدرات ومن ومن ومن ومن... قائمة طويلة يضيف إليها الآن رهاب الأماكن الضيقة!

هذا كثير عليه...

لكن لا يريد أن يدع الأمر يمر هذه الليلة دون نجاح. لا بد أن يجد الكتاب ليحرر أصدقائه...

لا بد أن يدخل فقد يكون الكتاب مدفون في الداخل!

انبطح أرضًا وأخذ يزحف للداخل... الأمر صعب جدًا! ليس فقط بسبب خوفه بل الزحف على التراب الناعم نحو عتمة لا يعلم ماذا بداخلها!

كان يقول: »ماذا دهاك أيها الخواف لتشارك بهذا الفريق؟ ما الذي يعجبك بالدراسة في الخارج؟ لو بقيت في البيت لكان الأمر أفضل«

استمر بالزحف إلى أن تمكن كليًا من الدخول... أنه يرتجف بشدة

أنه مرتعب جدًا... مدفون كليًا

يشعر بقلة الأكسجين... يشعر بأن أحدهم بجانبه وآخر خلفه وأحدهم فوقه... عيون تتبربص به

تنظر إليه

تنوي الهجوم لكنها تنتظر حركة منه... حركة واحدة فقط!

وهو متجمد من الرعب... دقات قلبه المتسارعة وعرقه الذي يتصبب منه، وقد التصقت به حبيبات التراب الناعمة تجعلانه أشبه بكائن فضائي

تماسك أخيرًا... وضع الهاتف على جدارٍ ليضيء مصباح الهاتف هذا الصندوق الذي يكاد يطبق عليه.

أخذ يحفر يمينًا ثم شمالا ثم في الخلف ثم في الأمام... ثم شاهد نقشًا على الجدار الداخلي للمكعب... مكتوب ﴿من يدخل هذا المكعب دون إذن مني وينبش ترابه يتحول إلى تمثال﴾

«ماذا؟» قال ضرغام في نفسه

«هل سأتحول إلى تمثال؟ إلى حجر؟ كيف؟ لا يعقل؟ لا أُريد أن أصبح لعنة.

لماذا لم يخبرني ربعيل بهذا الأمر؟ هل خدعوني؟

أنهم متنمرون أيضًا! جعلوني لعبة بين أيديهم ليحققوا مرادهم.

أنهم لا يختلفون عن البشر بشيء.

لقد اقتحمت بيت الجن دون إذن وسأتحول إلى لعنة... إلى تمثال».

كان الأمر مرعبًا لضرغام فبدأت دموعه تنهمر... ثم سمع أصوات لا هي قريبة ولا هي بعيدة... كانت أصواتًا جميلة تغني... كأنها تراتيل عيد الميلاد، ثم ظهرت أمامه صور كأنها لوالديه، ثم شاهد نفسه كطفل. أنه يلعب بين قدمي والديه وأصوات العائلة تغني، أنه يتذكر هذا المشهد جيدًا... أنه أجمل مشاهد الطفولة لديه. كانت الدندنة تبعث في النفس السلام ولكن السلام كان بعيدًا جدًا... جدًا.

ثم اختفت الصورة وعاد يرى نفس النقش!

ثم تذكر!

لقد نبهه ربعيل من بعض المواقع وسحرها! إن الجن يلعبون! ثم

هذا النقش باللغة العربية وحديث!

اختفى النقش مجددًا

عاد للوعي

«لا بد أنها مخاوفي وأحلامي... لا بد أن أخرج من هذا المكان.

لكن أين الباب؟»

اختفى الباب فجأة. أنه الآن محصور في قبرٍ مغلق من كل الإتجاهات

ماذا يفعل؟

«هل هذه هي النهاية؟ هل وصلت لنقطة اللاعودة واللا تقدم؟

هل هي نقطة الإنتحار التي خطوتها بمجرد دخولي لهذا المكان؟»

أنه يفقد إتصاله بالواقع ثم يعود له...

«لا بد أن الباب موجود لكن هناك شيء ما يجعلني أغيب عن الواقع!»

سمع همسًا... «لا واقع... أنت مسجون هنا وستموت اليوم»

«لا. أنا أرفض هذا الواقع... أنا سأخطو الخطوة التي تتطلب مني أن أكون بطلا لا مجرد رجل» دخل في صراعٍ لا عدو فيه إلا مع ذاته ومخاوفه وضعفه... أخذ يطرق بيديه وقدميه كل ما يصادفه... أنه يريد الخروج، يخطط للخروج بأي طريقة.

«أنا قائد... لا جندي... أنا عظيم... أنا مقاوم... لستُ فاشلا. سأجعل هذه المعركة معركتي وسأنتصر فيها عليكم أيها الأوغاد. أعرف عدوي وأعرف أنه لا يرحم. أعرف عدوي وأنه لا يرحم... عدو سيقاتلك ويتمنى قتلك بلا رحمة أو شفقة، لكن لن أموت هكذا... لن أموت فاشلا ولا أحد يعرفني. ولن يعرف عن غيابي أحد... سيسجل التاريخ اسمي وسأكون في نظر الجميع البطل الذي لم يستسلم... القائد الذي رفض الاستسلام ومات من أجل الحب. أرفض أن أكون نكرة»

«ستموت مدفونًا تحت ركام التراب الذي تحركه الآن بقدميك ويديك وفي هذا البيت المسكون. لقد اغلقناه عليك ولا مجال لك للهرب... أنت مجرد حشرة وقد اصطدناها»

وقف ضرغام عن الحركة... لقد أُنهك!

«يا رب... يا رب لا تتركني وحيدًا. يا رب لا تتركني وسط هذا المكان. يا رب لا تتركني وحيدًا في سجني هذا ووسط هذه الجدران البائسة... يا رب لا تتركني أصبح حجرًا وأسير لعنةٍ وحبيس جدران... يا رب لا تتركني أموت حبًا بل أعيش من أجل الحب»

وظهرت فجأة بوابة الباب الصغيرة... فرأها ضرغام فهرب

زاحفًا للخارج...

ما أن خرج واستنشق الهواء حتى عرف أنه كان يقع تحت تأثير هلوساته ومخاوفه، وشر المكان الذي نبهه منه ربعيل.

كانت ثيابه كلها عَرَق وتراب وغبار... تذكر أن الجان لا ترى ما تحت التراب، قرر تركها، لعلها تشوش عليهم مشاهدته.

أخذ هاتفه مجددًا... ثم أخذ يحركه يمينًا ليرى الجدران والكهوف على اليمين ثم يسارًا ليرى المباني التي على اليسار... إلى أن وقف أمام مبنى شكله يشبه الصندوق وفوقه هرم ضخم.

«لم يقل لي شيئًا عن هذا المكان... سأقترب لأرى...»

كان المبنى مرتفعًا يحتاج لصعود الدرج ... درجٌ محفور في الصخر، وهناك بوابة وغرفة ضخمة... ما أن دخلها حتى اكتشف أن أرضيتها حجرية... لا تنفع... وعندما هم بالخروج رأى خيالا يدخل إلى المبنى من البوابة أيضًا. كان صوت أنفاس ذلك الشيء مرعبًا... تخترق الروح... تزلزل أعماق النفس...

أخذ الخيال يقترب وتقترب أنفاسه معه لدرجة أن صوت أنفاسه أصبحت تسمع صداها في تلك الغرفة الواسعة.

تراجع ضرغام نحو الخلف دون أن يدور، كان كمن يحاول أن يرى ما هذا الشيء وبنفس الوقت يبتعد عنه... كان يرجع

القهقرى... ينظر للباب الذي دخل منه حتى ارتطم جسده بالجدار الخلفي للغرفة... لا يمكنه التراجع أكثر!

ظهر من لا شيء مخلوقٌ ضخم كبير أحمر اللون كأنه بشري لولا أن بشاعة وجهه لا يمكن أن توصف. وجهٌ كوجه إنسان وقد اختلط مع وجه ثور وحمار ومنقار بومة، وجسده خليط بين جسد غوريلا وكنغر. لولا حجمه لوصفه ضرغام بالإنسان المسخ. لكنه ليس بإنسان! منظر مرعب لا يمكن لبشري أن يتحمل بشاعته. الخوف سيدب بأوصال أي بشري ينظر لهذا المنظر الشنيع.

الجان: <<ماذا تفعل هنا؟>>

ضرغام: <<من أنت؟>>

الجان: <<أنا حارس هذه الغرفة>>

ضرغام: <<وأنا سائح تائه>>

الجان: <<الكذب سمة عند البشر، لكننا نستطيع أن نعرف متى تكذبون. ماذا تفعل هنا؟>>

ضرغام: <<كنت أبحث عن مكان أنام فيه حتى يظهر الصباح>>

الجان: <<عدت للكذب. أتعلم أنني استطيع أن أُثير رعبك أكثر وتموت مكانك من الخوف. قل الحقيقة لآخر مرة وإلا مت>>

ضرغام: <<أنا هنا لأبحث عن كتاب مقدس كان يستخدمه أهل

هذه المدينة قديمًا>>

الجان: <<لأجل ذلك اقتحمت بيت الجن؟ لكن كيف عرفت عنه؟ من أخبرك؟ وماذا تريد منه؟>>

ضرغام: <<أنه كنز أثري عظيم سأربح من ورائه الكثير>>

الجان: <<عدت للكذب للمرة الثالثة... سأقتلك>>

ضرغام: <<لا لا أرجوك... سأخبرك الحقيقة. أنهم هم. هم من أخبروني عن الكتاب. أنه الوحيد الذي يطلقهم للحرية. أنهم يريدون الكتاب ليتحرروا من ارتباطهم بهذه الأرض ويرحلوا>>

الجان: <<إذا وجدوا البشري الذي يريدونه... لكنك مسخ ضعيف خواف، ماذا أعجبهم فيك؟ ألم يخبروك أنك ولو وجدته لن تخرج به حيًا من هنا>>

ضرغام: <<أخبروني ولكن تكفيني شرف المحاولة لهم>>

الجان: <<أنا أشعر بخوفك... لن تستطيع أن تجده>>

ضرغام: <<أنت تشعر بتعبي فقط. أنا قوي ولا أُهزم بسهولة>>

الجان: <<أنت غير واضح بالنسبة لي، وأشعر أيضًا بقوتك وعزيمتك! ما مر علي بشري بهذه الصفات مسبقًا>>

ضرغام: <<نعم أنا مختلط المشاعر>>

كان يرتجف بشدة

الجان: <<ألم يخبروك أن الكتاب مفقود ومستحيل أن تجده دون أن تتعاون مع الجن>>

ضرغام: <<أخبروني أنكم لا تستطيعون أن تروه وهو تحت التراب>>

الجان: <<لن تجده هنا... لا بد أن تبحث في أماكن لا يمكن لنا نحن الجن أن نراها. تعال لأريك أين يمكنك أن تجده>>

تحركا نحو الباب...

سر هناك حتى تلك المنطقة الترابية بين البيوت المهدمة. أتراها؟ هناك التراب حجب عنا رؤية ما تحت الأرض. أحفر هناك.

ضرغام: <<لماذا تساعدني؟ ألست مهتمًا بالكتاب؟>>

الجان: <<بلا... ولكن ستحفر لتخرجه وعندها سأسيطر عليك وأخذه لي، أما أنت فمصيرك محتوم>>

ضرغام: <<إذا لا مجال لأن أجد الكتاب وأخرج به سالمًا من هنا>>

الجان: <<قطعًا لا>>

ضرغام: <<هذا ليس حلا. أنا أُريد أن أحرر أصدقائي>>

الجان: <<وماذا يهمك أصدقائك! سأساعدك لتجده ثم تسلمني إياه وتموت بأقل ألم ممكن>>

ضرغام: <<لن أدعك تقتلني... أنا سأجده وسأخرج من هنا سليمًا وأسلمه لأصدقائي. لقد وعدتهم. نحن البشر نفي بوعودنا>>

الجان: <<بل أنتم جنس قذر، نتن، من تراب، نمامين، أفاقين، كذابين، وجوهكم سوداء أو صفراء أو بيضاء ومع ذلك تلبسون ألف قناع، مختلفين دومًا، عُوّق، تقتلون بعضكم بعضًا، معظم وعودكم كذب...>>

ضرغام: <<على مهلك... أنتم أيضًا مختلفين وكذابين ومن نار... لا فرق بين تراب أو نار كلاهما مادة>>

الجان: <<نحن لا نخون بعضنا بعضًا>>

ضرغام: <<لنتفق اتفاق. إن نجحت أنت فيه تأخذ الكتاب، وأنا أخرج من المدينة خالي الوفاض. وإن نجحتُ أنا فيه أخرجُ من المدينة ومعي الكتاب قبل حلول الفجر>>

الجان: <<لن تخرج بهذا الكتاب سواء نجحت أنت أو أنا>>

ضرغام: <<أنتم الجنس القذر لأنكم تعانون من حب الذات وكراهية الآخر وكراهية بعضكم بعضًا... أنتم جنس وضيع لا

يحترم كلمته. جنس خواف ساقط>>

الجان: <<أتعلم أنني أستطيع أن أقتلك الآن؟ لكن سأثبت لك أنكم أنتم البشر متنمرون علينا، أنتم من ينظر لنا هكذا>>

ضرغام: <<إذا لتلتزم بإتفاقنا. إن نجحت أخرج وإن فشلت أبقى وتقتلني... بكل الأحوال لن يكون هناك معنى لحياتي إن فشلت!>>

الجان: <<إن بقيت سأنال منك... سآخذ روحك وأتقمص جسدك... وسيكون الكتاب ملكي>>

ضرغام: <<إتفقنا>>

الجان: <<وماذا ستفعل؟>>

ضرغام: <<سأنتصر عليك بالحب. إن استطعت إثبات أنك تحب الآخر ستنتصر وإن فشلت سأنتصر>>

الجان: <<إتفقنا>>

ضرغام: <<وبشرط، ستمنع الجن من ملاحقتي وستحبني إلى أن أعترف أنك انتصرت>>

الجان: <<لكني لا أُحبك>>

ضرغام: <<حاول...>>

الجان: <<لكن... هل أنت تحبني؟>>

ضرغام: <<أنا لا أكرهك ولا حتى أخافك. قد لا نستطيع حب الجميع لكن على الأقل لا نجعل الكراهية صفة تلازمنا ومبدأ يتحكم بنا>>

الجان: <<كيف تطلب مني أن أحبك وأنت لا تحبني>>

ضرغام: <<نحن نعمل على المستحيل. المستحيل لديك أنت أن تحب بشري، والمستحيل لدي أن استسلم للخوف منك والموت على يديك>>

الجان: <<لا أفهمك>>

ضرغام: <<بمجرد أن يدخل الحب كيانك ستفهمني>>

الجان: <<الحب الحب الحب... ما هذا الشيء اللعين>>

ضرغام: <<دعنا نمشي نحو تلك المنطقة التي أشرت لي بها... وستكتشف الحب ونحن نمشي>>

الجان: <<هيا بنا>>

سارا معًا...

الجان: <<أخبرني عن الحب... وكيف تحب أولئك الذين طردناهم ومنعناهم من دخول مدينتهم>>

ضرغام: <<الحب هو تلك العلاقة التي تنشأ بين إثنين أو أكثر، يفدي أحدهما الآخر بروحه وحياته، يقدم له كل ما يحتاجه

من دعم وفداء وتضحية>>

الجان: <<وأنت الآن تدخل في وقت الليل لهذه المدينة الملعونة من أجلهم... نحن أيضًا نحب بعضنا بعضًا فأنا أخدم الجن بحراستي لهذا المكان. لقد فشلت ستسلمني الكتاب>>

ضرغام: <<لا أنت تحب فقط من جنسك... وليس جنسًا آخر. ألا ترى كيف تهابكم الحيوانات والحجارة؟ حتى البشر يخافونكم. لم يثبت أنكم تحبون البشر مثلا>>

الجان: <<كيف نحبكم وأنتم من طين؟ أنتم جنس مسخ وقذر>>

ضرغام: <<إن الأرواح المقيدة من جنس آخر ومع ذلك أنا أُحبها. الحيوانات من جنس آخر وأنا أُحبها. النباتات والحجارة... أشياء مختلفة عني ولكني أُحبها>>

الجن: <<أنت لا تحبني>>

ضرغام: <<قلت لك أنا لا أكرهك ولكن قد أُحبك. فالحب أحيانًا يولد من رفقة طريق. حتى لو لم أُحبك فأنا لن أكرهك. لو أنني أكرهك لخفت منك... لهربت... لكن ها أنا أسير معك وأتحدث إليك وأخبرك عن الحب. لعلك ستحبني قبل نهاية الطريق، وإن أحببتني ستنجح وتأخذ كل شي>>

وصلا للمنطقة التي أشار إليها الجان.

الجان: <<نحن نشك أنه هنا ولكن لستُ متأكدًا. لا يمكننا الحفر... أنت يمكنك>>.

أخذ ضرغام يحفر حفرة ولم يجده ثم أخرى ولم يجده... يبتعد قليلا ولا يجده ... يمينً بعض المترات ... يسارًا... يتقدم للأمام... يحفر ثم يحفر ثم يحفر...ولا شيء.

ضرغام: <<لقد تعبت... أصابعي تجرحت وأنا أحفر. لا شيء هنا. هل أخذتني إلى مكانٍ خاطئ لكي تضيع وقتي؟>>

الجان: <<لم أكذب ولن أكذب... ما زلتُ أعتقد أنه في مكان ما هنا>>

ضرغام: <<أين؟>>

الجان: <<أترى تلك البقعة! لم تحفر بها... جرب هذه المرة! حاول! أنتم البشر بارعون في التحفيز... سأتقمص هذا الدور تمهيدًا لأن أتقمص جسدك بعد قليل>> وأخذ يضحك.

قام ضرغام وأخذ يحفر متألمًا إلى أن وصل لعمق مناسب فشعر بشيء ما...

الجان متحمسًا: <<أنه الكتاب... أحفر... أنه الكتاب>>

ظهر من العدم بعض الجن وهجموا على ضرغام وهو يكاد يُخرج الكتاب من تحت التراب...

ضرغام: <<أترى هؤلاء الذين يودون قتلي وتقطيعي. دافع عني وسترى أنك بدأت بالحب!>>

وقف الجان بين ضرغام وبين الجن

الجن: <<إبتعد... إنك تدافع عن بشري يسرق ما نبحث عنه منذ عهود>>

الجان: <<أنه ملكي أنا... والكتاب لمن وجده أولاً. إنه ملكي أنا>>

الجن: <<إذا خذه منه واقتله>>

تدخل ضرغام...

ضرغام: <<تذكر الأنانية ضد الحب>>.

الجان: <<لا أنه يعلمني الحب ومتى ما أحببت أخذت الكتاب منه دون مشاكل>>

الجن: <<إنه يخدعك... إبتعد>>

الجان: <<من يمسه بسوء سأقتله>>

بدأ الجن قتالا فيما بينهم... وأما ضرغام فأمسك الكتاب بين يديه واحتضنه كما تحتضن الأم طفلها وأخذ يبتعد عنهم رويدًا رويدًا ثم انحنى أرضًا وفتح شنطته ووضع ترابًا فيها وثم الكتاب ثم غطى كامل الكتاب بمزيدٍ من التراب حتى ما عاد الكتاب

يظهر. رفع الحقيبة وقد أصبح وزنها ثقيل جدًا، قام ووضعها على كتفه، وإلتف، وأخذ يسير مسرعًا نحو الطريق التي وصفها له ربعيل... كان ثقل الشنطة والظلام يمنعانه من الجري لكنه كان يسرع قدر استطاعته.

لم يكن يملك وقتًا كافيًا لا بد أن يسرع قبل أن يظهر نور الشمس! إن ظهر الفجر والكتاب معه لن ينفع الكتاب.

شاهد ضرغام بوابة الخروج... كان يقول في نفسه لا بد أن يزيد سرعته لئلا ينتبه الجن لإبتعاده وهربه ولكي يصل لأصدقائه قبل فوات الأوان ثم...

وقف الجن أمام ضرغام...

كانوا سدًا ضخمًا منيعًا بينه وبين بوابة الخروج وقد أوشك أن يصلها.

أحدهم: <<هات الكتاب... وإلا قتلناك>>

ضرغام: <<بكل الأحوال ستقتلوني. أقتلوني... لكن لن تحصلوا عليه أبدًا>>

أحدهم: <<يال وقاحتك أيها البشري القذر... أين هو؟ هاته قبل أن نطلق عليك شرنا ولعنتنا فتصبح كلبًا مريضًا أو ضبعًا قذرًا، ويقتلك بني جنسك في الصباح الباكر. أين هو؟>>

ضرغام: <<لقد دفته هناك في المكان الذي تقاتلتم فيه>>

أحدهم: <<كاذب. نحن نعرف البشري عندما يكذب. لا بد أنه في الحقيبة التي تحملها>>

ضرغام: <<أنه معي لكن صديقكم الذي قاتلتموه قطع لي وعدًا ولقد خسر>>

أحدهم: <<سحقًا! ماذا فعل الوغد؟>>

ضرغام: <<وعدني إن أحب أن يأخذ الكتاب، وإن فشل أن أخرج سالمًا بالكتاب من هنا>>

أحدهم: <<أنه غبي. نحن جنس لا نعرف الحب. لكن وعدك سقط... لقد قتلناه>>

ضرغام: <<لا تسقط الوعود بالموت. روحه لن تسامحكم، وإن أخلفتم وعده ستحل اللعنة عليكم بقوة الكتاب الذي معي>>

أحدهم: <<كذب! أنت تكذب>>

ضرغام: <<من أراد منكم الكتاب فليأتي ويأخذه ولكن قبل أن يفتحه سيصبح الكتاب رمادًا... لا يمكنكم لمس الكتاب أنتم من نار. ستحتاجون لي... ستقتلوني ليحل أحدكم في جسدي ويفتحه، ولكن ما أن يحاول أحدكم أن يقتحم جسدي ستحاربه روحي. وروحي لا تعرف الخوف. أنا أقوى منكم جميعًا، وروحي

**ستهزمكم ولن تستفيدوا مني بالمطلق. تعالوا اقتلوني... ستجدون روحًا لا تهابكم ولا تهاب شيء، روح محارب لن يتوقف عن الحرب... إلى أن أنتصر عليكم. أبتعدوا عن طريقي... لا أمل لكم معي أنا سآخذ الكتاب وأخرج من هنا، سواء وقفتم بوجهي أم لا>>.**

**أخذ ضرغام يسير نحوهم غير آبه بوجودهم... تراجع الجن وهم مرتعبون من هذا البشري الذي يتكلم بقوة الأرواح السماوية.**

**سار نحوهم ثم في وسطهم وقد ابتعدوا عنه... ومشى نحو البوابة واثق الخطوة إلى أن وصل إلى البوابة...**

**أحدهم: <<أيها البشري!>>**

**وقف ضرغام وبينه وبين البوابة أقل من متر**

**أحدهم: <<لقد انتصرت علينا. لكنك لن تعمر طويلا... ستموت>>**

**ابتسم ضرغام ومشى وقطع البوابة ثم التفت للخلف ليرد عليه... وكان المكان خاويًا لا أحد هناك.**

**قال في نفسه: «لقد انتصر الخير![1]»**

1) انصح أن يتم قراءة هذا النص مع موسيقى HAVASI – Golden Wagle

ما عادت الحقيبة ثقيلة... ما عاد يشعر بالتعب... شعر وكأنه خفيف... أنه ريشة... أنه طائر... أنه نسر يحلق... أنه حر.

أخذ يركض نحو أصدقائه الذين كانوا ينظرون له وينتظرونه من بعيد... كانوا يبكون...

كان يبكي... كان صوت القيثارة يأتي من السماء وكأن الملائكة تريد الاحتفاء بهذا الحدث العظيم!

سلمهم الكتاب فانتقلوا معًا للمخيم في لمح البصر...

فتح ضرغام الكتاب على صفحة حدده لها ربعيل ووضعه أمامه فأخذ يقرأ، ويقرأ معه جنوده ... وضرغام ينظر إليهم... كانت الأمور تجري بسرعة كأن الحياة على وشك النهاية... أو بداية جديدة...

إنها دقائق ما قبل الفجر... دقائق ويرحلون. وسيصبح وحيدًا...

كان وحيدًا...وسيبقى وحيدًا... يكفيه أنه ما زال على قيد البقاء، أو كان البقاءُ وحيدًا... وهو الخِيار.

كان هذا الفجرُ غريبًا وسط الصحراء، لا صلاة تكفي لتؤنس هذا الخواء

ثم... بدأت أشعة الشمس تسطع عليهم... وهم يختفون الواحد

**تلو الآخر...**

**كأن أرواحهم انفجرت... أين ذهبت؟**

**ثم رأها تملأ الفراغ الضخم بين الأرض والسماء... طارت كالنسور من قيودها... تحررت من جبالها وطارت. كانت الأرواح كالنسور تصعد حرة... تطير... وتطير... وتطير**

**وتحوم حول المكان...**

**كان ضرغام ينظر لها بسعادة بالغة... إنها تودع الجبال والكهوف والوديان. تودع البشر والحجر. تودع الإنس والجن. تودع قصصها وتراثها وآلهتها وترحل بعيدًا... بعيدًا نحو الراحة الأبدية.**

**أخيرًا هي حرة وتحتفل بحريتها... تحوم فوق ضرغام**

**تودعه... ترقص فوق... ثم تحلق نحو الغيم الأبيض الذي ظهر فجأة**

**ترقص فوقه وتطير حرة أخيرًا...ثم ترتفع وترتفع وترتفع... وتختفي**

**تختفي للأبد.**

لقد أصبحت حرة.